يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية



أسرار الجاسوسية

وأشهر قصصها الواقعية، منذ أقدم العصور إلى اليوم!

للباحث الأخصائي: برنارد نيومان



برنارد نيومان

أسرار الجاسوسية



EPICS OF ESPIONAGE

BY

BERNARD NEWMAN

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الثالث والعشرون

أسرار الجاسوسية

تأليف : برنارد نيومان

ترجمة : ابراهيم موسى

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

رسالة « مطبوعات كتابى »

هل هى فى حاجة الى مزيد من الايضاح ؟

عزيزى القارىء ..

◆ وصلتنى منذ يومين رسالة كريمة من السيد « عبد الرحمن البيطار » ـ المواطن السورى العربى المقيم حاليا فى بيروت ـ يبدى فيها بعض الملاحظات المشكورة بشأن « مطبوعات كتابى » .. ونظرا لما تنطوى عليه هذه الملاحظات من آراء تهم قراء هذه السلسلة جميعا ، فقد أحببت أن أعرضها عليك ، مستطلعا رأيك فيها ، كى نتعاون على السير بهذا المشروع قدما نحو أهدافه المنشودة

يقول السيد البيطار فى رسالته ان العددين الأخيرين من « مطبوعات كتابى » قد هبطا عن مستوى هذه السلسلة ، كما هبط عنه عدد سابق صدر منذ شهور، هو : « فاتنات الرجال » .. وكما سيهبط عدد لاحق ، هو « الجاسوسية » ـ (العدد الذى بين يديك) ! ـ الذى يذكره عنوانه بعناوين الكتب الرخيصة !

هذا هو « الاتهام » الذى أحببت ألا أنفرد بالرد عليه فى رسالة خاصة ، بل أشركك معى فى مناقشته واستعراض وجهات النظر المختلفة بشأنه . فما هى هذه الأعداد التى هبطت عن مستوى بقية أعداد السلسلة ، فى نظر السيد صاحب هذا الرأى ؟.. تعالوا نستعرض سويا الأعداد المشار اليها ، كلا على حدة:

أما أول « العددين الاخيرين » فكان كتاب «فرنسا الجريحة على ضفاف النيل» ، الذى عالج فيه المستشرق « ادوين جون ديفيز » هزيمة جيش « لويس التاسع » فى المنصورة فى أواسط القرن الثالث عشر ، أثناء محاولته غزو مصر . فهل يعد « هبوطا » فى مستوى أية سلسلة ثقافية ، نشر كتاب علمى كتبه مؤرخ متخصص فى الدراسات الشرقية ، وتناول فيه حقبة هامة من تاريخ القرون الوسطى والحروب الصليبية ، هزم فيها العدوان على أرض شعب صغير مسالم ؟ .. أم يعد هبوطا فى المستوى ما احتواه ذلك الكتاب فى فصوله الأخيرة من « دراسة » جدية لأحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية و « الحضارية » ، فى ذلك العصر ؟.. هذا ما أترك لك الحكم بشأنه ، لى أو على !

ولننتقل الى الكتاب التالى ، فى قائمة الكتب موضع النقد والاتهام . فما هو ؟ .. انه كتاب « الابن الضال » ، الذى عالج فيه الروائى العالمى « هنرى بوردو » ـ عضو مجمع « الخالدين » ـ مشكلة حيوية هامة من مشكلات الأسرة ، فى كل عصر وكل مجتمع ، هى مشكلة الابن العاق الذى تستهويه امرأة طائشة فينحرف عن طريق الخلق والشرف والمبادىء ، الى حد ينبذ فيه عمله وأهله ومجتمعه وبلده .. ويفر مع الزوجة المارقة الى بلاد أخرى !.. ثم تجبره الظروف فى نهاية الأمر على أن يعود الى بلده نادما ليواجه محاكمة جنائية دبرها له الزوج

المخدوع ، فكادت تعصف بمستقبله وشرف اسرته الذى مرغه فى الوحل !

فهل يعد نشر هذه القصة التحليلية الرائعة ، « هبوطا » بمستوى « مطبوعات كتابى » ؟

أما الكتاب الثالث موضع الاتهام ، فهو « فاتنات الرجال » ٠٠ وقد تناول سيرة ست من الشخصيات النسائية التى لعبت دورا هاما فى التاريخ ، كان له أثره فى مصائر الدول ومقدرات الشعوب ٠ ومن هذه الشخصيات التى تحدث عنها الكتاب : كليوباترا ، مدام دى بومبادور ، مدام دى مونتسبان ، نيل جوين ، لولا مونتيز ٠٠ الخ

فهل يعد نشر هذا الكتاب التاريخى « هبوطا » بمستوى « مطبوعات كتابى » ؟

بقى الكتاب الأخير من « القائمة » المتهمة بهبوط المستوى ، وقد يدهشك ان تعلم انه الكتاب الذى بين يديك الآن - « أسرار الجاسوسية » - أى ان الحكم « عليه » قد صدر قبل صدوره ، وقبل أن يرى النور ، لمجرد ان عنوانه يحمل كلمة « الجاسوسية » ، التى يرى السيد صاحب الرسالة انها تذكره بعناوين الكتب « الرخيصة » !٠٠وأنا أعتقد انه لو تريث حتى يقرأ هذا الكتاب لعدل عن رأيه ، ولامتدحه مخلصا بدلا من ان ينتقده ٠ فلست أعرف كتابا آخر تناول هذا الموضوع الحيوى فى تاريخ الدول وتطورها بمثل هذا البحث « الرصين » والدراسة المستفيضة٠ولو افترضنا - جدلا - أن قصص الجاسوسية التى « يخلقها » خيال الروائيين من مؤلفى الروايات البوليسية ، قد يحتمل ان يوجه اليها هذا الاتهام ، من جانب من لا يسيغون هذا اللون من القصص ،فما أظنه يجوزبحال انيوجه الىهذا الكتاب بالذات، الذى انفقمؤلفه أعواما فىالبحث والتقصى من شتى المراجع التاريخية ، كى يتمكن من تصنيفه بمثل هذا الشمول وسعة الأفق اللذين تلمسهما وانت تقراه ٠٠ ففى كل صفحة منه تطالعكحقيقة تاريخية تناولتها يد التمحيص والتدقيق ، حتى لتحس وأنت تتابع فصوله كأن المؤلف يأخذ بيدك فى سياحة طويلة ممتعة تعبران فيها مجرى التاريخ البشرى منذ أقدم عصوره الى اليوم٠٠منذ عصر موسى ، والمسيح ، ويوسف الصديق٠٠ الى عصور : قيصر ، والاسكندر المقدونى ، وجنكيز خان ، وتيودورا ،وريشليو، ولويس الرابع عشر ، وكروموبل ، وكاترين دى مدسيس ، ونابليون ٠٠ حتى القرن العشرين ، الذى شهد حروب غليوم ، وهتلر ، وستالين ٠٠ الخ

فهل يعتبر نشر هذا الكتاب ، « هبوطا » فى مستوى « مطبوعات كتابى » ؟٠٠ وهل ترانى انحرفت عن الرسالة الثقافية التىاستهدفتها باصدار هذه السلسلة، التى أوضحت منذ البداية أنها تتناول الكتب القصصية ٠٠ وغير القصصية ؟

هذا ما أحب ان أسمع صوتك فىصدده -بعد أن تفرغ من قراءة هذا الكتاب- سواء كنت تؤيد السيد ممثل « الاتهام » فى رأيه ، أو كنت تخالفه

ومرة أخرى ، أوجه ـ مخلصا ـ عميق شكرى للسيد « عبد الرحمن البيطار » ، على رسالته الكريمة وانتقاداته .. فأنا مدين بالكثير من الفضل للمبدأ الذى أومن به على الدوام : ان الانتقاد هو أقصر الطرق الى الكمال !

بقيت كلمة اخيرة أود أن أسجلها هنا بشأن الكتاب الذى بين يديك ، فبحكم انه يخرج عن دائرة الأدب الصرف الذى التزمت نحوه مبدأ « الترجمة الكاملة الأمينة » التى لا تغفل سطرا واحدا من الأصل كما كتبه مؤلفه .. سمحت للمترجم الفاضل هنا بحرية اهمال بعض الفقرات التى تتناول تفصيلات ثانوية معقدة قد لا يهضمها القارىء ، ولا تؤثر فى سياق الكلام بحال

وتقبل أطيب تحياتى **حلمى مراد**

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صـــدر منها حتى الآن ســـتون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر

• وتطلب من ادارة كتـابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ـ ماعدا العدد ٢٠ ـ ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد العاشر وثمنه ٢٠ قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العـدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن ســنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى .

مطبوعات كتابى

صدر منهـا : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، اوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والحادى والعشرون ١٣ قرشا ، والثانى عشر والثانى والعشرون ١٤ قرشا ، والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

بيرنارد نيومان

أسرار الجاسوسية

وأشهر قصصها الواقعية، منذ أقدم العصور إلى اليوم



تطور الجاسوسية .. فى ٥٠ قرنا !

جواسيس موسى .. فى أرض (كنعان) !

• **الجواسيس** معروفون منذ أقدم عصور التاريخ .. وعلى وجه التحديد منذ عرفت الحروب . ونحن نجد فى سجلات التاريخ الأولى تعليقات لها مغزاها عن الجاسوسية ، من **مصر** الى **الصين** . وفى أيام قبائل الرعاة الرحل ، أصبح التجسس عملية معترفا بها . ويذكر التاريخ أن **يوسف** اتهم اخوته بأنهم جاءوا الى مصر لكى يتجسسوا ويتعرفوا على حالة بلاده فى السنوات السبع العجاف !

وقد وردت أول قصة للجواسيس ، رواها التاريخ المكتوب ، فى التوراة : كان **موسى** قد قاد الاسرائيليين حتى خرجوا من مصر ، ثم توقف بهم فى منطقة مجدبة . وكان « يهوا — اى الله — هو الذى نصح موسى بأن يبعث بجواسيس الى أرض **كنعان (فلسطين)** ، فاختار موسى بنفسه جواسيسه رجلا واحدا من كل قبيلة . وأظهر موسى تقديره لأهمية البعثة حين اختار الرجال البارزين من قادة القبائل ، وحين زودهم بتعليمات كثيرة دقيقة ، يفهم منها أن الجاسوسية لم تكن علما . ولا غرو فان الحكمة وليدة التجربة قبل أن تكون نتيجة التلقين

يقول الكتاب المقدس :

« ثم كلم الرب موسى قائلا : ارسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان ، التى أنا معطيها لبنى اسرائيل ، رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون ..

« فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، وقال لهم : اصعدوا من هنا الى الجنوب ، واطلعوا الى الجبل ، وانظروا

الارض ماهى · والشعب الساكن فيها ، أقوى هو أم ضعيف، قليـــل أم كثير · وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها ، أجيدة أم ردية · وما هى المدن التى هو ساكن فيها ، أمخيمات أم حصون · وكيف هى الأرض ، أسمينة أم هزيلة ، أفيهـا شجر أم لا · وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض »

ولا ينتظر من أى رئيس ضليع فى الجاسوسـية الحديثة ، أن يصـــدر الى جواسيسه من التعليمات ما يفوق التعليمات التى أصدرها موسى فى سـنة ١٤٠٠ ق٠م٠ ، وان كان الأمر يتطلب بطبيعة الحـال شيئا من التعديل والتبديل ، يتناسب مع تغير الظروف وتطور الحضارات ٠٠ لأن الواقع أن تعليمات موسى « غطت » الأمور الجوهرية فى مهمة أى جاسـوس ٠٠ بل ان تنظيمـه للعمليـة كان يدل على ذكاء · فلاشك فى أن المعلومات التى تأتى بها عدة مصادر ، تفوق فى القيمة والدقة ما يأتى به مصدر واحد

وعاد جواسيس موسى ليقولوا أن (**كنعان**) أرض يتـدفق منها **اللبن والشهد** ، وان كان سـكانها من العمالقة الجبابرة الضـــخام · وبعد ٤٠ عاما قضـــاها الاسرائيليون فى تردد وتوجس ، تغلبت الرغبة فى اللبن والشـــهد على الخوف من الجبابرة ، بتأثير جاسوسين معينين همـا : كالب ، ويوشع · وكان أن تقدم الاسرائيليون ودخلوا فلسطين

الجاسوسية والدعارة : أقدم مهنتين فى التاريخ !

◆ **قد** تكون صفة **رحاب** ـ عاهرة (**أريحا**) ـ من الأمور المتنازع عليها حتى الآن : فهل كانت جاسوسة ؟ أم «متعاونة» فقط ؟ أم من « الطابور الخامس » ؟

كان الزعيم الاسرائيلى « **يوشع** » قد بعث بجاسوسين الى (أريحـا) ، فأقاما مـع عاهرة محليـة ، مخلدين بذلك ذكر محالفة بين حرفتين من أقدم حرف العالم : الجاسوســية ،

والدعارة ! •• وحين ارتاب ملك (أريحا) فى الأمر ، عمدت رحاب الى اخفاء الجاسوسين تحت كومة من الكتان على سطح دارها ، ثم أعانتهما بعد ذلك على تسلق جدران المدينة، ليخرجا منها بسلام !

ولكن ، لماذا خاطرت رحاب بنفسها كل هذه المخاطرة ؟•• كانت فريدة فى نوعها •• نوع الذين يسيرون فى ركاب الجماعات السياسية فى عصرنا الحالى ، مترسمين مبدأ معينا يرشدهم الطريق ، هو أن يكونوا الى جانب المنتصر الظافر دائما •• هذا المبدأ الذى يؤكد مسئوليتهم عن كثير من شرور العالم ! •• نعم ، فان رحاب حين اقتنعت بأن الاسرائيليين سيستولون على (أريحا) ، عمدت الى مساومتهم ، وعرضت معاونتها لهم مقابل تأمين أسرتها فى الأيام التالية للغزو •• أيام النهب والسلب والمذابح ! بل انها رتبت لهم علامة سرية، هى خيط قرمزى ربطته فى نافذة بيتها ، حتى يعرف الاسرائيليون المنتصرون بيت التى تعاونت معهم !

دليلة •• ويهوذا الأسخريوطى !

• على أن لدليلة دعوى قوية ، هى انها أول جاسوسة حسناء فى التاريخ •• وقد كان اغراؤها لشمشون مبعث



ألوف القصص الخيالية التى وضعت فى العصر الحديث . ولكن ما فعلته دليلة كان أعظم من أن يسمى انتصارا للجاذبية الجنسية .. فقد كان جاسوسية من النوع الكلاسيكى القديم !.. كان شمشون للفلسطينيين أقوى من جيش بأكمله ، فأخذت دليلة تتحايل حتى اكتشفت سر قوته ، فجردته من أسبابها ، ثم أسلمته الى أعدائه !

والأمر الذى تجب ملاحظته ، هو أن الجاسوسية أصبحت فى ذلك العهد - عهد شمشون - من الأعمال التجارية التى تدر ربحا . فقد فعل جواسيس موسى ما فعلوه لدوافع وطنية ، وكانت رحاب تنشد أمنها وأمن أسرتها .. **أما دليلة ، فقد دفع لها سادتها أجرها ، وهو ١١ ألف قطعة من الفضة . ولابد أنه كان مبلغا ضخما فى ذلك الوقت ، وخاصة اذا قورن بالقطع الثلاثين التعسة ، التى دفعها كهنة اسرائيل لجاسوس كان تلميذا للسيد المسيح ثم خانه وسلمه اليهم ، وهو يهوذا الأسخريوطى !**

وتختفى دليلة فجأة من سجل التاريخ ، كعادة الجواسيس دائما . ويحتمل انها كانت واحدة من الآلاف الثلاثة الذين كانوا يحتفلون بالعيد فى **المعبد** ، عندما قوض شمشون الأعمى أعمدته ، فانهار وقضى عليهم جميعا .. فكان الذين قتلهم وهو على وشك الموت أكثر من الذين قتلهم طوال حياته ، على ما ورد فى التوراة

وقد طالما تردد أن التوراة كانت مصدر الوحى الأول لمعظم قصص الأدب العالمى . والذى لا شك فيه هو أن الأمثلة الثلاثة المتقدمة كانت أنموذجا أصليا لعدد كبير جداً من القصص المثيرة التى وضعت فى عصور مختلفة ، كما كانت قصة « أبو كريفا » عن أنبياء (بل) مصدر الوف من «حبكات» القصص البوليسية الحديثة

وتعطينا التوراة أمثلة كثيرة أخرى عن حيل للجاسوسية

ما تزال تستخدم بكثرة فى عصرنا الحالى • فعندما كان الملك النبى **داوود** فى خطر ، أرسل اليه **يوناثان** أشارات خاصة بالاسهم التى كانت تطلق على جهات اتفق عليها من قبل • أما داوود نفسه فانه استخدم فى نزاعه مع **أبشالوم** رجلا يدعى **هوشاى** ، كجاسوس سرى له ، تسلل الى معسكر العدو • وفى الوقت نفسه ، استعان أبشالوم بأحد مستشارى أبيه ـ وكان يدعى **أهيتوفيل** ـ ليتجسس له على معسكر داوود • وثبت بعد ذلك أن أساليب هوشاى السرية كانت حاسمة ، اذ وجد داوود نفسه فى موقف موات لكى يظفر بالنصر النهائى ، مما أدى الى أن شنق « أهيتوفيل » نفسه خزيا وحسرة • ولم يكن داوود بالرجل الذى يحط من شأن الجاسوسية وأهميتها ، ومن ثم قدر جهد هوشاى فى انقاذ عرشه ، وتهيئة فرصة النصر له فى حربه مع أبشالوم

الجاسوسية تتغلب على قوات هانيبال « المدرعة » !

◆ **والرقابة** العسكرية ظاهرة ضرورية من ظواهر مقاومة الجاسوسية فى العصر الحديث ، وهى أيضا ظاهرة قديمة قدم الكتابة ذاتها • وكان **الاسكندر الأكبر** يقدر امكانياتها • ففى احدى حملاته بآسيا ، سمع شائعات عن خيانات سيرتكبها حلفاؤه بعد وقت قصير ، فأعلن يوما أنه سيكتب عدة رسائل الى اليونان ، وعرض على ضباط جيشه وحلفائه ان يكتبوا ليحمل الضابط المختار بريدهم مع بريده • **وعندما استعد ذلك الضابط للسفر ، دعاه الاسكندر وفحص كل الرسائل التى كتبها رجال الجيش • وبهذا عرف اسباب الشكوى ، وعالجها بما عرف عنه من عظمة خلق ، بدلا من ان يلجأ الى حركة تطهير تسفك فيها الدماء**

وقد شجع الاغريق والرومان والقرطاجنيون الجاسوسية فى بلاد البحر الأبيض وغذوها • وعندما واجه القائد المعروف

سبيو الأفريقى أفيال **هانيبال** ، قائد قرطاجنة – وكانت الفيلة تؤلف القوات المدرعة فى ذلك الحين ! – كان قد علم من أحد الجواسيس موطن ضعفها ، ومن ثم أفاده ذلك · فقد كانت للأفيال مناعة تقيها السهام والحراب ، ولكن جاسوس سبيو اختلط بحراسها واستطاع ان يعرف منهم ان هناك سلاحا جديدا يملأ قلوب الأفيال ذعرا ، وهو الأصوات المدوية !٠٠ فحين هجمت الفيلة على قوات سبيو ، لم تقابل بحراب وسهام لا جدوى منها ، بل قوبلت بأصوات مصطنعة مدوية ، استخدم فى اطلاقها كل نفير فى الجيش ، ومن ثم جن جنون الفيلة ، وفقد قادتها سيطرتهم عليها فى ثوان معدودة · وبهذا استطاع سبيو ان يحرز نصرا حاسما !

أما فى روما ، فان الجاسوسية بلغت مستوى جديدا باشراف **كراسوس** – الذى كان يعاصر **يوليوس قيصر** – فلم يكن جواسيسه يعملون فى ولايات نائية بالامبراطورية الرومانية فحسب ، بل كانوا يعملون فى داخل روما نفسها ، فكان هذا هو أصل نظم البوليس السرية مثل الجستابو ، والتشيكا ، والاوجبو · وكانت روما تعج بمواطنين يخفون فى طيات نفوسهم طموحا شديدا ، فبث كراسوس جواسيسه وعيونه بين خدمهم ، خشية ان يصبحوا فى يوم ما أعداء لنظام الحكم · وقد جمع ثروة كبيرة من أعماله هذه ، عن طريق التهديد باستخدام المعلومات التى حصل عليها أو افشائها

ومنذ ذلك الوقت باتت الجاسوسية معترفا بها فى بلاط أى ملك أو امبراطور · فقد كان للامبراطورة **تيودورا البيزانطية** – التى سبقت برقصاتها المثيرة للحواس فى شبابها ، **الجاسوسة** المشهورة **ماتا هارى** – من الأسباب القوية ما جعلها ترتاب فى كل من حولها · ويذكر لنا المؤرخ المعروف جيبون ان جواسيسها الكثيرين كانوا يراقبون كل حركة وكل كلمة وكل نظرة ، ويرفعون بها تقارير الا الامبراطورة ، اذا كان فيها ما يمس

سيدتهم . وكان تقرير أى جاسوس من هؤلاء كافيا لسوق أى رجل الى نهاية بشعة أليمة !

لولا الشائعات لاحتل المسلمون أوربا !

• **ولقد** كانت **للنبى محمد** مواهب غير عادية مكنته من مقاومة الجاسوسية ، ولكن بعض خلفائه ذهبوا ضحايا لسلاح يعتبر من أسلحة المخابرات السرية ، أصبح فيما بعد قوة كبيرة في الحروب .. هذا السلاح هو : الشائعة !.. **ففى معركة « تور » - التى دارت بين المسلمين الاندلسيين والفرنسيين - فزع المسلمون لنبأ جاء فيه ان الفرنسيين أخذوا ينهبون خيامهم الملأى بالكنوز ، ومن‌ثم ترك الفرسان المسلمون الميدان ليحموا خيامهم من الناهبين الوهميين . وظنت بقية الجيش ان هذا يدل على الرغبة فى التقهقر ، فاقتدت بالفرسان ، وبذلك كسب الفرنسيون المعركة . وانه لمن المحزن حقا ان يجهل التاريخ اسم ذلك العبقرى الذى روج هذه الشائعة الزائفة ، فحال بين المسلمين وبين النصر ، وغير بذلك مصير أوربا كلها !**

وكان **لجنكيز خان** بين جموع المغوليين عدد كبير من الجواسيس .. وكان نظام الجاسوسية فى ذلك العهد يتقدم بخطى سريعة . ولما كان جنكيز يخوض غمار حرب خاطفة ، فقد كان عليه ان ينظم الجاسوسية بين صفوف أعدائه وينظم فى الوقت نفسه وسائل سريعة لتصله المعلومات التى يحصل عليها جواسيسه . وما زال بعض أنواع التجسس التى استخدمها متبعا الى اليوم : كان يبعث الى اعدائه مثلا بجاسوس يدعى انه فار من جيش جنكيز ، ثم يوحى اليهم بأن هجومه ليس وشيكا ، حتى اذا ما اطمأنوا الى ذلك ، فاجأهم جنكيز بهجوم خاطف فيأخذهم على غرة !.. كذلك استخدم جنكيز نوعا آخر من الجواسيس ، هو التاجر الجاسوس ، الذى كان يزور معسكر العدو ببضائعه ، ويفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع كل ما يفيد مولاه . وما زال

التاجر الجوال الى يومنا هذا خير « غطاء » أو « ستار » مناسب للجاسوس !

أساليب ديوان التفتيش الارهابية

◆ **وكان** للكنيسة – فى القرون الوسطى – نظامها الخاص لتجسس الأنباء · وقد جاء على أوربا وقت كان «البروتستانت» يتهمون فيه كل « جزويتى » بأنه جاسوس عليهم · كذلك نجد فى تاريخ الكنيسة ان ثمة اتصالا وثيقا بين الاستبداد والطغيان ، من ناحية ، وبين الجاسوسية الفردية من ناحية أخرى · **ويعيب بعض المؤرخين نظام التجسس الذى كانت تتبعه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ويلقون عليه تبعة فشل هذه الكنيسة فى الاحتفاظ بسلطانها فى شمال غربى أوربا ، قائلين ان الأساليب المنافية للضمير التى كان الجواسيس يتبعونها ، والمعاملة القاسية التى كانوا يصبونها على ضحاياهم ، قد أدت الى تعزيز المذهب البروتستانتى ، فى حين انها كانت تهدف الى هدمه !**

الا ان احدا لا يستطيع ان ينكر على جواسيس الكنيسة – اذ ذاك – كفاءاتهم · وقد أدت نظم « **ديوان التفتيش** » ومحاكمه فى اسبانيا ، الى رفع الجاسوسية الى مستوى جديد من حيث التنظيم والأساليب · فقد كانت شبكة جواسيس ديوان التفتيش تنتظم أعوانا من كل الطبقات ، من الأمراء الى المتسولين ، ومن الجنود الى الأطفال ·· فسبقت النازية – بعدة قرون – الى تشجيع الأتباع المخلصين على ان يشوا بأقاربهم ، وبثت جواسيسها فى كل مكان ، وكانت تعليماتها اليهم تقضى بأن : « على الجاسوس ان يكتسب صداقة المتهم وان يسعى الى استدراجه حتى يعترف له بجرمه ·· وليذهب فى ذلك الى درجة ان يدعى انه من شيعة المتهم » !

جاسوسية ريشيليو فاقت جاسوسية ديوان التفتيش !

• **على** ان جاسوسية ديوان التفتيش كانت ضيقة الأفق اذا قيست بالنظام الذى ابتدعه **الكاردينال ريشيليو** ، الذى قيل عنه انه كان خليقا بأن يبتكر « الجاسوسية » لو انها لم تعرف قبله ! ٠٠ وكان رئيس مخابراته السرية هو الأب « جوزيف دى ترامبلاى » ، الذى اشتهر بلقب « القس الرمادى » ٠٠

وقد كان اجتماع السياسة البعيدة النظر ، مع التطبيق الأمين الدقيق ، من أقوى أساليب « ريشيليو » التى لا تقاوم ، والتى خلقت جاسوسية عريقة ، بعيدة كل البعد عن الأساليب الاجرامية التى كانت متبعة فى ذلك العصر ٠٠ **فلقد كان ريشيليو فرنسيا قبل ان يكون كاثوليكيا** ـ أى انه كان يقدم مصلحة الوطن على دواعى الدين ـ ومن ثم شجع أمراء ألمانيا **البروتستانت** وحليفهم « **جوستاف ادولف** » السويدى ٠ وفى الوقت ذاته ، كان الجيش الألمانى الكاثوليكى تحت قيادة التشيكى العبقرى **والنشتاين** ، الذى كان يحظى بحب جنوده وولائهم ، ومن ثم كان أعظم خطر يهدد القضية البروتستانتية ، كما كان خطرا يهدد ريشيليو ذاته ٠ ومن ثم أوفد الكاردينال السياسى مساعده ـ الأب جوزيف ـ الى ألمانيا ، فأخذ هذا القس الوديع المظهر يتصل بالأمراء الكاثوليك من الألمان ، ويثير بالايعاز الخفى غيرتهم ضد « والنشتاين » ٠ وكان جواسيسه ـ فى الوقت ذاته ـ يوافونه بما كانوا يكتشفون من مواطن الضعف فى كل أمير ، فراح القس يعالج كل أمير على حدة ، ببراعة أدت فى النهاية الى عزل « والنشتاين » ٠٠ **وبهذا لم يتلاش أعظم خطر كان يتهدد ريشيليو فحسب ، وانما أدى عزل « والنشتاين » الى ثورة جنوده وانضمامهم الى الجيوش البروتستانتية !٠٠ وفازت الجاسوسية على المهارة العسكرية فى هذه المعركة !**

ولعل القارىء المدقق قد لاحظ ان الأمثلة التى سقتها حتى الآن ، تبين ان الأساليب المستحدثة فى الجاسوسية كانت جد قليلة · ولقد كان والنشتاين بالذات مثالا لظاهرة حديثة أخرى · اذ انه كان شديد الايمان بعلم الفلك ، ولم يكن يقدم على أية حركة دون استشارة الطوالع والنجوم · ويبدو ان الفلكيين الذين كانوا يخدمونه كانوا أسلم نية واكثر جرأة من أولئك الذين خدموا هتلر !·· فقد تنبأ واحد منهم بساعة موت ذاك القائد العظيم ، والطريقة التى يتم بها · وقد آمن والنشتاين بهذه النبوءة الى الدرجة التى جعلته يستسلم لمصيره ـ عندما حان ـ فلم يجرد سيفه ليصد الرجل الذى اغتاله !

دروس ·· فى حسن التجسس !

◆ **ومن** الممكن الاسهاب فى الحديث عن عراقة الجاسوسية ، دون ان يؤثر ذلك فى طرافة الحديث وتشويقه ·· واذا كانت أقوال موسى عن جواسيسه قد بلغت من الدقة درجة تدعو الى الاعجاب ، فان الأقوال التى صدرت عن قائد عظيم أتى بعده بزمن طويل ـ هو **مارشال دى ساكس** ـ ليست أقل روعة · فقد قال : « **لا تستكثر كل اهتمام يبذل للجواسيس والمرشدين ·· فهم كالعينين من رأسك ، ولا غنى لأى قائد عنهم ·· ولا تستكثر أى مال ينفق فى الحصول على جواسيس مهرة · ويجب الحصول عليهم من البلاد المعادية ·· ولابد ان يكونوا أذكياء بارعين ، وأن يبثوا فى كل مكان : بين ضباط القيادة ، وحملة الأسلحة ، بل وبين المتعهدين وموردى الأطعمة للجيش ·· فان مخازن التموين والمخابز من أروع المصادر للحكم على نوايا العدو !**

واذا كانت لقضية التجسس السوفييتى فى كندا اية قيمة ، فانها تؤيد اقتناع الروس بما قاله ذلك القائد عن استخدام الأعوان المحليين ـ من الأهالى ـ بأعداد كبيرة ، وفى الأماكن

التى يمكن الحصول على معلومات منها

ويستطرد المارشال دى ساكس قائلا : « ويجب ألا يعرف أحد من هؤلاء الجواسيس رفاقه ، كما يجب ان يكلفوا بمهام متعددة ٠٠ فيتسلل بعضهم – وهم الصالحون للتسلل – بين الضباط ، بينما يرافق بعض آخر الجيش كباعة أو تجار ٠ على ان يكون بين الفريق الأول عضو على اتصال بعضو من الفريق الثانى ، ليتسنى بذلك نقل المعلومات الى القائد الذى يستأجرهم جميعا ٠ الا ان هذه المهمة بالذات يجب ان لا توكل الا الى كل ذكى جدير بالثقة ، وان يختبر وفاؤه فى كل يوم ، للتأكد من ان لا سبيل للطرف الآخر الى رشوته »

وفى هذه العبارات الأخيرة ، نجد بذور النظام الذى يتبع فى « الخلايا » الشيوعية فى هذه الأيام !

هنرى السابع كان يسرق مكافآت جواسيسه !

◆ **ولقد** اقتبس « **ادوارد الثالث** » – عندما كان يحكم بريطانيا – نظام « المخابرات السرية » عن جمهورية البندقية ٠ على ان **بريطانيا** كانت تستخدم الجواسيس قبل ذلك ، حتى ان ملكها « **ألفريد العظيم** » لم يكن يتورع عن ان يقوم بنفسه بمهمة الجاسوسية ، وكان له فى ذلك أسلوب فنى بارع ٠ كان يتنكر فى ثياب كاهن ، ويرتاد أندية الضباط الدانيمركيين ، فيصغى الى أحاديثهم ٠ على ان ادوارد الثالث نظم الجاسوسية فى هيئة رسمية تستمد نفقاتها من خزانة الدولة

ولم يكن جواسيس تلك الأيام يهتمون بالبيانات العسكرية كهدف أول ٠٠ اذ كان ملوك تلك الأيام يحسون بأن العروش تهتز من تحتهم ، فكان هم كل منهم ان يجمع – عن طريق جواسيسه – البيانات المفصلة عن المؤامرات والدسائس ٠٠ ولم يكن الجواسيس – بوجه عام – من ذوى الخلق المتين والمقدرة الفنية ٠ وكان الذين يكلفونهم بالتجسس يتصرفون فيهم كيفما

يشاءون .. بل انهم قلما كانوا يثقون فى اتهاماتهم للناس ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الجواسيس يعاونون الملوك على التخلص من كل منافس قوى !

وفى عهد **هنرى السابع** تقدمت المخابرات الرسمية فى الكيف ، وزادت فى الكم .. اذ اغتصب هنرى الملك بالقوة ، ولهذا لم يكن يثق فى أحد . **وكثرت فى حسابات « الجيب الخاص » أرقام تصلح أساسا لأية مغامرة من مغامرات الجاسوسية . ومع ذلك فان سجلات الحسابات قالت عن جاسوس ذى لحية انه تقاضى مكافأة قدرها جنيه واحد ، وكوفىء راهبان جاسوسان بجنيهين !!**

كذلك ادخل هنرى السابع نظام الشفرة فى مراسلاته مع سفرائه فى الخارج ، وفى الوقت نفسه لم يترفع عن الاطلاع على بريد ممثلى الدول الأجنبية فى بلاده ! وكان ابنه – **هنرى الثامن** – والوزير « ولسى » فى مثل نشاطه .. بل لقد كان للأخير جواسيسه ، الذين كانوا كثيرا ما يعرقلون – بنشاطهم – أعمال الملك ذاته . ويجب الاعتراف بأن من يتولى أعمال الوزارة لملك ذكى ، محب للحياة – مثل الملك هنرى الثامن – لابد وأن يحتاج الى ادارة خاصة للجاسوسية ، ولو كان هذا لحماية نفسه . على أن هذه الادارة لم تنقذ ولسى ، بل انها ساعدت واحدا من أعوانه ، هو **توماس كرومويل** ، على أن يرتقى الى أعلى مناصب الدولة !.. وفى جو الدسائس الذى كان يحوط بمغامرات هنرى الخاصة ، وجد الجواسيس فرصا كثيرة لنشاطهم ، وخاصة فى مراقبة كل شاب يرشح للجلوس على عرش قلب الأميرة الصغيرة **اليزابيث** !

اليزابيث .. وجاسوسها الأعظم !

• **ومن** المحتمل أن « التلمذة » فى مدرسة الجاسوسية قد أحدثت تأثيرها فى اليزابيث .. اذ أنها أثبتت – حين ارتقت

عرش انجلترا ــ انها ليست « مستجدة » فى فن المخابرات السرية ، فقد اتخذت من سفرائها جواسيس لهـا ، وكانوا يرفعون تقاريرهم اليها بالشفرة ٠ أما وزيرها « سيسل » فقد تتلمذ على يديها !٠٠ ولكن « الشرف الاكبر » فى المخابرات السريه ، فى ذلك العهـد ، كان معقودا للسير **فرانسيس والسنجهام** ، هـذا الرجل القدير الذى يصلح كنموذج للجواسيس فى أى عصر ٠ فقد كان عالما خبيرا فى اللغـات ، وعرف عادات شعوب كثيرة فى أسـفاره ، وتلقى كثيرا من فنون الجاسوسية على أيدى الجزويت والايطاليين ، وكانوا فى ذلك الوقت أدهى جواسيس المخابرات السياسية !٠٠ وكان جواسيسه مستقرين فى مناصب عالية ، فى عواصم كثيرة ٠٠ وكانت تلك الايام أيام بيع وشراء ، ولذا لم يكن من الصعب شراء ذمة أى انسان ، ولو كان وزيرا !٠٠ وقد استطاع هـذا الرجل أن يحذر اليزابيث من مؤامرات كثيرة ، كان عقـل الملكة اليقظ ــ حينذاك ــ قادرا عـلى مواجهتها ٠ ولم يكن فرانسيس يستبقى جاسوسا واحداً « فى خدمته » مدة أطول مما يجب ، وبدلا من أن يمنح الجاسـوس ــ فى نهاية الخدمة ــ مكافأة مالية كبيرة ، كان غالبا ما يعينه فى منصب كبير ٠ ومن الأمثلة على ذلك أنه عين أحد جواسيسه ، بعـد خدمة خمس سنوات ، فى منصب « مراقب الدواجن » فى مطبخ الملكة !

وكان أعظم نصر أحرزه فرانسيس ، هو أنه حذر حكومته فى الوقت المناسب من خطر أسطول الأرمادا الاسبانى ، الذى كان يجهز لتدمير قوة بريطانيا البحرية ٠ وكان قد وضـع أحد جواسيسه بين خدم وأتباع أميرال الأسطول الاسبانى ، الذى اتفق أن مات فى ذلك الوقت ، فدب الاضطراب فى صفوف الأسبانيين ٠ (فهـل كان موت هـذا القائد من قبيـل المصادفات أم بتدبير محكم ؟!) ٠ وقد استطاع ذلك الجاسوس أن يزود رئيسه فرانسيس بقائمة كاملة عن عـدد السفن

الاسبانية وبحارتها ومخازنها . وعندما أعلن نبأ موت الرجل بعد ذلك ، كتب فيليب ملك أسبانيا على هامش الرسالة : « هذه أنباء طيبة » !

اغفال مكافأة الجاسوس يكلف غاليا !

◆ **وفي** عهد ملوك أسرة **ستيوارت** – وكانوا أشداء دائما – زادت قيمة المخابرات السرية الخاصة بأسرة **تيودور** المنافسة لهم . وقد ثبت بعد ذلك أن الاهمال يكلف صاحبه كثيرا جدا .. فانه كلف أسرة ستيوارت عرشهم ، وكلف واحدا منهم حياته !.. ولا غرو فقد كانوا غالبا ما يغفلون عن مكافأة أتباعهم وجواسيسهم ، ومن ثم أغفل هؤلاء ابلاغ الملك بحقيقة شعور الشعب . وفى عهد هذه الأسرة كانت هيئة « **حجرة النجم** » قد بدأت كمجلس عدالة ، ثم تحولت الى ادارة للمخابرات السرية ، وأخيرا أصبحت وكالة للقمع والارهاب .. فكانت تعبىء من الجواسيس والمرشدين عددا يزداد يوما بعد يوم . وكان هؤلاء يجعلون من حياة من يخالف أوامر السلطة القائمة جحيما لا يطاق . على أن هذه الهيئة السرية أدت الى احراز نتيجة هامة واحدة .. **فانها عاونت على تعمير أمريكا ، اذ كان المهاجرون الأوائل اليها هم أولئك الذين استبد بهم اليأس – من الانجليز – بسبب جواسيس هيئة « حجرة النجم » ، الذين لم يكن لهم أى مبدأ أو ضمير ، والذين كانت الحرب الأهلية فى انجلترا تنأى بهم عن التجسس السياسى ، وتحول هيئتهم الى « مخابرات عسكرية »**

على أن النظام الديموقراطى كان ينهض ببطء ، رغم هذا الفساد . ولم يتسن وقف الفساد تماما الا عندما جاء حكم **وليم ومارى** .. فقد كان وليم جنديا أصيلا ، فأولى المخابرات العسكرية اهتمامه ، بينما كان يحتقر المرشدين العاديين (المخبرين) ، ويفضل انشاء قوة خاصة تحل محلهم ، وتكون

تابعة للبوليس ..

وازدادت أهمية المخابرات السرية فى عهد أسرة **هانوفر** ، فأصبحت جزءا من نظام الدولة ، واستخدمت وسائل كثيرة ما زالت مطبقة الى اليوم ، مثل : الرقابة على البريد ، وتسلل الجواسيس ، واستخدام الشفرة ، والحبر السرى .. وهى حيلة كيميائية تجعل الكتابة منظورة أو غير منظورة ، وفقا للظروف والأحوال . على أن التوسع الذى حدث فى تلك الادارة كان يسيرا اذا قورن بما حدث فى بداية القرن الحالى . ففى سنة ١٩١٣ - مثلا - وصل المبلغ الذى اعتمده البرلمان البريطانى للمخابرات السرية الى ٥٠ ألف جنيه . وفى سنة ١٩٤٨ وصل المبلغ الى مليون ونصف مليون جنيه !

أباطرة .. يتجسسون لمصلحتهم !

◆ **كذلك** كان للجاسوسية فى ألمانيا شأن كبير . وقد زرت - منذ عهد قريب - حانة قديمة فى (ستراسبورج) ، ألحق بها فناء لم يكد يتغير فيه شىء خلال القرون الثلاثة الاخيرة .. وأتيح لى أن أرى على جدار فى تلك الحانة ، أسماء من مروا بها من المشاهير ، فاذا اسم **فردريك الاكبر** - الأمبراطور الألمانى المعروف - بينها . والشىء الذى لم يذكر الى جانب الاسم ، هو أن فردريك ، حين زار الحانة ، كان يتجسس لمصلحته الخاصة !.. ولم يكن فردريك أول زعيم يفعل ذلك.. فقد ذكرنا أن « ألفريد » - ملك انجلترا - كان كثيرا مايتسلل الى خطوط الدانيمركيين .. كما كان « جوستاف أدولف » - ملك السويد - يعرف عن أرض ألمانيا أكثر مما يعرف الأمراء الألمان أنفسهم ، اذ كان يسافر متخفيا باسم الكابتن « جارس » ، وهو اسم مؤلف من الحروف الأولى لاسمه ولقبه . وقد ثبت أنه لم يدرس التجسس فحسب ، وانما حذق أيضا فن التعمية أو « الكاموفلاج » ، وهو فن عرفه الصينيون منذ القدم ..

واذا كانت الأساطيل الحديثة تستخدم الدخان كستار مصطنع تخفى تحته حركاتها ، فان جوستاف سبقها الى ذلك، اذ أحرق أكواما من القش المبتل ، فانبعث منها دخان كثيف ستر زحف مراكب جيشه فى أحد الأنهار !

ولما كان الألمان مولعين بطبعهم بضخامة الهيئات والمنظمات، فان شبكة جاسوسيتهم كانت هائلة ، حتى أن فردريك الأكبر ذكر انه حين كللت حروبه بالظفر ، كان فى جيشه مائة جاسوس فى مقابل كل طباخ !.. وقيل انه كان يطلق فى أثر المارشال «دى سوبيز» مائة جاسوس متنكرين ، يتسللون الى معسكرات الجيش المعادى على أنهم طهاة !

من ساحات القتال .. الى مخادع الملوك !

• **وانتقل** التجسس ـ بعد ذلك ـ من ساحات القتال الى **مخادع الملوك** .. وقد حدث هذا فى عهد ملوك كان لكلمتهم حكم القانون . فقد يكون من الميسور اندساس الجواسيس بين مستشارى الملك ، أو بالأحرى ابتياع ذمم بعض مستشارى الملك ليكونوا جواسيس .. **ولكن الملك يكون ـ فى الغالب ـ أكثر تأثرا برأى المرأة التى تشاطره فراشه ، منه برأى مستشاريه .. وليس من المحتوم أن تكون تلك المرأة هى الملكة ، اذ أن الملكة لم تكن تحظى بمشاطرة الملك فراشه الا عندما يبغى انجاب ورثة رسميين للعرش !.. ومن ثم فقد كانت النساء اللائى نقلن الجاسوسية الى مخادع الملوك هن .. الخليلات والمحظيات !**

ولم يكن ثمة سبيل الى الاستعانة بالبغايا فى هذا المضمار، وانما كان الاعتماد الأول على السيدات ذوات المكانة والحسب .. حتى لقد كان بين السياسيين من يدفع بأخته لتكون عشيقة للملك ، فى سبيل مصالحه الخاصة . ومن أبرز الأمثلة فى هذا الصدد « **لويز كيرواى** » ، التى أعارها **لويس الرابع عشر**

ـ ملك فرنسا ـ **لتشارلس الثانى** ، ملك انجلترا • وكانت امرأة رائعة ، تنحدر من أصلاب ملكية فى فرنسا وانجلترا ، اذ كانت من سلالة « **هنرى نافار** » ـ الفرنسى ـ كما كانت من أحفاد تشارلس جيمس الانجليزى • وقد منحها تشارلس الثانى لقب «**دوقة بورتسماوث**» •• تقديرا لخدماتها الغرامية! فى حين منحها لويس الرابع عشر لقب « **دوقة أوبنيى** » ، اعترافا بخدماتها كجاسوسة • وكان أعظم أعمالها فى هذا المجال ، هو أن أغرت ملك انجلترا بقبول معاهدة دوفر ، التى كانت فى الواقع استسلاما تاما لرغبات فرنسا ، وترامیا فى أحضانها ، الى درجة جعلت تشارلس الثانى يستعين بالجيش الفرنسى على اخماد ثورة رعاياه على هذه المعاهدة !

وقد أدى اقبال الملوك على اتخاذ محظيات لهم الى قيام منافسات شديدة بين الوزراء ـ بعضهم وبعض ـ وبين الدول الاجنبية كذلك •• فكان بعضهم يدفع بالغوانى الحسان فى طريق الملك ، بينما كان غيرهم يسعى الى الاستعانة بالمحظيات الموجودات بالفعل •• وكانت هذه الطريقة من طرق التجسس تكلف صاحبها أبهظ النفقات !

ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن الملكات كن ينشأن على معرفة حقوقهن والتزام حدودهن •• ولكنهن ـ مع ذلك ـ كن كثيرا ما يسعين الى معرفة أقرب المحظيات الى قلب الملك ، فى أية لحظة معينة • وكن يلجأن فى ذلك الى أساليب التجسس، وقد كانت « **كاترين دى مديتشى** » أبرعهن فى هذا المضمار •• ويقال ان دم الجواسيس كان يجرى فى عروقها • **فقد حرصت ، عند انشاء قصر اللوفر فى فرنسا ، الى دس أنابيب خفية فى الجدران ، لتتمكن من أن تسترق السمع فى احدى الغرف ، لما يدور بين أفراد الحاشية فى غرفة مجاورة •• ولعل هذا منشأ المثل السارى : « للجدران آذان ! »**

وكانت نسبة كبيرة جدا من الوصيفات تعمل فى التجسس

٠٠ على أن مهامهن كانت تتجاوز مجرد تسقط المعلومات ، اذ كن يساهمن أحيانا فى خلق الثورات الشعبية التى أطاحت ببعض الملوك عن عروشهم ٠ فقد كان مما يثير عقول أهل الريف والعمال ـ فى أوربا الغربية ـ أن يدفعوا الضرائب لينفق منها الملوك فى بذخ على خليلاتهم !٠٠ ولم تكن المحظيات أنفسهن لترهبن تلك الثورات ، بل انهن كن من الذكاء بحيث يدركن تماما مدى تلك القوى التى كن يتسببن فى اطلاقها من عقالها !

ظهور الجاسوسية العسكرية الحديثة

◆ على أن الثورات فى أوربا لم تلبث أن تحولت الى طوفان أغرق الملكية فى كثير من الدول ـ وحمل هذا الطوفان على أمواجه نوعا آخر من الجواسيس والبوليس السرى والمرشدين ـ كما جرف فى طريقه النبلاء ، وأتبعهم بمن كانوا فى حكم النبلاء٠ وسادت عهود ارهابية ، انحط فيها مستوى التجسس، حتى غدا مجرد اتهام شخص ما كافيا لاعدامه ٠٠ تماما كما حدث فى أوربا الغربية عقب سنة ١٩٤٥ ، اذ كان اتهام أى شخص بأنه « تعاون » مع الأعداء الألمان ، كفيلا بأن يورده مورد الهلاك !

على أن التجسس لم يقتصر فى فرنسا على مجرد تدبير الدسائس والمؤامرات السياسية ٠ اذ كانت أوربا دائما فى حروب ، أو فى ارتقاب حروب ، وهى ظروف كلها مواتية للجاسوسية ٠ وكانت الجاسوسية قد غدت ـ فى تلك الاثناء ـ هيئات منظمة معترفا بها فى كل دولة كبيرة ٠ ولكن سياسة « مخادع النوم »والدسائس ، التى تفشت فى القرون الأخيرة، أثلمت نصل الجاسوسية ، كما هبطت بكفاءة التجسس الحربى٠ وقد أدرك « **ولينجتون** » ـ قاهر **نابليون** ـ قيمة الحصول على بيانات عن حركات الجانب الآخر فى المعركة ٠٠ وكانت هذه

بداية وجود الجاسوس العسكرى الحديث ٠ **وكان نابليون أكثر منه اهتماما بالجواسيس ، حتى لقدكان يرى أن الجاسوس الواحد ـ فى المكان المناسب ـ قد يعادل فى قدرته وعمله عشرين ألفا من الجنود !**

ولم يغفل نابليون ابتكار الأساليب التى تعتمد على الذكاء ٠٠ حتى لقد كانت أعظم المهام التى عهد بها مرة الى جاسوس له ، دسه فى معسكر الروس ، هى أن يتبين « من التى شاطرت القيصر فراشه فى الليلة السالفة » ، والعمل على أن تكون المقربات الى القيصر ، على استعداد لأن يعملن لحساب الفرنسيين !

الفصل الأول

« امبراطور الجواسيس »

• **أطلق** نابليون لقب « امبراطور الجواسيس » على « **كارل شولميستر** » . وليس لى أن أرتاب فى رجاحة رأيه ، فقد كان « شولميستر » فى مكانة شاهقة بالنسبة لكافة جواسيس العصور الماضية ، بل انه كان يبز أى منافس من جواسيس العصر الحاضر .. ولا ينفى هذا ان الوقت والظروف كانت فى صفه ، اذ ان الثورة الفرنسية والحروب النابليونية كانت تمهد سبيل الحياة العملية الحافلة لكل رجل اوتى مهارة وعزما وضميرا لا يحفل كثيرا بالحساب !

ولقد ولد شولميستر فى سنة ١٧٧٠ ، بالقرب من (ستراسبورج) ، لأب كان قسا من أتباع « لوثر » ، وكان يعتقد ــ سواء عن صواب أو عن خطأ ــ أنه من سلالة نبلاء المجر . وعندما سئل يوما أن يثبت هذا الزعم ، لم يتورع عن تزوير الوثائق اللازمة !

وقد اقترن شولميستر بفتاة من بنات الالزاس ، وأنشأ لنفسه هناك متجرا متواضعا لبيع السلع المصنوعة من الحديد ، فسرعان ما أثرى .. ولكن ثراءه جاء عن طريق غير طريق مهنته !.. ولما كان اقليم الالزاس من أقاليم الحدود ــ الواقعة بين فرنسا والمانيا ــ فان التهريب من أكثر المهن رواجا فيه !.. ومع ان القانون يحرمه رسميا ، الا ان السكان لم يكونوا يرون فيه أى عيب يضير ، ومن ثم لم يلبث صيت شولميستر ان ذاع بوصفه مهربا جريئا بارعا ! .. واستطاعت هذه السمعة أن تجتذب انتباه أحد قادة جيش نابليون ــ وهو الجنرال سافارى ــ

فاستخدمه جاسوسا ٠ وبعد ان اختبر مهارته ، عهد اليه بالمهمة الشاقة ، غير المستتساغة ، التى دفعت به الى الأمام فى مضمار الجاسوسية

نابليون يستعين بالجاسوس المجرد من القلب !

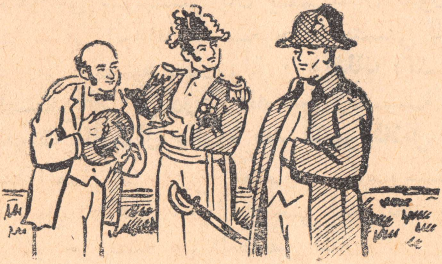
◆ **كان** ذلك فى سنة ١٨٠٤ ، وقد فرغ نابليون من تقليم أظافر الثورة ، واتخذ لنفسه تاجا امبراطوريا ٠ وكان عليه – فى بادىء الأمر – ان يحسب حساب الأخطار التى تتهدد ملكه وتاجه من امراء آل بوربون المنفيين ٠٠ فمع ان هؤلاء الأمراء كانوا عاجزين عن أى عمل ، الا انه كان فى وسع اعداء نابليون فى الخارج أن يتخذوهم مطايا للنيل منه ٠ وكان من هؤلاء الأمراء « دوق انجين » الذى لجأ الى ألمانيا ٠ وادرك نابليون ان بوسعه أن يرهب جميع الأمراء ، اذا هو أقدم على تصرف صارم مع واحد منهم ، ومن ثم وقع اختياره على « دوق انجين » ليكون كبش الفداء ، وعهد الى شولميستر باستدراج الدوق الى أرض فرنسية !

وعمد شولميستر الى القاعدة العسكرية التقليدية : مهاجمة العدو فى أضعف مواقعه ٠٠ وكان أضعف مواقع « دون انجين » هو قلبه ، اذ كان متعلقا بفتاة تقيم فى (ستراسبورج) ، فما كان من شولميستر الا ان اختطف عشيقة الدوق ونقلها الى بيت ريفى فى جنوب الالزاس ، بالقرب من الحدود ، ثم زور رسالة من الفتاة الى الدوق ، تناشده فيها ان يخف الى نجدتها ٠٠ وكأى عاشق ولهان ، بادر الدوق الى نجدة حبيبته ، وقد خيل اليه ان بوسعه ان يرشو الحراس القائمين على الفتاة ، ثم يختطفها ويحملها على جواده عابرا بها الأميال القلائل التى تفصل بين سجنها وبين الأراضى الألمانية ٠٠ حيث الحرية !

أما شولميستر ، فبعد أن أعد الفخ وزوده بالطعم الشهى ، قبع ينتظر ان تغتر الفريسة بالطعم ، فيطبق الفخ عليها فكيه ٠٠

ثم استبد به القلق ، فلم ينتظر وصول الدوق الى الفخ ، بل كمن له فى الطريق خشية أن يفطن الى الخدعة فى آخر لحظة فيبادر الى النجاة ٠٠ واستطاع الجاســوس الداهية ان يوقع بالدوق وهو على الحدود ، قبل ان يصل الى الأرض الفرنسية ٠٠ وتولى نابليون ما بقى من هذا الأمر ، اذ قدم الدوق المنكود الطالع الى محكمة عسـكرية تولت محاكمته فورا ، وقضت باعدامه رميا بالرصاص ٠٠ أى بقتله بطريقة قانونية !

وقال تاليران ـ وزير خارجيـة نابليون ـ ان ما حدث كان غلطة سياسية تفوق الجريمة شناعة ٠٠ وقد أصدر حكمه هذا عن حكمة وبصيرة نافذة ٠ ولكن الجنرال سافارى قدم شولميستر الى نابليون قائلا : « هـذا يا مولاى رجل كله عقل مفكر ، ولكنه



مجـرد من القلب » ٠٠ فوعـد نابليون بأن يهيىء لمثل هـذا « الوحش » فرصا كافية ، وأجزل له العطاء

وهكذا اطلق العنان لشولميسـتر فى مضمار الجاسوسية ، فكانت المغامرة التالية أعظم ما عمل فى حياته ٠٠ بل ان تاريخ الجاسوسية بأسره لم يضم لها مثيلا !

جيش كامل يتبدد ٠٠ بخدعة أمبراطور الجواسيس !

• **كان** « وليم بت » ـ رئيس وزراء بريطـانيا ـ قد وقف كل جهود بلاده وماليتها على تنظيم حلف دولى يحد من توسع

نابليون في بسط نفوذه السياسى . وكان العضوان الرئيسيان فى ذلك الحلف هما النمسا وبروسيا .. ولكن نابليون لم يشأ أن ينتظر حتى تقوم لهذا الحلف قائمة ، فتتوطد دعائمه، وانما آثر أن يكون البادىء بالضرب ، فيهاجم الحلف وهو فى مهده !.. وفى سبيل ذلك ، سافر شولميستر الى (فيينا) منتحلا لنفسه شخصية نبيل مجرى من سلالة عريقة ، زاعما أنه طرد من فرنسا حيث كان يتجسس على نابليون .. وهى حيلة كثر اللجوء اليها فى المناورات الجاسوسية الحديثة !

وعرض شولميستر خدماته على المارشال « ماك » ، القائد النمسوى .. واستطاع أن يدلى الى القائد بأمور كثيرة عن أحوال جيش نابليون ، أقنعته بقيمة هذا اللاجىء الطريد .. اذ أوحى الدهاء الى شولميستر بأن يتعمد أن تكون المعلومات التى أدلى بها - فى البداية - صحيحة ، يتسنى للنمسويين أن يستوثقوا من صحتها بسهولة . **وبذلك اكتسب ثقة السلطات العسكرية ، الى درجة أنه عين رئيسا للمخابرات النمسوية لقوات المارشال ماك ، بعد أشهر قلائل !**

وكان هذا العمل من أروع المغامرات الجاسوسية التى لا مثيل لها .. بل انه فاق الخيال ، حتى لقد اتخذ منه الكتاب موضوعا لأكثر من قصة من القصص المثيرة !

واستطاع شولميستر - وهو فى هذا المنصب الفريد - أن ينقل الى نابليون كل حركة كانت تحدث فى صفوف أعدائه . ولما كانت الموارد المالية التى وضعت تحت تصرفه واسعة ، فانه استطاع أن يرشو ضباطا من النمسويين لمعاونته . وتعمد أن يحصل على رسائل مزورة ادعى انها مهربة اليه من عناصر فرنسية ساخطة على نابليون .. بل انه أقدم مرة على نشر حديث كان نابليون قد أدلى به الى خاصته ، وزعم هو لرؤسائه فى النمسا ان أعوانه المنبثين فى فرنسا قد حصلوا له على نصه .. **ومن ثم وقع المارشال ماك فى أقدم خدعة عرفها**

التاريخ ، اذ اعتقد أن فرنسا تضطرم اسـتياء من نابليون ، وان جيش الأمبراطور يوشك أن يتمرد عليه !

ثم مضى شـولميستر فى خطته البارعة خطوة أخرى ، اذ أثبت للقائد النمسـوى ولرؤسـائه ــ بأدلة ووثائق مزورة بالطبع ! ــ ان نابليون شرع فى سـحب قواته من الميـادين الخارجية ، لقمع الاضطرابات التى بدأت تستشرى فى فرنسا .. ومن ثم انطلق ماك بجيشـه مغادرا الأراضى النمسوية ، زاحفا صوب (ميونيخ) ، ليطارد الجيش الفرنسي المنسحب .. **ولـكنه لم يلبث أن فوجىء بجيش فرنسى يعترض طريقه ، زاحفا نحو الشرق !.. وقبل أن تدور المعركة ، ظهرت ثلاثة جيوش أخرى عند جناحي جيش ماك .. وتبين القائد النمسوى أن الفرنسيين قد أحاطوا بقواته ، وقطعوا خطوط اتصـاله بقاعدته ، فجاهد متقهقرا الى (أولم) ، ولـكن انطباق فكى الكماشة الفرنسية عليه اشتد ..**

ولم تكن ثمة حاجة الى قتال يذكر ، لأن رجلا واحدا كان قد أعد كل شىء لضمان انكسار النمسويين دون ماحرب .. ولم يكن هذا الرجل سوى شولميستر !

ومع ذلك ، فان الجاسوس الداهية لم يكشف عن حقيقته ــ فى نشوة النصر ــ ولا فضحته الأحـداث .. بل انه كان بين الضباط النمسويين القلائل الذين تمكنوا من الافلات من حلقة الحصار الفرنسى !.. واسـتطاع ــ بما أوتى من جرأة تبلـغ حـد الاسـتهتار ــ أن ينـدس فى أعلى مجالس الحرب الروسية والنمسوية . ولم يقدر لنابليون يوما أن يحصل على معلومات عن أعدائه تضارع تلك التى كان شولميستر يزوده بها . على أن دور شولميستر لم يقتصر على استقصاء المعلومات ، وانما راح يغرى أعداء نابليون باتباع التوجيهات الاستراتيجية التى كان يمليها عليهم ، مما أدى الى انتصار نابليون فى معركة (أوسترليتز)

ولقد حاول الروس والنمسويون أن يبزوا نابليون فى خططه الفنية ، وأن يعزلوا جيشه عن قاعدته ، فانتشرت قواتهم فى ساحة طويلة ، ولكن خطوطهم كانت ضعيفة الى درجة جعلت نابليون يقول مباهيا : « لسوف يصبح هذا الجيش ملكى قبل أن يأتى الغد ! » •• ولم يكن يبنى حكمه على غير منطق أو حكمة ، فتم له ما أراد !•• **وأدى انتصاره فى (أوسترليتز) الى القضاء على ما كان يسمى اذ ذاك « الحلف الأعظم » ، كما قضى على « بت » ، رئيس وزراء بريطانيا الذى ناصب نابليون العداء طوال حياته •• وقد بلغ من حسرة « بت » وتشاؤمه ، انه قال غداة انتصار غريمه : « اطووا خريطة أوربا ، فاننا لن نحتاج اليها طيلة العشرين سنة التالية !»**

وهكذا استطاع جاسوس واحد أن يغير مجرى التاريخ ، وهو عمل نادر لا يكاد يكون له مثيل !•• على أن أعداء فرنسا كانوا قد بدأوا يرتابون فى شولميستر فى تلك الأثناء ، فلم ينقذ حياته من عواقب اكتشاف أمره سوى تقدم قوات فرنسا فى أوربا •• وقد حرص شولميستر — حتى اللحظة الأخيرة — على أن يحتفظ بأعوانه فى أرقى المناصب الرفيعة ، مما أدى الى ارتباك خطط النمسا وروسيا •• وبينما كان جيش كل منهما ينتظر وصول الجيش الآخر لينضم اليه ، كان نابليون قد استولى على العاصمة النمسوية !

وكان اللقب الوحيد الذى خلعه نابليون على شولميستر هو: « امبراطور الجواسيس » ! •• ولقد حاول الجنرال سافارى أن يحمل نابليون على أن يمنح شولميستر وسام « اللجيون دونير » ، ولكن نابليون أصر على أن يكتفى باللقب الذى ذكرناه ، قائلا ان الذهب هو المكافأة الوحيدة التى يحق للجاسوس أن يطمع فيها • والواقع أن نابليون كان سخيا ، اذ أصبح شولميستر موفور الثراء ، كما أنه تبوأ مناصب

رفيعة خطيرة الشـــأن : فكان مديرا للبوليس فى النمسا ، وقوميسيرا عاما للقوات الفرنسية ٠٠ ولكنه احتفظ دائما - الى جانب كل منصب - بمركزه كمدير للمخابرات السرية ٠ وقد هيأت له المناصب فرصا كافية لزيادة ثروته ، فاستغلها أعظم استغلال

وما كان سخاء نابليون بالمال دون الألقاب الا رغبة منه فى أن لا تتسلط الأضواء على الجاسوس ٠٠ فقد كان غروره كفيلا بأن يزين له أن يبدو للناس أنه صاحب الفضل كله فى انتصارات نابليون !

الجاسوس الذى يخدم وطنه ٠٠ لا يكون وضيعا !

◆ **ولقد** ينظر بعض الناس الى الجاسوس نظرتهم الى «مخلوق وضيع» ، يستخدم وسائل قوامها الجبن والنذالة ٠ ولكن هذا القول لا يصدق فى كل الاحوال ، فان الجاسوس الذى يعمل لنصرة قضية بلاده يؤدى خدمة من «أنبل» الخدمات ٠٠ كما ان الجاسوس يحتاج الى شجاعة ، اذ انه « وحدة » قائمة بذاتها ، فهو لا يعتمـــد على اخوان أو زملاء يساندونه ويقوون روحه المعنوية ٠ ولا مراء فى أن « الشجاعة » - بما لهذه الكلمة من مدلول عسكرى - لم تعوز شولميستر ٠ **فقد حدث فى احدى المناوشات بمدينة (ويزمار) أن دب الاضطراب فى صفوف القوات الفرنسية ، واذا شولميستر يتصدى لثلاثة عشر من الفرســان الهاربين ، فينظم منهم قوة شن بها هجمة عنيفة مكنته من الاستيلاء على المدينة !٠٠ واستطاع فى معركة أخرى أن يدافع وحده - تقريبا - عن جسر ذى قيمة حربية ٠٠ وعندما قامت حوادث الشغب فى (الالزاس) ، سعى حتى اعتقل زعيمها وأعدمه فى الحال ، فقمع الثورة برصاصة واحدة !**

ومن سخريات القدر ان نجاح شولميستر أدى - فى الوقت ذاته - الى انهيار مكانته ٠ اذ أن نابليون لم يكد يطمئن الى

انه أصبح سيد النمسا بأسرها ـ وكان جزء من الفضل فى ذلك يرجع الى دهاء شولميستر ـ حتى بادر الى الزواج من الاميرة « مارى لويز » النمسوية ٠ وقد قدر لها أن تعرف الدور الذى لعبه هذا الجاسوس فى ايقاع الكارثة بوطنها ، فعملت على حرمانه من الحظوة التى كان يتمتع بها فى البلاط الفرنسى ٠٠

واعتزل شولميستر الناس فى ضيعة له بالألزاس ٠ **ولكن الجيش النمسوى لم يكد يدخل هذا الاقليم ، بعد انهيار نابليون ، حتى اتجهت بطارية كاملة من مدفعيته الى تلك الضيعة ، وأزالت بيت شولميستر من الوجود ٠٠ ومع ذلك ، ظل الرجل وفيا لنابليون فى محنته ، فما ان هرب الامبراطور من جزيرة (البا) ، حتى انضم شولميستر اليه ٠٠** ولكن نابليون لم يلبث أن هزم فى معركة (واترلو) ، فاعتقل شولميستر ٠ غير انه تمكن من الهرب بعد أن رشا الحراس وخسر الجزء الأكبر من ثروته

ومع أن أسرة « بوربون » لم تبد كرما نحو رجال نابليون ـ حين عادت الى حكم فرنسا ـ الا انها تركت شولميستر يعيش ٠٠ بل انها منحته ترخيصا بفتح حانوت لبيع السجاير والتبغ فى (ستراسبورج) ٠٠ وقد حدث فى سنة ١٨٥٠ أن زار رئيس جمهورية فرنسا ـ الذى أصبح امبراطورا باسم نابليون الثالث ـ عاصمة الالزاس ، فذهل وزراؤه حين رأوا ان أول عمل حرص عليه ، هو أن زار حانوتا متواضعا لبيع التبغ ، وصافح صاحبه الشيخ !

وضرب شولميستر رقما قياسيا فى أعمار الجواسيس ، اذ مات وهو فى الثالثة والثمانين من عمره !

الفصل الثانى

« أستاذ الجاسوسية »

◆ **اذا** كان شولميستر « امبراطور الجواسيس » ، فان ولهيلم شتايبر كان أستاذا للجاسوسية .. وهما معا يتقاسمان فضل تأسيس الجاسوسية بشكلها الحديث !

ولقد كان كل منهما ينحدر من أسرة فقيرة ولكنهـا كريمة الاصل . وكان لكل منهما اتصال بالكهنـوت .. فقد اتجهت دراسة « شتايبر » فى البداية الى الدين ، ثم اتجـه الى دراسة القانون فى برلين ، وادى اتصاله بالمجرمين ـ بحكم مهنتـه كمحام ـ الى ان يحترف الجاسوسية . ولم تكن مغامراته الأولى مشوقة ، لان بروسيا كانت تحت حكم عاهل مستبد ولكنـه جبان ، هو « فردريك ولهيلم » ، الذى كان يعيش فى رعب من الأفكار الديمقراطيةالتىاجتاحت أوربا حوالى عام ١٨٤٨

وكانت وسائل شتايبر سهلة بسيطـة ، اذ كان ينضم الى الجمعيات الثورية ويتظاهر بالتحمس لها ، لكى يتمـكن من معرفة أسرارها . **وحدث مرة ان هاج القوم ضد الملك ، واتجهوا الى قصره ، فتحايل شتايبر حتى صار على رأسهم ، وأبدى من النشاط والتحمس ما حملهم على « انتخابه » متحدثا باسمهم . واذ ذاك ، استطاع ان يطمئن الملك المـذعور الى ان « جاسوسه شتايبر » يقبض على أزمة الموقف !** ولم ينس الملك قط هـذا الحادث طيلة حياته .. أو طيلة السنين التى ظل خلالها محتفظا بعقله ، على الأقل ! .. ولما كانت لشتايبر خبرة واسـعة بالقانون الجنائى ، لذلك لم يكن ثمة عجب فى أن تعينه السلطات العليا مديرا للبوليس ، وهو لم يتجاوز الثانية والثـلاثين من عمره !

وما ان تولى هذا المنصب ، حتى شرع فى تنظيم ادارته وفق

رغبته ، فاستعان الى جانب ضباطه النظاميين بنفر من عملائه المجرمين! ورحل الى انجلترا ليراقب الألمان المبعدين عن بلادهم، ومنهم كارل ماركس ، صاحب كتاب رأس المال !

وظل شتايبر يتمتع بنفوذ هائل حوالى عشر سنوات ، ثم أصبح جنون الملك أشد من ان يخفى ٠٠ وكان الوصى على العرش - وقد تبوأ الحكم فيما بعد باسم الامبراطور غليوم الأول - يعتقد ان تعيين شتايبر فى منصبه من آثار جنون ابيه، ومن ثم فصله من الخدمة فجأة ٠ وانتهز اعداؤه الكثيرون هذه الفرصة ، فساقوه الى ساحة القضاء متهما باثنتى عشرة تهمة ٠٠ ولكن ذكاءه والمامه بالقانون الجنائى مكناه من ان يبرىء نفسه امام القضاء ٠ وقد عمد فى سبيل ذلك الى اماطة اللثام عن جهوده فى الجاسوسية ، مثبتا أنه ما بذل هذه الجهود الا لمصلحة العرش ٠

وهنا حدثت ظاهرة عجيبة : فمن المعروف ان افتضاح أمر الجاسوس وتكشف هويته ، يسدان أمامه ميدان التجسس بعد ذلك ٠ أما فى حالة شتايبر ، فان اماطة اللثام عن أسراره كانت بداية حياة جديدة بالنسبة اليه٠ فقد التحق بخدمة قيصر روسيا ، وقضى خمس سنوات مشرفا على مراقبة أعداء القيصرية من الروس المقيمين فى الخارج

على ان شتايبر ظل فى قرارة نفسه بروسيا ، متعلقا بوطنه، رغم عمله فى خدمة القيصر ٠ فما ان انتهى أمد هذه الخدمة ، حتى عاد الى بلاده بثروة كبيرة من المعلومات عن روسيا

وكان تجسسه - حتى ذلك الحين - قاصرا على الميدان السياسى دون العسكرى ٠ ولكنه قدم الى « بسمارك » فى سنة ١٨٦٣ ، فأدرك ذلك السياسى الثاقب البصيرة ، مدى مقدرة شتايبر وكفاءته ٠٠

وكان أهم ما يسعى اليه بسمارك - فى تلك الآونة - ان يجرب قوة بروسيا ازاء النمسا ، بعد ان أعد الجيش البروسى

تمام الاعداد لتلك المهمة ، طامعا في أن يدحر النمسا ويمكن لبروسيا من ان تنزعم الدويلات الالمانية .. ومن ثم طلب الى شتايبر ان ينظم النشاط الجاسوسى - فى قلب النمسا ذاتها - تمهيدا لهذه الغاية

بائع التماثيل الذى أصبح مستشارا للملك !

◆ **واتبع** شتايبر ، فى سبيل التسلل الى معسكر الأعداء ، ما اتبعه شولميستر من قبل ، مع فارق واحد : فقد دخل شولميستر النمسا منتحلا شخصية سليل لاحدى الأسرات النبيلة .. أما شتايبر فقد دخلها كبائع متجول ، يدفع امامه عربة محملة بالتماثيل الدينية الصغيرة ، والايقونات ، وبطاقات البريد القذرة ! .. وكان موفقا فى اختياره ، فان الجنود يشغفون عادة بالأيقونات والصور !

وظل شتايبر يدفع عربته فى أرجاء النمسا أربعة أشهر . وكان يدخل معسكرات الجيش ويساوم عملاءه من الضباط والجنود ،



ثم يجاذبهم أطراف الحديث .. وعندما عاد الى بروسيا ، دهش الجنرال فون مولتكه - القائد البروسى المشهور - لدقة المعلومات والبيانات المفصلة التى حملها ، والتى استعان بها بسمارك ، فلم يلبث ان اتخذها قادته اساسا فى رسم خططهم ، وتحديد مواعيد عملياتهم الحربية ... **وبهذا استطاعوا ان يكسبوا المعركة**

الحاسمة بعد ستة أسابيع من بدء الحرب !
ولقد عين شتايبر ـ أثناء هذه الحملة ـ مديرا للأمن ، ولكن الضباط الاوتوقراطيين فى الجيش البروسى كانوا ينفرون منه ، وان كان « فون مولتكه » قد أسبغ عليه رضاءه ، وأنعم عليه بوسام رفيع . **ولم يكن القائد البروسى محابيا فى هذا ، فان شتايبر لم يقتصر على كشف مواطن الضعف فى النمسا ، بل انه نظم هيئة جد قديرة لمقاومة جاسوسية الاعداء فى بلاده ، واستغل ما أصبح معروفا اليوم بأنه أقوى سلاح فى الحرب الباردة أو الساخنة على السواء .. سلاح الدعاية !** وقد بلغ من براعة شتايبر ، انه استخدم هذا السلاح بحديه : استخدمه فى رفع الروح المعنوية لدى البروسيين ، كما استخدمه فى اضعاف الروح المعنويه لدى الأعداء !

وفى تلك الاثناء ، كان « غليوم الأول » ـ الذى أقصى شتايبر عن منصبه حين كان وصيا على العرش ـ قد أصبح ملكا لبروسيا .. ولكنه اضطر فى هذه المرة الى الاعتراف بفضل شتايبر وجهوده ، فمنحه مكافأة مالية سخية ، وعينه مستشارا خاصا للملك !

« أستاذ الجاسوسية » .. يمهد لغزو فرنسا !

◆ **وما** ان انتهى بسمارك من حرب النمسا ، حتى بدأ يتطلع الى محاربة فرنسا . ولم يشغل باله ـ اذ ذاك ـ سوى ان قادة جيشه أبدوا رغبتهم فى تجنب فتح جبهة ثانية ، أو بالاحرى فى تجنب اشتباك روسيا مع بلادهم اثناء محاربة الفرنسيين . وقد استطاع شتايبر بدهائه وذكائه ان يحقق لهم رغبتهم هذه . اذ جمع معلومات تثبت وجود مؤامرة بولندية لاغتيال قيصر روسيا ـ الذى كان يزور فرنسا فى تلك الفترة ـ ولكن شتايبر تكتم هذه المعلومات حتى اطمأن أولا الى ان البوليس الفرنسى اعتقل المتآمرين فى الخفاء ، اى دون ان يدرى القيصر بما كان

يجرى .. واذ ذاك فقط ، **اذاع شتايبر ما كان لديه من معلومات .. ولما لم يكن التآمر على قيصر روسيا بالجريمة الخطيرة ، لا سيما فى عهد ديمقراطية نابليون الثالث ، فان المتآمرين لم يعدموا ، مما أحنق القيصر الروسى .. ومن ثم دب الجفاء بين روسيا وفرنسا !**

وبدأ شتايبر بعد ذلك حملة التجسس التى اراد ان يمهد بها لغزو فرنسا ، فقضى ثمانية عشر شهرا يجوس خلال الاقاليم الشمالية الشرقية من فرنسا - وهى التى كان مقدرا ان تغدو ميادين للقتال المقبل - وانشأ شبكة للجاسوسية على نطاق لم يسبق له مثيل ، وقد ساعده فى ذلك ان القيود لم تكن شديدة على الحدود القائمة بين بروسيا وفرنسا ، حتى ان كثيرا من الألمان كانوا ينتقلون الى فرنسا وينتشرون فى أرجائها سعيا وراء الرزق .

وكان شتايبر يدرك فداحة المسئولية الملقاة على عاتقه .. فلو انه ارتكب خطأ واحدا ، لكانت فى ذلك الطامة الكبرى ، اذ كان بسمارك يعتمد على تقاريره ويعول على ما يجىء بها لاتخاذ قراره النهائى ، سواء بالحرب أو السلام ! **ومن ثم عكف الجاسوس على دراسة « طبوغرافية » المنطقة التى كان مقدرا أن يدور فيها القتال ، وعنى بملاحظة مواطن الضعف فى خطوط المواصلات والامدادات .. وبذلك أدى خدمة جديدة للجاسوسية الحربية التى تسبق العمليات !**

كذلك جمع وأعوانه احصاءات سرية دقيقة عن الشئون الاقتصادية لمناطق الحدود ، ليمكن القائد الالمانى من تقدير ما تستطيع كل قرية أن تمد به الجيش الغازى من مؤن وأقوات . وما لبث شتايبر ان عاد الى بروسيا فى أوائل سنة ١٨٧٠ ، وقال لبسمارك - مباهيا - انه بث ثلاثين الفا من اعوانه فى فرنسا .. ومع ان العدد الحقيقى لم يتجاوز أربعة آلاف - فى الواقع - الا

انهم كانوا يؤلفون اكمل شبكة للتجسس عرفها التاريخ حتى ذلك الحين !

وانتصرت قوات بروسيا ، ووقع الأمبراطور الفرنسى نابليون الثالث فى أسر الألمان ، واستقر شتايبر ورجاله فى قصر (فرساى) . حتى اذا سعى السياسى الفرنسى المعروف « جول فافر » الى مفاوضة الغزاة المظفرين ، انزله الألمان فى ذلك القصر .. واذ ذاك ، انتحل شتايبر شخصية خادم عين للعناية بحاجات الضيف ، وبذلك تسنى له ان يتجسس عليه ، وأن يفحص رسائله ويتعرف من خلال سطورها مواطن الضعف فى موقف الفرنسيين ، مما ضاعف من فرص المساومة لدى الجانب الألمانى !

وازداد عدد الأوسمة التى نالها شتايبر ، حتى أصبح ٢٧ وساما .. ومع ذلك ، فان العسكريين الألمان ظلوا يزدرونه !

والواقع ان النصر لم يغر شتايبر على أن يخفف من وطأة الجاسوسية على فرنسا ، اذ كان يرى ان فرنسا لن تقعد عن الانتقام من ألمانيا . ولهذا ظل يحتفظ بشبكة جاسوسيته ، وأخذ يبتاع الفنادق ويعين أعوانه فى مناصب الادارة فيها ، كما راح يبثهم فى دور الوزراء ومكاتبهم .. حتى لقد كانت خليلة وزير الحربية الفرنسى ، كماكان حوذيه ، من جواسيس شتايبر ، فى فترة من الفترات !

يموت محسورا .. لأن الألمان كانوا يزدرونه !

◆ **على** أن المهام التى كانت ترتقبه فى ألمانيا ، كانت أخطر وأكثر ارهاقا .. فان الدويلات التى اندمجت فى الأمبراطورية الألمانية الجديدة كانت مصدر خطر كبير ، اذ كان من المحتمل أن تنتقض على الامبراطورية فى أى وقت . ومن ثم حرص شتايبر على أن لا يغفل مراقبتها قط . كذلك كان عليه أن يتخذ

الحيطة لنفسه ، ازاء أعدائه المجردين من الرحمة ٠ **ومع ذلك ، فانه مات مثقل القلب بالهم محسورا ، لأن المجتمع الألمانى ظل يزدريه !**

ويصف مؤرخ معاصر جنازته ، فيقول ان عدد المشيعين كان كبيرا ، وان علية القوم ساروا عن بكرة أبيهم وراء تابوته ٠٠ ولكن جو الجنازة لم يكن قاتما حزينا ، لأن بعض هؤلاء القوم لم يجيئوا الا ليتثبتوا من أن شتايبر قد مات ٠٠ الى الأبد !

ومع أن شتايبر كان « أستاذا » فى الجاسوسية ، الا انه لم يكن عبقريا ، اللهم الا في قدرته على تحمل الآلام ، وفى براعته فى تنظيم الجاسوسية على نطاق لم يسبق له مثيل فى اتساعه وكفاءته ٠٠ وقليلون هم الذين لم يفيدوا من آثاره ، من العاملين اليوم فى المخابرات السرية ٠ كذلك يعتبر شتايبر المسئول عن المعاملة العنيفة التى يلقاها الجواسيس اليوم ، اذا وقعوا فى قبضة أعدائهم ، اذ انه لم يكن يرحم أى جاسوس فرنسى يقع فى قبضته ٠٠ وكان مجرد اقدام أى فلاح فرنسى على مساعدة مواطنيه ــ ابان الاحتلال الألمانى لفرنسا ــ ذنبا يجعله فى نظر الألمان جاسوسا !٠٠ ولا جدال فى أن الفرنسيين استخدموا بدورهم هذا الأسلوب فى معاملة أى جاسوس وقع فى أيديهم ، من أعوان شتايبر

على ان أهم أثر تركه شتايبر فى عالم الجاسوسية ، هو ذاك الذى يتمثل فى حجم نظامه وكفاءته ٠٠ ومن الممكن أن يقال انه ارتقى بالجاسوسية من « التجزئة » الى « الجملة »

الفصل الثالث

جواسيس قدامى ٠٠ وعالم جديد !

◆ **كان** أول آثار الجاسوسية على الدنيا الجديدة ــ أمريكا ــ

انها أثارت جدلا طويلا حول مشروعية اعدام الجاسوس ، من الناحية القانونية • فعندما اشتد النزاع بين بريطانيا والمهاجرين الأوائل ـ الذين عمروا أمريكا ـ كان البريطانيون على دراية بتطورات موقف الأمريكيين • ولا عجب فى ذلك ، فان عددا كبيرا ممن عمروا أمريكا ظلوا يحتفظون لوطنهم بالولاء • على ان نشاط المخابرات البريطانية لم يستند الى هؤلاء ، ولا اقتصر على حدود المستعمرات الامريكية ، وانما امتد الى فرنسا وأسبانيا ، اذ كان ملوكهما يمدون أيديهم بالعون لأولئك الأمريكيين الأوائل •• لا لأن هؤلاء الملوك كانوا يتشيعون للديموقراطية ، وانما لأنهم كانوا لا يتورعون عن أى عمل يضر بانجلترا !

ولقد تجلى تقدير الأمريكيين للفرنسيين فى انهم أوفدوا أحد أقطابهم ـ وهو بنجامين فرانكلين ـ ليمثلهم فى باريس •• وكان فرانكلين يستعين بمساعد يدعى الدكتور ادوارد بانكروفت •• ولكنه لم يكن يدرى ان هذا «البانكروفت» كان جاسوسا بريطانيا !•• وقد اضطر بانكروفت الى أن يكون جاسوسا مزدوج الشخصية • ذلك لأنه كان ينقل الى لندن كل ما يرد فى ملفات فرانكلين وأوراقه الخاصة • ولكى يجد حجة يستند اليها فى سفره الى لندن ، تظاهر بالتجسس على بريطانيا لمصلحة أمريكا ، حتى يطمئن فرانكلين •• ومن ثم فقد كان يعود الى باريس ـ من لندن ـ محملا بأنباء متباينة ذات قيمة ، ولكنها كانت عادة من الأنباء القديمة التى لاسبيل لفرانكلين الى الافادة منها • وتوحى الأساليب الدقيقة المدروسة التى كان ينتهجها هذا الجاسوس ، بأن « حرب الاستقلال » الأمريكية كانت خليقة بأن تفقد الشطر الثانى من اسمها ـ أى تصبح « حربا » دون « استقلال » ـ لو أن البريطانيين عنوا بأساليبهم العسكرية فى الحرب قدر ما عنوا بتنظيم جاسوسيتهم !

أما فى أمريكا ، فقد كان « جورج واشنطن » ـ بطل حرب الاستقلال ـ مشغوفا بدراسة تاريخ فردريك الأكبر ، ومن ثم أدرك قيمة الجواسيس . ولكن تجربته الأولى باءت بفشل أليم ، وان كان الجاسوس الذى قام بها قد اكتسب مكانة فى تاريخ القومية الأمريكية ، شبيهة بمكانة أبطال الأساطير

وكان ذلك الجاسوس هو : « ناثان هيل » .. وكان شابا باسلا ، أوفد الى صفوف القوات البريطانية ليتجسس أنباءها . ولكن الشجاعة ليست عنصرا كافيا لأى جاسوس ، اذ أن الخبرة والمران يفوقان الشجاعة فى هذا المضمار .. ولم يكن « هيل » مدربا ، وانما كان غرا ساذجا ، فسرعان ما انكشف أمره ، وحوكم وشنق . **ومع ذلك فقد أذيعت قصص مثيرة عن شجاعته عند الموت ، وعزى اليه انه قال انه يأسف لأنه لا يملك سوى حياة واحدة يضحى بها من أجل وطنه . وقد ردد كثير من الساسة هذه العبارة فى خطبهم ، كما أقيم لناثان هيل تمثال فى نيويورك !**

على أن جورج واشنطن ما لبث أن أدرك أن لا جدوى من الجواسيس الهواة ، ومن ثم أنشأ « قلما » للمخابرات السرية مؤلفا من جواسيس محترفين ، فسجل هذا القلم نجاحا فائقا . كذلك نظم واشنطن هيئة لمقاومة تجسس الأعداء أنباء أمريكا ، وقد استطاعت هذه الهيئة ان تثأر لناثان هيل . وكان أعظم نصر لها يوم ساقت الجاسوس البريطانى الميجر جون أندريه الى حتفه . ففى أوائل سنة ١٧٨٠ اتصل قائد أمريكى يدعى « بندكت ارنولد » بالبريطانيين ، مبديا استعداده لخيانة الجانب الأمريكى ، وتسليم قلعة (ويست بوينت) اليهم . فأرسلت بريطانيا اليه الميجر جون أندريه ، فى زيه العسكرى ، ومعه علم الهدنة . وفيما كانت المفاوضات وتدبيرات التسليم دائرة ، اضطرت سفينة أندريه الى التوغل فى نهر هدسن ، هربا من النيران الأمريكية . ولكى يعود أندريه أدراجه ـ

بعد أن فقد سفينته ـ عمد الى ارتداء الثياب المدنية ، مخالفا بذلك الأوامر التى كانت صادرة اليه . واذ ذاك اعتقله الأمريكيون ، وحاكموه على انه جاسوس ، ونفذوا فيه حكم الاعدام . وجزع السير هنرى كلينتون ـ قائد القوات الاستعمارية البريطانية ـ لأن أندريه كان صديقا شخصيا، وجاسوسا ، له !

وقد ظل الجدل دائرا حول مشروعية اعدام أندريه لسنوات عديدة بعد الحرب ، فكان ثمة من يرون انه أعدم ظلما ، لأنه كان فى مهمة تتعلق بمفاوضات فى ظلال هدنة .. وكان هناك من يرون أن تخليه عن الزى العسكرى ، وارتداءه الثياب المدنية ، يتضمنان مخالفة لشرط جوهرى من شروط المفاوضات العسكرية . على أن حكومته أصرت على انه أعدم ظلما ، وغالت فى اظهار رأيها ، بأن دفنته مع العظماء فى مقابر (ويستمنستر) ، فكان بذلك الجاسوس الوحيد الذى دفن مع العظماء

الجاسوسية فى الحرب الأهلية الأمريكية

◆ **وانتهت** الحرب ، وأعلن استقلال أمريكا ، فانصرف الأمريكيون الى شئونهم الداخلية ، واهملوا المخابرات العسكرية اهمالا تاما .. وما حاجتهم الى التجسس والدولة الناشئة قد آثرت ـ فى نزوعها الى التحرر ـ أن تنأى بجانبها عن كل ما يقحمها فى مشكلات أوربا ؟

ولكن الغيب كان يضمر للأمريكيين وقتا يحتاجون فيه الى التجسس ، لا على أعدائهم ، وانما على بعضهم بعضا .. وكان ذلك عندما بدأت الحرب الأهلية الأمريكية . فقد اعترف أحد زعماء الولايات الشمالية ـ والحسرة تفرى فؤاده ـ بأن هذه الحرب كان من الممكن تلافيها لو أن الولايات الشمالية أوتيت نفرا من الجواسيس الأكفاء الذين كانوا

خليقين بأن يعرفوا ان سكان الجنوب كانوا يتأهبون للاشتباك!

على أن الشماليين بادروا فى مطلع الحرب الى انشاء ادارة للمخابرات ، نظمت أدق تنظيم على يدى « ألان بينكرثون »، الذى كان قبل ذلك من رجال البوليس السرى غير الحكوميين.. ولعله أقرب رجال المباحث شبها بأولئك الذين يرد ذكرهم فى القصص البوليسية الخيالية !

وقد استطاع اثنان من أعوان بينكرثون — هما : تيموثى وبستر ، وهارى ديفز — أن يندسا بين صفوف عصابة من أبناء الجنوب ، كانت تتآمر على قتل « ابراهام لينكولن » ، الذى كان قد انتخب رئيسا للدولة الناشئة وأوشك أن يتقلد المنصب رسميا . وما ان عرف بينكرثون بالمؤامرة ، حتى بادر الى اتخاذ التدبيرات التى تقى سلامة الرئيس ، فنقله سالما الى مدينة واشنطن . **على ان السلطات أقدمت اذ ذاك على عمل لم يكن ينطوى على روية أو حكمة ، اذ روجت أنباء المؤامرة وفشلها ، فأخذ الرأى العام يسبغ على النبأ من خياله ويحيطه بجو روائى ، مما ألهب الشعور فى الولايات الشمالية، وأقنع أبناء الولايات الجنوبية بأن بلادهم مكتظة بجواسيس من الشمال .. وهى فكرة أثارت ذعرهم وحنقهم رغم بعدها عن الحقيقة !**

وبدأت المعركة بين الشمال والجنوب ، فأصبح بينكرثون أول رئيس للمخابرات السرية التابعة للحكومة الاتحادية فى أمريكا . وساعدت دقة البيانات والمعلومات — التى كان يحصل عليها — على سد بعض النقص الذى كان ملموسا فى الاستعدادات الحربية لدى الشماليين . وأخذ جهاز المخابرات السرية فى الاتساع والتشعب ، ولكنه منى بكثير من الفشل ، لأن بينكرثون كان يضطر الى تجنيد أو تعيين ألوف من الهواة ، الذين لم يؤتوا — رغم تحمسهم — من الكفاءة والاستعداد ما يمكنهم من النهوض بأعباء المهام التى كانوا

يكلفون بهـــا ! ٠٠ وكانت طرق هؤلاء الهواة تختلف كل الاختلاف عن طرق مدرسة شوليستر وشتايبر التى كانت تتصف بالكفاءة والتجرد من الرحمة

ولقد اكتشف بينكرثون يوما ان احـــدى السيدات ذات المكانة فى واشـنطن تتجسس لحساب الولايات الجنوبية ، فاعتقلها ، وحاول أن يستخدم دارها فخا لاعتقال المتعاونين مع تلك السـيدة ٠ ومن ثم كمن مع رجاله فى الدار ليعتقلوا المترددين عليها ، ولكن أحدا لم يفد ٠٠ **وتبين أن قلم المخابرات السرية هزم على يدى صبية فى الثامنة من عمرها ، جلست بين أغصان شجرة مجاورة للدار ، وراحت تحذر كل الوافدين عليها ، فكانوا يعودون أدراجهم من حيث أتوا !**



على أن تيموثى وبستر ـ مساعد بينكرثون ـ حصل بحيلة بارعة على معلومات وافية عن جواسيس الولايات الجنوبيـة ٠ فقد رسم خطة محبوكة أدت الى اعتقاله عـلى انه من جواسيس الجنوب الهاربين من السلطات الشمالية ، وبذلك اتيح له أن يعاشر الجواسيس المعتقلين وان يجمـع معلومات كثيرة عنهم وعن الجنوب ٠ وما لبث ان فر من السجن ورحل الى الجنوب، واستطاع بهذا « الماضى » أن يلتحق بخدمة الولايات الجنوبية، وان ينفذ الى الأوساط العليا فيها ٠ وقد اعترف قادة الشمال

– بعد ذلك – بقيمة ودقة البيانات التى أمدهم بها فى هذه المغامرة

على انه لم يلبث – لسوء الحظ – ان مرض ٠ وهنا ارتكب بينكرثون غلطة شنيعة ، اذ أوفد اثنين من رجاله لانقاذه ، فاعتقلا وافشيا سر « وبستر » ٠ **وكان ان قضى عليه بالاعدام٠ ولم تبد حكومة الشمال براعة كافية فى علاج قضيته ٠٠ فقد كانت سجونها ملأى بالجواسيس الجنوبيين ، ولو انها هددت باعتبارهم رهائن واعدامهم ، لاستطاعت – فى الغالب – أن تنقذ** « **وبستر** » ٠ ولكن المذكرة التى أرسلتها هذه الحكومة الى السلطات الجنوبية كانت « ديبلوماسية » ، نمت عن ضعف جعل هذه السلطات تستهين بها ٠ ولم يثر اعدام جاسوس من الهياج ما أثاره اعدام وبستر فى الرأى العام الشمالى ، لا سيما حين طلب الجاسوس اعدامه رميا بالرصاص كأى عسكرى ، فأبى الجنوبيون الا أن يشنقوه !

ينتحل شخصية مصور ٠٠ ويصور أهداف الأعداء !

• **وبزغ** نجم جديد فى أفق الجاسوسية الأمريكية ، استطاع أن ينتزع رئاسة المخابرات السرية من بينكرثون ٠٠ ذلك هو « لافاييت بيكر »

ولم يكن بيكر جنديا ، وانما كان من رجال الاعمال ، وقد أدت أعماله التجارية الى اتصاله بالمخابرات ، والثابت انه عرض بنفسه المساهمة فى هذا المجال الخطير ، فطلب اليه أن يقدم « عينة » مما كان بوسعه القيام به ٠٠ وكانت الحرب لا تزال مشتعلة الأوار بين الشمال والجنوب ، فأخذ بيكر يجوس خلال معسكرات الجنوبيين ، منتحلا شخصية مصور متجول ٠ وكانت آلة التصوير فى ذلك الحين شيئا مستحدثا طريفا ، فكان الجنود – بل والقادة – يتسابقون للوقوف أمام بيكر كى يلتقط لهم صورا ٠٠ وكان من الممكن أن يستمر الجاسوس طويلا فى جولته ، لولا أن آلة التصوير كانت مجرد

ستار .. كانت آلة ناقصة العدسات ، ولم يكن بيكر يحمل زجاجا حساسا ، ولا معدات التحميض والطبع . فلما أخذ الذين صورهم يطالبونه بالصور ، اضطر الى الفرار عائدا الى خطوط الشماليين ! .. **على أنه كان قد التقط عدة صور لأهداف هامة ، فكان جزاؤه أن عين ضابطا فى المخابرات**

وأخذ نجم بيكر فى الصعود بسرعة خاطفة .. كان أقرب الجواسيس الأمريكيين الى طراز شتايبر ، اذ كان يمضى نحو هدفه دون أن يعجزه أى شىء . وكان يسلك فى سبيل ذلك أساليب لا يستسيغها أحد ، كالنصب والابتزاز . على انه استطاع أن يمد نظام الجاسوسية الأمريكية – الذى كان فى ذلك الحين فجا – بالناحية الواقعية التى كانت تعوزه . ومن ثم اتسع نطاق المخابرات السرية عندما تولى رئاستها ، وتحسن مستوى كفاءتها ونشاطها .. ولكنه ارتكب غلطة جسيمة ، اذ أهمل الجانب المقاوم لجاسوسية الاعداء ، فى ادارته ، مما أوقع بأمريكا والعالم خسارة فادحة

لينكولن يعارض فى اعدام الجواسيس .. فيقتله جاسوس !

◆ **والذى** يقرأ التاريخ العسكرى الأمريكى فى تلك الفترة – فترة الحرب الأهلية – قد يعانى بعض الارتباك ، لأن الجيشين الشمالى والجنوبى كانا يطلقان على جواسيسهما اسم « الكشافة » أو « الرواد » . على أن الاسم لا ينال من قيمة الاعمال التى قام بها أولئك الجواسيس ، ولا من بسالتهم ، رغم أن أكثرهم كانوا من الهواة !

وكان ابراهام لينكولن يعارض فى اعدام جواسيس الجنوب . وقد وقعت فى أيدى الشماليين يوما جاسوسة أكرموا وفادتها وأحسنوا معاملتها رغم انها قتلت جنديا من أبنائهم وهى فى السابعة عشرة من عمرها .. **تلك هى « بيل**

بويد » ، التى استطاعت بجمالها أن تحمل كثيرا من ضباط الشمال على أن يطمئنوا اليها ، ويتحدثوا دون حرج على مسمع منها ، فجمعت معلومات كثيرة مكنتها من أن تنذر «جاكسون» ـ قائد الجنوبيين ـ من هجوم قوى كان الشماليون يدبرونه له! ٠
على انها لم تلبث ان اعتقلت ـ نتيجة وقوع أحد رسلها فى أيدى السلطات ـ وانتهى الأمر بأن سلمت الى الجنوبيين فى مقابل جاسوس شمالى كان فى قبضتهم ٠ حتى اذا انتهت الحرب ، تزوجت من ضابط من أبناء الشمال ، واكتسبت صيتا ذائعا وثروة طائلة بما ألقته من محاضرات وصفت فيها مغامراتها !

وكانت تقابلها فى مخابرات الشماليين جاسوسة مشهورة ، هى « اليزابيث فان لو » ، التى اعتمدت على ذكائها اكثر مما اعتمدت على جمالها ٠٠ فقد كانت من أسرة جنوبية طيبة الأعراق ، وكانت لها آراء ضد الرق أثارت الشبهات فى مدى سلامة عقلها ، حتى أطلق عليها لقب : « بيث المجنونة » ٠٠ فكان هذا خير ستار لها !٠٠ ولم تكن مغامرة بطبعها ، ولكنها كانت بارعة فى التنظيم والتدبير ، فمكثت فى دارها بريتشموند ـ عاصمة الجنوبيين ـ وبسطت شبكة جاسوسيتها لحساب الشماليين ، وكانت تستخدم «شفرة» خاصة لموافاة السلطات الشمالية بتقاريرها ! ٠٠ ولم تكن مهمتها عسيرة ـ اذ كان مستوى تدابير الأمن فى الجنوب منخفضا ـ وقد بلغ من دقة خططها أن نظمت وسيلة لتهريب الأسرى من الجنود الشماليين ، على نطاق واسع !

وقد أنفقت الآنسة « فان لو » ثروتها فى دفع أجور أعوانها ، فكان الجزاء الوحيد الذى كافأتها به الحكومة الاتحادية ـ عندما تم لها النصر ـ أن عينتها مديرة للبريد فى (ريتشموند) !
ولكن هذا المنصب لم يعوضها شيئا ، لأن الجنوبيين كانوا قد فطنوا ـ فى ذلك الحين ـ الى الدور الذى قامت به تلك التى

حسبوها « مجنونة » ٠٠ وزاد من نحسها أن تولت الحكم وزارة خفضت منصب مديرةبريد (ريتشموند) الى درجة كتابية بسيطة ، ثم عزلتها منه فى النهاية ٠٠ فماتت فقيرة !

على أن الآنسة « فان لو » ما كانت لتحرز ما أحرزت من نجاح – رغم دهائها وذكائها – لولا اهمال الهيئة الموكلة بمقاومة جاسوسية الشمال ، لدى الجنوبيين ٠٠ وهو عيب كان الشماليون يعانون منه هم الآخرون ٠ وقد ازداد استفحالا بعد انتهاء الحرب ، لأنهم لم يفطنوا اذ ذاك الى أن الجنوبيين لم يسلموا لهم فى الحرب الا قهرا ، وقد ظلوا بعد انتهاء القتال يعارضون الشماليين جهرا وعلانية ٠٠ وكان من أعنف أنصار مبدأ انفصال الجنوب عن الشمال ، « جون ويلكس بوث » الذى كان ممثلا وخطيبا مفوها ٠ وقد سد رجال المخابرات الشمالية آذانهم دون ثرثرته ، اعتقادا منهم بأن الرجل الذى يتكلم كثيرا لا يعمل شيئا على الاطلاق ٠ **ولكنهم كانوا على خطأ عظيم فى ذلك ، اذ دفعوا حياة « ابراهام لينكولن » ثمنا لغلطتهم هذه ! ٠٠ فقد استطاع بوث أن يقتل ابراهام لينكولن أثناء وجوده فى المسرح** ٠ وقد حاول بيكر – مدير المخابرات – أن يغطى اهماله باثارة عاصفة من الهياج ضد القاتل وشركائه !

وهكذا نرى أن الجواسيس الذين مجدهم الأمريكيون – فى تاريخ حرب الاستقلال والحرب الأهلية – لا يشغلون مكانا رفيعا فى سجلات الجاسوسية العالمية !

الفصل الرابع

قضية دريفوس

• **كان** « ألفريد دريفوس » يهوديا ٠٠ ولو لم يكن يهوديا لما أصبح محور قضية من قضايا التجسس والدسائس اهتزت

لها الجمهورية الفرنسية فى فترة من فترات تاريخها الحديث • ذلك لأن هتلر لم يكن خالق مذهب الاضطهاد العنصرى ، وانما كان أكثر المؤمنين به تطرفا !

وقد أماط لثام المؤامرة التى اتهم فيها هذا اليهودى ، ضابط من المكلفين بمقاومة الجاسوسية ، من رجال المخابرات السرية الفرنسية • فقد كان من مهام « بريكيه » ـ الضابط ـ ان يراقب الملحق العسكرى الالمانى فى باريس ، لأنه كان من الجواسيس الديبلوماسيين • وكانت اساليب « بريكيه » عادية الى درجة كبيرة ، اذ كان يرشو المرأة الموكلة بجمع قمامات دار ذلك الألمانى ، فكانت تحمل اليه محتويات سلة الأوراق المهملة •• وهى حيلة عتيقة ، تثمر أحيانا بعض النتائج



على أن « بريكيه » لم يلبث ان عمد الى وسيلة ثانية أسفرت عن نجاح أعظم ، اذ راح يبدى هوى عنيفا لزوجة بواب دار الضابط الألمانى ! •• وما ان استجابت له المرأة حتى أصبح فى مقدوره ان يراقب رسائل الضابط • وفى ذات يوم ، طرب « بريكيه » حين وجد بين الرسائل الواردة للألمانى ، خطابا غفلا من التوقيع ، يشير الى خمس خطط عسكرية كان كاتب الرسالة على استعداد لان يبيعها للألمان •• **وبدا من اول الامر ان هذه الرسالة كانت خطيرة الشأن ، اذ لم يكن هناك من يعرف شيئا عن تلك الخطط سوى نفر قليل من ضباط أركان**

الحرب العامة ٠ ومن ثم بدأت التحريات بين اولئك الضباط ، حتى انحصرت الشبهات فى خمسة ، كان بينهم « دريفوس » اليهودى !

وكان الكابتن « ألفريد دريفوس » من أسرة ألزاسية طيبة ، آثرت فى سنة ١٨٧١ ان تكتسب الجنسية الفرنسية ٠ وقد التحق دريفوس بالجيش ، فأبدى مقدرة فائقة ٠ ومع أنه لم يكن محبوبا من رفاقه ، الا ان أحدا لم يكن يملك ان ينكر عليه ذكاءه وتفوقه الذهنى ، ولهذا عين فى هيئة اركان الحرب ، فكان اول يهودى يبلغ هذه المرتبة السامية فى الجيش الفرنسى ٠ ثم دبرت مؤامرة خطيرة ، فاختير ليكون الضحية ، اذ كان من الأنسب للجيش أن يدان يهودى بالخيانة ، عن أن يدان سليل أسرة فرنسية عريقة ٠ **لذلك اتهم بأنه كاتب الرسالة التى عثر عليها « بريكيه » ٠ وأجريت له محاكمة صورية ، وقضى بتجريده من رتبه العسكرية ، وبسجنه مدى الحياة فى (جزيرة الشيطان)**

على ان أعداء دريفوس هم الذين أفسدوا بأنفسهم المؤامرة التى دبروها ، اذ عمدت صحيفة معادية لليهود الى نشر وصف زائف للقضية ، وغالت فى ذلك الى أبعد الحدود ٠٠ والدعاية اذا تمادت اكثر مما ينبغى انقلبت الى عكس ما هو مرغوب منها ٠ وقد ادى اسراف الصحيفة الى ان انقلبت قضية دريفوس الى قضية سياسية ، اذ استغلها الراديكاليون التقدميون كسلاح لمهاجمة غرمائهم الرجعيين

وبعد عدة اشهر من محاكمة دريفوس ، تولى رئاسة المخابرات السرية الفرنسية ضابط متوقد الذكاء يدعى الكولونيل بيكار ، فجاءه جاسوس - ذات يوم - برسالة من سلة مهملات الملحق العسكرى الألمانى ، وقد مزقت الى قصاصات صغيرة ٠٠ وبضم تلك القصاصات - بعضها الى بعض - تبين ان الرسالة كانت تتضمن مسودة مذكرة موجهة من الضابط الألمانى الى الميجر

« استرهازى » ٠٠ وكان ضابطا فى الجيش الفرنسى ، ينحدر من أصل مجرى !

وظن بيكار انه وقع على قضية شبيهة بقضية دريفوس ، ولكنه دهش حين رفض رؤساؤه المضى فى التحقيق ٠ فلما ألح عملوا على نقله الى شمال أفريقيا ٠ واستغلت الكتلة المعادية لليهود هذا الحادث فى الدعاية ، وبذلك اشهرت سلاحا رد الى صدرها ٠ اذ نشرت احدى الصحف - بتلك المناسبة - صورة للرسالة التى حوكم دريفوس من أجلها ، ونشرت الى جوارها رسالة أخرى بخط دريفوس ، لتقنع القراء بتشابه الخط فى الرسالتين ٠٠ **فاذا القدر يفسد على الصحيفة غرضها ، اذ تعرف صاحب مصرف مالى على خط صاحب الرسالة التى حوكم دريفوس من أجلها ٠٠ وكان الخط لأحد عملائه ٠٠ وكان ذلك العميل هو « استرهازى » بالذات !**

وقدم « استرهازى » للمحاكمة فبرئت ساحته ٠٠ ولم تلق العدالة من السخرية مالقيته فى فرنسا اذ ذاك ٠ على ان القلم انبرى ليثبت مدى سلطانه ، فكتب الكاتب الفرنسى المعروف « اميل زولا » حملته المعروفة : « انى أتهم ! » ، وتولى جورج كليمنسو نشرها ، واذا فرنسا تنقسم الى فريقين : فقد انحازت العناصر التقدمية الى دريفوس ، ووقفت الدولة والكنيسة ضده ، وهما صاحبتا النفوذ والسلطان ٠ **وحوكم زولا بدوره وأدين !** وبلغت العنصرية أوج استعارها ، فلم يكن ينقصها سوى اعدام اليهود فى حجرات الغاز ، لتبلغ ما بلغته من مستوى فى عهد هتلر !

ثم وقع حادث غريب : كان بين كبار ضباط المخابرات السرية الفرنسية رجل يدعى الميجر هنرى ٠٠ وقد اكتشف هذا الضابط ان الرسالة التى حوكم من اجلها دريفوس ، كتبت على نوع خاص من الورق الأزرق الرفيع ، لم يكن يستخدمه بين ضباط هيئة اركان الحرب الفرنسية سوى « استرهازى » ٠

ولكن هنرى كتم اكتشافه ، لأنه كان متواطئا مع المتآمرين ..
على أنه ما لبث ان خلف بيكار فى رئاسة المخابرات السرية ، فأزعجته حملة زولا وكليمنسو ، وزور وثيقة لتعـــزيز ادانة دريفوس ، ولكن التزوير لم يكن متقنا . **وشـاء الحظ أن يكون وزير الحربية اذ ذاك غير الوزير الذى بدأت في عهده القضية ، فاعتقل هنرى .. واذا به يعترف بالحقيقـــة . ثم انتحر فى سجنه ، بينما فر استرهازى الى انجلترا .**

وتجلت الحقيقة .. ومع ذلك فان السـلطات رفضت الافراج عن دريفوس ، فثار الرأى العام ، واضطرها الى اعادة محاكمته . ولكن المسئولين زوروا ضده أوراقا جديدة ، فأدين مرة أخرى . بيد أن رئيس الجمهورية تدخل وأصدر عفوا عنـه . واذ ذاك راح دريفوس يبذل جهودا جبارة لاثبات براءته

وفى سنة ١٩٠٦ أعيد الى خدمة الجيش ، كما أعيد الكولونيل بيكار الى رئاسة المخابرات السرية .. واسدل الستار على أخطر قضية جاسوسية هزت فرنسا بأسرها مرات عديدة !

الفصل الخامس

« المرقص رقم ١٣ بالأوبرا ! »

◆ **كان** الكولونيـل « ألفريد ريدل » من الشـــخصيات المبرزة فى ادارة مقاومة الجاسوسـية فى النمســا ، وقد أوتى ذكاء فائقا ونشاطا عارما .. ولكنه كان فى الوقت ذاته خائنا ، يتجسس لحساب الروس ، وقد وقع فى فخ الادارة التى أنشأها بنفسه !

فقد عين الكولونيل رئيسا لأركان الحرب فى براج – وكانت اذ ذاك تابعة لأمبراطورية النمســا والمجر – فتولى معاونه الكابتن «رونج» رئاسة قسم مقاومة الجاسوسية ، خلفا له .. وكان له من الكفاءة ما مكنه من أن يعزز النظم الدقيقة التى وضعها

ريدل . ثم أضاف اليها – عندما تحرجت الأحوال فى أوربا – نظما جديدة ، كانت هى الأخرى من ابتكار ريدل ، اذ كان قد رسم مشروعاتها ثم أرجأ تنفيذها . وكان من بين هذه النظم فرض رقابة على البريد . وقد أحيطت هذه الرقابة بتكتم شديد، وقيل لمن تولوها ان الغرض منها هو مراقبةالتهريب ، ومن ثم كان عليهم أن يوجهوا اهتماما خاصا الى الرسائل الواردة من مناطق الحدود بالذات .. ولكن أحدا لم يكن يدرى الغرض الحقيقى من هذه الرقابة سوى ثلاثة أشخاص فقط !

وفى شهر مارس سنة ١٩١٣ ، عثرت الرقابة على خطابين يحملان طابع بريد (ايو تكونين) – فى بروسيا الشرقية – على مقربة من الحدود الروسية . وكان العنوان المكتوب عليهما غريبا : « المرقص ١٣ بالأوبرا – شباك ادارة البريد العامة – فيينا » .. ولم يكن فى المظروفين أية رسالة ، وانما احتوى أحدهما على أوراق مالية قيمتها ثمانية آلاف كرونر ، والآخر على أوراق مثلها قيمتها ستة آلاف . وأعدت ادارة مكافحة الجاسوسية الشرك المعهود ، اذ عمدت الى مد سلك كهربائى من مكتب الموظف المسئول عن « شباك البريد » ، ينتهى بجرس فى قسم للبوليس مجاور لادارة البريد . وعين رجلان من البوليس السرى لمراقبة الجرس ليل نهار ، حتى يقبل الشخص المقصود بعبارة « المرقص ١٣ بالأوبرا » ، فيتعمد الموظف تعطيله ريثما يضغط زر الجرس ، فيندفع المخبران الى ادارة البريد ويعتقلانه !

وتوالت الأيام دون أن يظهر الرجل ، ففتر تحمس رجلى البوليس . **وفى ٢٤ مايو ، دوى رنين الجرس . وكان أحد الرجلين فى دورة المياه ، والآخر منهمكا فى غسل يديه . فلما بلغا دار البريد كانا قد ضيعا دقيقتين ثمينتين .. ولم يكن فى وسع الموظف المسئول عن « شباك البريد » أن يعرقل الرجل لفترة أطول من ذلك !**

واندفع المخبران الى الباب، فلمحا سيارة من سيارات الأجرة منطلقة عند ركن من الشارع ، وتلفتا يبحثان عن سيارة يستقلانها ، فلم يجدا ٠ وانقضت عشرون دقيقة وهما فى حيرة، يفكران فيما سيتعرضان له من نقمة رؤسائهما ٠ وفجأة ، لمحا السيارة التى رأياها من قبل ، وحدسا أن المجهول استقلها ، فسألا السائق عن المكان الذى ذهب اليه ٠٠ وكان جوابه أنه نقل الرجل الى مقهى صغير يدعى « كايزرهوف » ، فطلبا اليه أن يحملهما الى هناك ٠ وعنيا – أثناء الطريق – بتفتيش السيارة ، فعثرا على قراب من الجلد الرمادى ، من النوع الذى يستخدم لصيانة سكين الجيب – المطواة – وكان من المحتمل أن راكبا آخر ، غير ذلك الرجل « المجهول » ، هو الذى أسقط القراب ٠ ولكنهما احتفظا به لأنه كان الأثر الوحيد الذى يعلقان عليه أى أمل !

وكان المقهى خاليا عندما بلغاه ٠٠ ولم يتذكر صاحبه شيئا عن الشخص الذى كانا ينشدانه ٠ ولكنهما رأيا موقفا قريبا لسيارات الأجرة ، علما منه أن الرجل الذى كانا يسألان عنه، قد استقل سيارة الى فندق « كلومسر » ٠ ومن ثم فانهما سعيا الى هناك ، وسألا موظف الاستعلامات عن الأشخاص الذين وفدوا على الفندق خلال نصف الساعة الأخير ، فذكر أنهم أربعة ٠ وهنا طلب اليه أكبر المخبرين رتبة أن يسأل عمن فقد منهم قرابا لمطواة ٠٠ وفيما هم كذلك ، هبط رجل له قوام عسكرى ، رغم ثيابه المدنية ، فدفع الى موظف الفندق بمفتاح غرفته ٠٠ واذ ذاك ، قدم اليه الموظف قراب المطواة ، وسأله : « معذرة يا سيدى ٠٠ هل سقط هذا منك ؟ » ٠٠ فتناول الرجل القراب قائلا : « أجل ، انه لى ٠٠ شكرا ! » ، ثم خرج !

تم ذلك فى ثوان معدودات ، ولكنها كانت كافية لأن يعرف المخبران الرجل ، اذ كان رئيسا لهما يوما ما ! ومن ثم أسرع أحدهما الى التليفون ، فأبلغ رؤساءه أن «المرقص ١٣ بالاوبرا»

لم يكن سوى .. الكولونيل ألفريد ريدل ، الرئيس السابق لقسم مقاومة الجاسوسية بالنمسا !

الموت .. ثمن الخيانة !

◆ **وكان** للنبأ وقع أذهل الرؤساء .. بل ان فى وسع القارىء أن يتصور انزعاج الكابتن رونج - رئيس قسم مقاومة الجاسوسية - عندما علم أن رئيسه السابق خائن !.. ومن ثم فقد ذهب بنفسه الى ادارة البريد ، وبحث عن « الاستمارة » التى كتبها الشخص مقابل تسلم الرسالتين ، ثم قارن الخط الذى كتبت به بالخط الذى وجده فى مذكرة مؤلفة من أربعين صفحة ، كان رئيسه السابق قد كتبها عن مقاومة التجسس . وشد ما كانت دهشته حين تبين أن الخطين كتبتهما يد واحدة !

وفى تلك الأثناء ، كان المخبران يعملان على تعويض ما فاتهما ، فاقتفيا أثر ريدل بعد مبارحته الفندق .. ولكنه - وهو الخبير بتعقب الجواسيس - لم يغفل أمرهما ، فحاول أن يغرر بهما . غير أن محاولاته أخفقت . ولا بد أنه أدرك أن خيانته قد افتضحت ، فأراد أن يشغل المخبرين عنه ليتمكن من الهرب . ومن ثم أخرج من جيبه ورقة مزقها اربا ، وألقى بها فى الطريق . ولكن المخبرين كانا من الذكاء بحيث أن أحدهما عاد ليجمع القصاصات ، بينما واصل الآخر تعقبه للجاسوس الكبير !

وضم الكابتن رونج القصاصات التى وافاه بها المخبر ، فوجد أنها قطع من ثلاثة ايصالات لرسائل مسجلة وجهت الى بروكسل ووارسو ولوزان.. وكان رونج يعرف هذه العناوين ، اذ كان قد اكتشف منذ أمد طويل أنها مراكز للجاسوسية الفرنسية والروسية والايطالية !.. **ومن العجب أن الذى أثبتها فى القائمة السوداء ، هو الكولونيل ريدل نفسه ، حين كان رئيسا لقسم مقاومة الجاسوسية !**

وحمل الكابتن رونج الى رئيسه – ثم الى القائد العام – هذه التطورات ، وهو مثقل القلب . وفى تلك الأثناء ، كان ريدل قد عاد الى فندقه ، حيث وجد فى انتظاره صديقا يدعى الدكتور « بولاك » .. وكان محاميا مبرزا ، كثيرا ما تولى الدفاع أمام المحاكم فى قضايا الجاسوسيه

وتناول الصديقان عشاءهما فى الفندق ، فقام بخدمتهما « جرسون » من رجال البوليس السرى . ولم يغب عن« بولاك» ما كان يبدو على صديقه من كرب ، فما زال به حتى زعم ريدل أنه مهموم لأنه كان مصابا بالشذوذ الجنسى ، وهى ظاهرة تسبب تشتت البال،كما تكبد صاحبهانفقات مالية باهظة !.. على أنه لم يذكر شيئا عن خيانته . وأراد بولاك أن يسرى عنه ، فعلل له ما يشعر به بأنه نتيجة الارهاق فى العمل ، واقترح عليه أن يعجل بالعودة الى (براج) .. **غير أن القائد العام للجيش كان فى تلك الأثناء قد عهد الى ثلاثة من الضباط بأن يرافقوا رونج الى الفندق ، وقال لهم انه يريد أن يعرف «مدى» خيانة ريدل ، وانه لا بد لهذا الضابط من أن يموت ، دون أن يعرف أحد سر موته !**

وعندما صعد الكولونيل ريدل الى غرفته فى الساعة الثانية عشرة مساء ، عكف على الكتابة ، واذا الضباط الأربعة يقتحمون الغرفة ، فبادرهم قائلا : « اننى أعرف سبب مجيئكم .. لقد هدمت حياتى بيدى ، وهأنذا أكتب رسائل الوداع ! » . فقال له رونج : « لابد لنا من معرفة مدى نشاطك ، والفترة التى قضيتها فى خيانة بلادك » .. وكان جوابه : « لسوف تجدون كل شىء فى بيتى ، فى براج . أما الآن ، فأرجو أن يعيرنى أحدكم مسدسه ! » . واذ ذاك قدم اليه أحدهم مسدساصامتا، ثم خلفوه وحيدا ، وان أحكموا الرقابة حتى لا يفر !

وفى الساعة الخامسة صباحا ، أوفدوا أحد المخبرين الى غرفته ، فألفاه ميتا .. وكانت آخر عبارة كتبها ، عبارة مؤثرة



أليمة : « **لقد قضى على التبذير والشهوة ! صلوا من أجلى ، فانى أدفع حياتى ثمنا لزلاتى** » !٠٠ ولم يكن قد مضى على تسلمه الخطابين أكثر من ثلاث عشرة ساعة ، حين كفر عن خيانته وكتب : « هأنذا أموت ! »

وكانت المصلحة العامة تتطلب احاطة الحادث كله بكتمان شديد ٠٠ ولكن الظروف عملت على عكس ما أرادت السلطات ، اذ صاح تابع ريدل ، عندما قيل ان الرجل انتحر : « ولكن هذا ليس مسدس سيدى » ٠٠ على أنه أمر بالصمت ٠ وصدر بلاغ رسمى جاء فيه انالكولونيل ريدل أصيب بضيق واكتئاب عصبيين نتيجة الارهاق فى العمل والأرق ، مما دفعه الى الانتحار !

الجاسوس المنتحر ٠٠ كان يرقص فى كل حلبة !

◆ **كانت** أول صدمة للسلطات ، هى ان ريدل ظل يتجسس لحساب روسيا أكثر من عشر سنوات ، وقد أفشى لهم ـ الى جانب ذلك ـ أسرار النمسويين الذين كانت بلاده تبعث بهم للتجسس على روسيا ، كما وشى بالروس الذين حاولوا أن يبيعوا للحكومة النمسوية أسرارا عسكرية روسية !٠٠ وقد دلت أوراقه على أن اجرامه وعبثه فاقا كل حد ، مما أزعج القيادة النمسوية العليا ، وحفزها على مواصلة السعى لمعرفة

مدى ما بلغته خيانة ريدل · وشد ما كان ذهول المسئولين حين تبينوا أن الرجل باع لعدوهم المنتظر ـ روسيا ـ خطة حربية سرية ، كانت تعرف بالخطة « رقم ٣ » ·· وكانت من أهم خطط القيادة النمسوية · فقد كانت السلطات الاوربية العليا توجس خيفة من وقوع الحرب ، قبل سنة ١٩١٤ بزمن طويل ، وكان من المرتقب أن يقع حادث ما بين النمسا ودولة الصرب الصغيرة ، فتضرب النمسا ضربتها فى البلقان ، واذ ذاك تتدخل روسيا لحماية الصرب بوصفها دولة سلافية ، فتبادر ألمانيا الى مناصرة النمسا ·· وكانت النمسا تحسب لكل هذا حسابا ، فأعدت « الخطة رقم ٣ » وضمنتها تفصيلات كاملة عن تجميع القوات ، ووسائل النقل ، ومناطق القتال ، وأهداف الهجوم ·· وكان كل هذا مرفقا بخرائط وجداول احصائية دقيقة

اكتشف الضباط المحققون أن ريدل قد باع لروسيا كل هذا ، وان الصرب قد أصبحت على دراية بالخطة ـ عن طريق حليفتها ـ ومن ثم أدخل القادة النمسويون تعديلات كثيرة عليها ، ولكن المجال كان محدودا ، وكانت هيئة أركان الحرب قد حشدت فى الخطة الاولى أجود أفكارها

وهكذا غيرت خيانة ريدل سير الحرب كلها ·· فان الخطة النمسوية نميت الى بلغراد ـ عاصمة الصرب ـ بالفعل ، فتلقفها الماريشال بوتنيك ـ القائد العام الصربى ـ وكان محاربا عبقريا ، فدرس الخطة دراسة دقيقة حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب ·· وكان عالما نفسيا كذلك ، فقرأ بين السطور والأرقام والخرائط ما كان يدور فى رؤوس قادة العدو من أفكار ، واستطاع أن يحدس التعديلات التى يحتمل أن يدخلوها على الخطة

فعل بوتنيك كل هذا بدقة تدعو الى العجب ، وأعد قواته أتم اعداد ·· **وبهت العالم حين رأى دولة الصرب الصغيرة**

تصد هجوم جيوش امبراطورية النمسا والمجر - عندما نشب القتال - وكأنها كانت على دراية بكل حركة عسكرية اعتزمها العدو . وبدلا من أن تبيد النمسا الضخمة دويلة الصرب الصغيرة فى أيام ، أو فى أسابيع قلائل ، امتدت الحملة ثلاثة عشر شهرا .. بل ان الحرب فى هذه الجبهة لم تنته الا بعد أن وفقت النمسا وحلفاؤها الى اغراء بلغاريا على دخول الحرب ضد الصرب ، مقابل منحها مساحة كبيرة من الأراضى البلقانية **.. وعندما ازداد الموقف حرجا ، طلبت النمسا معونة ألمانيا ، رغم أن هذا الاستنجاد كان بمثابة ضربة أليمة لكبرياء النمسا ولروحها المعنوية !**

وكانت هذه الخيبة حلقة أولى فى سلسلة نتائج وخيمة .. فان العجز المخزى الذى أظهرته النمسا - فى قتالها مع الصرب - كان مثيرا لأعصاب المسئولين الى حد لايمكن تجاهله، مما جعلهم ينقلون قوات من الجبهة المواجهة لروسيا الى جبهة الصرب ، فقلب ذلك خطتهم الأصلية رأسا على عقب .. ذلك لأن اضعاف القوات النمسوية فى الجبهة الروسية مهد للروس سبيل شن سلسلة من الهجمات العنيفة على (غاليسيا) ، فأوقعوا بالنمسا خسائر فادحة .. ولولا غباء هيئة أركان الحرب الروسية القيصرية ، لكانت المعركة حاسمة فى مصير الحرب !

وكانت هذه هى النتيجة الأولى لخيانة ريدل . أما النتيجة الثانية فكانت أقل شأنا من الأولى ، وان كبدت النمسا خسارة كبيرة أيضا .. اذ أن روسيا كانت قد بدأت - قبل انتحار ريدل - تعزز قواتها سرا تأهبا للحرب . ولو ان ريدل أبلغ السلطات النمسوية هذه الحقيقة ، لتراجع دعاة الحرب فى النمسا عن تحمسهم .. ولكن اخفاءه الأمر جعل أولئك الداعين للحرب يتمادون فى اثارة الرأى العام ، وجعل النمسويين يقدرون استعداد الروس بأقل من حقيقته ، مما

انتهى الى أن دفع عدد كبير من الضباط والجنود النمسويين حياتهم !٠٠ وقد ذكر أحد الثقات ان جاسوسية ريدل كلفت النمسا نصف مليون قتيل وجريح !

وقد امتدت آثار خيانة ريدل الى الميادين الاخرى طيلة الحرب ٠٠ بل ان هذه الخيانة كانت من الأسباب التى أدت الى انقلاب هذه الحرب الى حرب عالمية !

الفصل السادس

جاسوس ألمانى ٠٠ يباشر عمله علنا !

◆ **كان** ذلك فى أوائل القرن العشرين ، وقد اقتصرت مكافحة الجاسوسية فى بريطانيا على فرع خاص فى « اسكتلنديارد » ، كان يفرض رقابة متواصلة على كل من يشتبه فى انه جاسوس ، ويتولى حراسة الشخصيات الكبيرة فى بريطانيا ، والشخصيات الكبيرة التى تزورها من الخارج ٠ على أن هذا الفرع لم ينشأ فى البداية لمقاومة الجاسوسية ، وانما كانت مهمته مراقبة الأجانب الذين يفدون على انجلترا كلاجئين ، اذ كانت بينهم نسبة كبيرة من المجرمين السياسيين والفوضويين

ولقد استنزفت جنازة الملك ادوارد السابع ، فى عام ١٩١٠ ، موارد هذا « القلم الخاص » ـ كما كان يسمى ـ اذ اشترك فى تشييعها عدد كبير من الملوك ورؤساء الجمهوريات والشخصيات الكبيرة الموفدة من الدول ٠٠ فتولى رجال « القلم الخاص » حراستهم منذ هبوطهم أرض انجلترا ٠ وقبيل بدء الجنازة ، شرع أحد المفتشين فى توزيع الحراس ، ولكنه استبقى اثنين من المخبرين المشهورين ـ هما « درورى » و « سيل » ـ الى النهاية ، فقال لهما ان غليوم ـ امبراطور ألمانيا ـ اصطحب

فى قدومه عددا من ضباطه ، بينهم ضابط من الأسطول يدعى البارون روستوك ، كان ملحقا بحريا فى احدى دول أمريكا الجنوبية يوما ما ، وكانت له أصبع فى قضية للجاسوسية ٠ ولهذا فلابد من مراقبته بعناية ودقة

وانصرف دروری وسيل الى مراقبة البـارون روستوك عن كثب ــ أثناء الجنازة ــ فرأياه يعود بعد انتهائها الى الفندق ، فيرتدى ثيابا مدنية ، ثم يخرج فيستقل سيارة أجرة ٠واقتفى المخبران أثره فى سيارة أخرى ٠ واجتازت السيارة الأولى شارع (تشارنج كروس) ، ثم عرجت الى شـارع (توتنهام كورت) ، فالى (يوستون) ، ووقفت أخيرا فى شـارع (كالدونيان) ٠ واستولى على المخبرين فضول عجيب وهما يريان البارون يدخل حانوتين من حوانيت الدرجة الثالثة ، حمل أحدهما لافتة كتب عليها : « ك٠ج٠ ارنست ــ حلاق »



٠٠ وكان أشد ما أدهش المخبرين ، أن ذلك الحلاق لم يكن من مستوى يليق ببارون من حاشية امبراطور ألمانيا !

ورجع دروری وراء البارون الى الفندق ، بينما انهمك سيل فى القيـام ببعض التحريات فى منطقـة الحانوت ، فعـلم ان ارنست ــ الحلاق ــ كان ألمانى الأصل ، ولكنه اكتسب الجنسية

الانجليزية . وكان يتجر فى أدوات الحلاقين الى جانب عمله فى حانوته . ومن ثم انتقلت المراقبة الى ارنست ، بعد عودة البارون الى ألمانيا . **وان هى الا أيام ، حتى وصل الى ارنست طرد من شركة ألمانية كانت بين محتوياته نشرات تبين كيفية استخدام أدوات الحلاقة ، وقد دست بينها توجيهات لتجسس أنباء الأسطول البريطانى**

وظهر أن الأمر أخطر مما كان « القلم الخاص » يتصوره ، ومن ثم أحيل الأمر الى قسم مقاومة الجاسوسية فى مخابرات الجيش ، فتولى القسم مراقبة ارنست ، وسرعان ما تجلى ان حانوت الحلاق لم يكن سوى « صندوق بريد » !.. اذ كان رئيس الجاسوسية الألمانية يرسل اليه نسخا من التعليمات - وقد لف فيها صابون الحلاقة والأمواس وما اليها - فيتولى تسليمها الى الجواسيس المحليين بطريقة مأمونة .. اذ كان يرسلها بالبريد العادى كأية رسالة !

واستطاع المراقبون أن يروا ارنست - فى اليوم التالى لوصول الطرد - وهو يلقى باثنتين وعشرين رسالة فى صناديق البريد ، فعمدوا الى استخراجها منها ، وبذلك توفر لديهم الدليل القانونى على التجسس .. ولكن ادارة المخابرات السرية لم تحاول اعتقال الجواسيس . **فقد حدس المسئولون أن ألمانيا تتأهب لحرب بعد ثلاث أو أربع سنوات - وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ - ومن ثم توقعت ادارة المخابرات أن اعتقال الجواسيس لن يؤدى الا الى انشاء شبكة أخرى للجاسوسية قد لا يكشف سرها قط !.. ولهذا رؤى مراقبة أولئك الجواسيس وعدم مصادرة رسائلهم ، لتجنب اثارة ارتيابهم أو ارتياب السلطات الألمانية ، حتى اذا حانت الساعة ، اعتقلوا فى الحال، فتدخل ألمانيا الحرب بغير جواسيس كما يسير الأعمى فى الطريق !**

ولقد قال رئيس المخابرات البريطانية ـ فى ذلك الحين ـ انه كان سعيد الحظ ٠٠ فقد كان عدد رجاله لا يتجاوز ١٤ فقط ، منهم ٧ ضباط و٧ من الكتبة ٠٠ ولكن الدهاء عوضه عن عدد الرجال ، اذ مكنه من الافادة من أخطاء كثيرة ارتكبها الجواسيس الألمان ٠٠ منها ان رجلا يدعى « جوستاف شتاينهاور » زار الجواسيس الالمان فى انجلترا ـ قبيل نشوب الحرب ـ وكان كثيرا ما يتباهى بأنه كبير جواسيس الامبراطور غليوم ، وان ظهر بعد الحرب انه كان مجرد موظف صغير فى ادارة الجاسوسية الألمانية ! وقد ذهب علانية الى شمال اسكتلندا ليرى بنفسه « امكانيات » قاعدة الأسطول البريطانى فى (سكابافلو) ٠٠ وأخذ يقيس الأعماق بخيط ، ليتبين مدى استطاعة البوارج الألمانية دخول تلك القاعدة واستخدامها ، مع انه كان خليقا بأن يحصل على هذه المعلومات لو انه اشترى دليلا عن الموانىء والأسطول ، كان يباع بشلنين !٠٠ والواقع أن شتاينهاور فشل فى كل عمل أتاه كجاسوس ، ولكنه نجح فى شىء واحد ، هو أنه لاحظ مراقبة المخابرات البريطانية له !

وفجأة ، أسرع شتاينهاور بمغادرة بريطانيا ، وتبعه جاسوس آخر ٠ وأدركت المخابرات أن الحرب وشيكة الوقوع ، فبادرت باعتقال شبكة الجاسوسية الألمانية بأسرها ٠٠ وكان الفضل فى تنبيه المخابرات لتلك الزيارة التى قام بها « البارون » لحانوت حلاق !

الألمان يحطمون جهاز الجاسوسية الفرنسى

◆ **وعندما** بدأت الحرب ، لم يجد الحلفاء صعوبة فى انشاء هيئة فعالة للجاسوسية خلف خطوط الألمان ، لاسيما بعد ان احتل هؤلاء شمال فرنسا ٠٠ ولكن الاهمال دب فى هذا الجهاز ، لأن الجواسيس كانوا من الفرنسيين ، وكانوا يعملون

فى الأراضى الفرنسية المحتلة ، بين أصدقاء واخوان ٠٠ ولعل العيب كان فى كثرة هؤلاء الجواسيس عما كان ينبغى

وقد حدث ان ارتابت الادارة الألمانية المختصة بمقاومة الجاسوسية فى أمر اثنين من هؤلاء الجواسيس ، ولكنها اتبعت عين الأسلوب الذى اتبعته انجلترا ازاء جواسيسها ، فلم تعتقل الجاسوسين ، وانما اقتصرت على مراقبتهما ومراقبة كل من كانا يتصلان بهم ٠ **وبذلك كشف الألمان أسرار جاسوسية الحلفاء - دون ان تفطن قيادتها - وعرفوا أن الحلفاء كانوا يعدون العدة لهجوم كبير قد يحدث خلال عام ١٩١٦ ٠ ومن ثم اتجهت نية القيادة الى اضعاف الجيش الفرنسى بسلسلة من عمليات الزحف التى تؤيدها قوات كبيرة من المدفعية**

وكانت الدلائل توحى بأن (فردان) و (بلفور) هما هدفا الهجوم ، فأخذ الألمان يتقدمون تارة ويتقهقرون أخرى لتضليل المخابرات الفرنسية ٠ حتى اذا حانت اللحظة التى تأهب فيها الحلفاء للقيام بعملياتهم الحاسمة فى هذا الهجوم ، اعتقل الألمان ٦٦ جاسوسا فرنسيا دون أى انذار سابق !٠٠ وبهذا تحطم جهاز الجاسوسية الفرنسى٠٠ولم يفطن القادةالفرنسيون الى ما كان الألمان يبيتونه ، فانهمكوا فى وضع خطة لهجوم فرنسى ، وشغلوا بذلك حتى فاجأهم الألمان بهجومهم !

ولكن هذه لم تكن خاتمة مأساة التجسس فى معركة (فردان) ٠٠ اذ أن من المرجح أن الألمان أهملوا هم الآخرون فى تدبيراتهم ، عندما اعتمدوا فى هجومهم على حشد عدد كبير من المدافع ، واطلاق كميات هائلة من الذخيرة ٠٠ وكان أكبر مستودع لهم على مقربة من (هرسون) ٠ **وقد لاحظ فلاح فرنسى - يوما - ان الألمان انهمكوا فى اعداد قنابل المدافع وشحنها ، فأبلغ الأمر للقيادة الفرنسية ، التى بادرت بالعمل على تفجير مئات الألوف من هذه القنابل قبل اللحظة الحاسمة**

يوقت قصير ٠٠ وبذلك أفسدت على الألمان هجومهم !

وهكذا نرى أن مجرى المعركة ومصيرها يتوقفان على أمور تافهة ـ كدقة ملاحظة ذلك الفلاح الفرنسى ـ ولكن الأنظار غالبا ما تغفل المسئولين الحقيقيين عنها ، فيظلون دائما ٠٠ جنودا مجهولين !

الفصل السابع

نساء ٠٠ فى الجاسوسية !

• **اذا** قلت ان النساء ـ بوجه عام ـ من أقل العناصر توفيقا فى ميدان الجاسوسية ، فاننى لا أرمى بهذا الى الحط من شجاعتهن وذكائهن ، اذ انهن أوتين من هاتين الميزتين ما يكفى لأن يحذقن التجسس ٠٠ فان التجسس فى واقع الأمر تدريب ومران ٠ وأما الذى أهدف اليه ، فهو ان الجاسوسة الناجحة ليست كما تصورها القصص والسينما : غانية فاتنة تسبى العقول ، وتستهوى القادة ٠ وقد كانت الجاسوسات اللواتى استخدمهن الروس فى الحرب العالمية الأولى ـ وحذا حذوهم الألمان فى الحرب العالمية الثانية ـ أبعد النساء عن الفتنة والسحر ٠٠ كن نسوة فى أوسط العمر ، يجدن رتق جوارب الجنود فى المعسكرات !

ويكفينا فى هذا المجال مثال واحد : امرأة كانت تعيش فى (لشبونة) فى سنة ١٩٤٠ ، وكانت تزعم انها انجليزية ٠٠ **وكان لها أبناء يعملون فى البحر ، ففتحت أبواب دارها الصغيرة ـ القريبة من الميناء ـ لملاحى السفن البريطانية ، الذين ارتاحوا الى كرمها ، وألفوها ، وأصبحوا يسمونها « العمة » ! ٠٠ وكان كل ملاح يقصد دارها يثق مقدما انه سيلقى عندها قدحا من الشاى ، وعناية بغسل ثيابه ورتق جواربه !**

وفى ذات يوم ، اندفع الى الدار ملاح ، بادرها متسائلا : « هل غسلت ثيابى يا عمتى ؟ » ٠٠ فأجابته فى دهشة : « لا ٠٠ ألم تقل انك ستتركها الى يوم الأربعاء ؟ » ٠ ولكن البحار قال: « بلى ، ولكنا تلقينا أوامر مفاجئة بالرحيل عندما يحين المد فى هذا المساء ، كى نلحق بقافلة للسفن عند مصب النهر » ٠٠ فقالت العمة بأسف : « آه ياعزيزى ٠٠ ان ثيابك فى حالة يرثى لها ! ولكن ، الى أين تذهبون ، حتى أرسل اليك الثياب بعد اعدادها ؟ »

ـ سنذهب الى جبل طارق أولا ، وهناك تحدد لنا وجهاتنا

ـ اذن فسأرسل لك الثياب بعنوان « بيت الملاحين » بجبل طارق

وبرت « العمة » بوعدها ، فتلقى الملاح ثيابه حين بلغ (جبل طارق) سالما ٠٠ **فقد كان حسن الحظ ، ونجا من الأحداث التى أصابت القافلة فى الطريق ، بعد اذ علم الألمان بنبأها !٠٠ وأحسبك أدركت ان « العمة » الانجليزية لم تكن سوى جاسوسة ألمانية !**

هذا المثال يبين لك حقيقة الجاسوسات الحديثات ٠ ولكن معظم الروائيين والكتاب يفضلون ان يصوروا الجاسوسات فى صور الغوانى الفاتنات ٠ والكاتب الروائى يسعى الى اثارة قارئه ، والى منافسة غيره من الكتاب بالاسراف فى ابتداع المغامرات المثيرة ٠٠ وقد اشتدت هذه المنافسة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، حتى ساد الظن بأن القسط الأوفر من القتال ، انما دار فى الخفاء ، وبين شبكات الجاسوسية ، لا بين أسلحة الجيوش !٠٠ والواقع أن كل هذه المغامرات كانت من وحى الخيال ، اذ انك لاتجد من يروى مغامراته ـ من الجواسيس الحقيقيين ـ الا قلة ضئيلة ٠٠ وحتى فى هذه الحال ، تجد ان هؤلاء الجواسيس ليسوا من ذوى الأدوار الرئيسية ، لأن كل

جاسوس يعمد – أثناء الحرب – الى الاستعانة بكثير من الأعوان المحليين ، الذين يكونون غالبا من الهواة ، ولا تقيدهم القوانين العسكرية التى تحرم على الجاسوس المحترف أن يسرف فى الكلام ٠٠ وغالبا ما يجد الناشر ان من مصلحته التجارية ان يضيف الى ما يكتبه هؤلاء الهواة قسطا من المبالغة والاغراق فى الخيال ٠٠ بل والكذب !

ومن هنا نستطيع ان ندرك سر رواج القصص التى أذيعت عن جاسوسة كان اسمها يوما على كل لسان ٠٠ وهى « ماتا هارى » !

الجاسوسة العالمية ٠٠ كانت ترقص عارية !

• **كان** اسمها الاصلى « مرجريت تسيليه » ، وكانت هولندية قدر لها ان تتزوج من ضابط هولندى – يدعى « مكلويد » – من ضباط المستعمرات ، كان ينحدر من أصل اسكتلندى ، وكان وحشا ضاريا فى معاملته لها ، مما اضطرها الى الفرار منه ٠٠ وكانت قد قضت الشطر الأكبر من الفترة التى قضتها مع زوجها ، فى (جاوه) ، حيث حذقت الرقص الوطنى ٠ ومن ثم فانها – عندما اضطرت الى كسب عيشها ،



وهى تقترب من سن الأربعين ـ لم تجد خيرا من ان تحترف الرقص ، وان تبتكر لنفسها رقصات مقتبسة عن رقصات بنات (جاوه) ، كما اتخذت اسما من أسماء بنات (الملايو) ، هو « ماتا هارى » ، أى « عين الصباح » !

وسرعان ما نجحت ماتا هارى ، لا لأن جمالها كان خلابا ، ولكن لأن جسمها كان مثيرا لغرائز الرجال ، وكانت تفتن فى اظهار مفاتنه ، حتى انها كانت ترقص أحيانا شبه عارية ٠٠ بل وعارية ! ٠٠ وزادها شهرة انها لم تكن تصد أحدا من المعجبين، طالما كانوا أغنياء ٠ ومن ثم فأنها سرعان ما أصبحت شعلة الاثارة فى عواصم أوربا الغربية ، وكان يتبعها أينما ذهبت موكب من العشاق والمعجبين يشمل رجالا من أرقى الأوساط والمناصب ، بينهم نفر من كبار ضباط الجيش الألمانى ٠٠ وهو ما اتخذ دليلا ضدها فيما بعد

ومن الصحيح ان اسم ماتا هارى وضع فى القوائم السوداء ، كجاسوسة ألمانية ، ولكنها فى الواقع لم تكسب ـ باسم الجاسوسية ـ سوى النذر اليسير من الأموال الطائلة التى تدفقت عليها ٠٠ اذ ان الأموال التى سجلها الضباط الألمان على انها مكافآت لها عن خدمات جاسوسية ، لم تكن فى الغالب سوى مكافآت عن الأوقات الممتعة التى قضوها فى أحضانها !

ولو ان ماتا هارى كانت جاسوسة حاذقة مدربة ، لوجدت أمامها فرصا لا حد لها ، اذ كانت تعرف كثيرا من المسئولين الذين لا يملكون كبح ألسنتهم فى رفقتها ٠٠ ولكنها كانت قليلة الخبرة ، محدودة الذكاء ، لم تستطع الافادة من المعلومات التى كانت تصل اليها ٠٠ ولم تنجح فى شىء قدر ما نجحت فى اثارة الشبهات حولها ، وهى لاتزال فى مرحلة مبكرة من «عملياتها» فى فرنسا ٠ ولم ينقذها من الاعتقال سوى حماية أصدقائها من ذوى المراكز العليا ٠ ولكن السلطات الفرنسية لم تلبث أن

قررت الخلاص منها ، باقصائها عن فرنسا · فما كان من الغانية الا أن عرضت على السلطات الفرنسية أن تتجسس لها على الألمان ·· وقالت ان الجنرال « فون بيسينج » ـ حاكم بلجيكا البغيض ـ كان من عشاقها ، ومن ثم ففى وسعها أن تظفر منه بمعلومات ·· كما ذكرت أسماء رجال أعلى منه مقاما !

وأوقعهـــا الحظ بين يدى ضابط فرنسى أكثر منهـــا دهاء ، فتظاهر بقبـــول عرضها ، وأوفدها الى بلجيكا بعد أن زودها بأسماء ستة من الجواسيس كى تفضى اليهم بما تحصل عليه من معلومات · وكان الستة الذين اختارهم ، من الشخصيات التى كانت السلطات الفرنسية توقن من انهم يعملون لحساب ألمانيا ! ·· **ووقعت ماتا هارى فى الفخ ، اذ انها لم تكد تصل الى منطقة الاحتـــلال الألمانية ، حتى أفضت للألمان بأسماء الجواسيس الستة ·· واذا خمسة منهم جواسيس لألمانيا ، فى حين ان السادس كان جاسوسا لبريطانيا !**

وكانت هـــذه هى الخطوة ـ أو العملية ـ الايجابية الوحيدة التى قامت بها ماتا هارى ·· ولقد سافرت الى انجلترا بعـــد ذلك ، فاعتقلت هناك ، واذا بها تعترف بأنها جاسوسة فعلا ، ولكن ·· لحساب فرنســـا ! ·· وكان تجسس دول الحلفـــاء ـ بعضها على بعض ـ أمرا مسلما به ، كما كانت هـــذه الدول مضطرة الى تبادل المجاملات ، ومن ثم أطلقت السلطات البريطانية سراح الغانية ، لتعود الى فرنسا عن طريق اسبانيا · وفى هذه الدولة ، دفع لهـــا الملحقان البحرى والعسكرى الألمانيان مبلغا كبيرا من المال ، « لقاء خدمات أدتها » ، ولكن شيئا عن ماهية هذه الخدمات لم يذكر · **وما أن وصلت الى فرنسا ، حتى كان الفرنسيون قد جمعوا أدلة كافية على اتصالها بالألمان ، فحوكمت وأعدمت ، رغم دفاعها عن نفسها ، وتأكيدها ان الأموال التى تقاضتها من الضباط الألمان ، كانت فى مقابل ما باعتهم اياه من حب !**

ولقد أثارت قضيتها ضجة كبيرة ، وأزمات سياسية ، لا سيما حين قالت فى اعترافاتها ان وزيرا فرنسيا يدعى « م » كان من المعجبين بها ، فاستغل الجيش هذا الاعتراف لاقصاء وزير يدعى « مالفى » عن الحكم ٠٠ ثم ظهر – بعد الحرب العالمية الأولى – انهـا كانت تقصد الجنرال « ميسيمى » ، الـذى كان وزيرا للحـربية الفرنسية فى سـنة ١٩١٤ ! ٠٠ ومع ان الحكومة الفرنسية ردت الى « مالفى » اعتباره ، الا ان الوصـمة ظلت عالقة به طيلة حياته !

عـلى ان أعجب ما أثير حـول هذا الفصل من فصـول الجاسوسية ، تمثل فى الشائعات التى روجت بعـد اعدام ماتا هارى ٠٠ **ومنها ان أحد عشاقها قدم رشوة للجنود الذين كلفوا باعدامها ، فحشوا بنادقهم بالخرطوش الفارغ بدلا من الرصاص، وبذلك نجت من الموت ! ٠٠ ولكنها فى الواقع ماتت بالفعل !**

والرأى المجمع عليه ، هو ان ماتا هارى كانت شخصية غير عادية ، ولكنها لم تكن ذات كفاءة جاسـوسية ٠٠ اذن ، ففيم كانت الضـجة التي أثيرت حولها ؟ ٠٠ الواقع ان هذه الضجة كانت وليدة الدعاية وخيال الروائيين ٠٠ ليس الا !

واذا أخذنا ماتا هارى دليلا على ما قلته من ان النساء من أقل العناصر توفيقا فى ميدان الجاسوسية ، فان الانصاف يحملنى على أن أذكر امرأة كانت جاسوسة من الدرجة الأولى ، رغم انها كانت هاوية !

بائعة « الدانتيلا » ٠٠ وآكلة السجق !

• **ففى** الأسابيع الأولى من الحـرب العالمية الأولى ، تدفق عـلى انجلترا آلاف من اللاجئين البلجيكيين والفرنسيين ٠٠ وكانت بينهم شابة فرنسية تشتغل بالتدريس فى مدينة (ليل) ٠ وقد استرعت انتباه ضباط المخابرات البريطانية ، اذ كانت

المعلومات التى قدمتها ـ عندما سئلت فور وصولها ـ واضحة ، وكان ذكاؤها ملحوظا ، كما كانت تتكلم الألمانية بطلاقة ٠٠ ومن ثم أومض فى بال أحدهم خاطر مثير ، فعرض عليها أن تعود الى فرنسا ٠٠ كجاسوسة بريطانية !

وما لبثت « لويز دى بتينيى » ـ المعلمـــة ـ أن تلاشت من الدنيا ، لتظهر بدلا منهـــا ، فى فرنسا ، سيدة شابة تبيـــع « الدانتيلا » والخردوات ، وتدعى « أليس ديبوا » ! ٠٠ وكانت فرنسا تحت الاحتلال الألمانى اذ ذاك ، فسرعان ما أخـــذت الجاسوسة الشابة تنتقى أعوانا لها فى دقة وحرص : فاختارت كيميائيا قام بمهمة الخبير فى ابتكار المداد الخفى وتزوير الوثائق للشبكة ٠٠ واختارت فنيا من رجال الطباعة ابتكر لها أسلوبا للاختزال والشفرة ، حتى انه كتب تقريرا من ١٦٠٠ كلمة فى ظهر طابع بريد ، مستعينا بعدسة مكبرة ! ٠٠ على ان أنشط أعوانها كانت فتاة تدعى الآنسة « مارى ليونى ـ فانلوت » ، وتتسمى باسم « شارلوت » ٠٠ وظلت الاثنتان خمســـة عشر شهرا تستغفلان الألمان ، وترسلان ما يوافيهما به الأعوان من معلومات الى هولندا ، حيث كان جواسيس بريطانيا يتلقونها ٠ وكانتا تبتكران وسائل لنقل تقاريرهمـــا تنم عن ذكاء خارق : **فكانتا ترسلانها أحيانا مع صبية صغار ، أو تدسانها فى ساق خشبية لشيخ أعرج ٠٠ بل ان « شارلوت » دست تقريرا فى قطعة من « السجق » ـ ذات مرة ـ فلما استوقفها جندى ألمانى ليفتشها ، عرضت عليه قطعة السجق ليأخذ منها « قضمة » !**

٠٠ كانت هذه جاسوسية من نوع بسيط متواضع ، ولكنه كان عظيم القيمة ٠ وقد فعلت يقظة الفتاتين وذكاؤهما ، فى يوم واحـــد ، ما لم تفعله ماتا هارى فى حياتها كلها ! ٠٠ وقد قدر للفتـــاتين أن تقعا فى أيدى السلطات الألمانيـــة ، ولكنها لم تعدمهما ، لأن اقدامها على اعدام الممرضـــة « اديث كافيل »

قبلهما ، أثار عليهـا ثائرة الرأى العـام ٠٠ ومن ثم اكتفت بسجنهما ، فعاشت «شارلوت» الى نهاية الحرب ، حين استردت حريتها ، وحظيت بأوسمة كثيرة ! أما « لويز » فقد ماتت فى سجنها قبيل الهـدنة ٠ فلما وضعت الحـرب أوزارها ، شيع جثمانها مرة أخرى ، فى احتفال رسمى ، ونقل الى موطنهـا الأصلى بمدينة (ليل) ، وخلد اسمها بين الجواسيس القلائل الذين سجل التاريخ سيرهم !

« السيدة الطبيبة » ٠٠ التى كانت تعلم فن الجاسوسية !

◆ **واذا** اعتبرنا « شارلوت » و « لويز » مثالين للجاسوسات الناجحات ، فان كل الناجحات ــ مثلهما ــ لم يكن من الشابات ، بل ان من المسـنات من وفقن الى تخليـد ذكرهن فى تاريخ الجاسوسية ٠٠ وهذه واحدة تعتبر مثالا لهؤلاء المسنات :

ففى الأيام الأخيرة من الحرب العالميـة الأولى ، ذاع صيت جاسوسة أطلق عليهـا لقب « السيدة الطبيبة » ، حتى طغت شهرتها على شهرة ماتا هارى فى ميدان التجسس النسوى ٠٠ على ان المقارنة بين المرأتين لا تنطوى على شىء من الانصاف ، فقد كانت « السيدة الطبيبة » بارعة ، حاذقة فى اداء مهمتها ، بقدر ما كانت ماتا هارى عاجزة ! ٠٠ الا ان الروايات التى تناقلها الناس عنها كانت خيالية ، تنأى عن الحقيقة ٠٠ بل انها كانت تنطوى على كثير من التناقض ، لا سيما فيما يتعلق بنهايتها : فقد قال أحد المؤرخين ان الروس شنقوها فى بروسيا الشرقية ٠٠ وقال آخر ان الألمان أعدموها فى بروسيا الغربية ٠٠ وقال ثالث انها ماتت كسيرة القلب فى ساعة من ساعات اليأس ٠٠ وزعم رابع انهـا لا تزال على قيد الحيـاة ، وانها تعيش فى سويسرا ، وقد انصرفت الى تعاطى المواد المخدرة ٠٠ وكل هذه ــ فى الواقع ــ روايات مختلقة !

كذلك اختلف الرواة فى وصفها ، فقال بعضهم انها أوتيت عينين متقدتين رهيبتين ، تنفذان الى أعماق النفوس · وكان أعجب ما فى قصتها ، ان أكثر من اثنتى عشرة سيدة تنافسن فى انتحال شخصيتها بعد الحرب ! ·· وربما كانت بينهن جاسوسات بالفعل ، ولكن ايا منهن لم تكن « السيدة الطبيبة » !

ويقول المؤرخون ان اسمها الحقيقى هو « آن مارى ليسر » ، وان حبيبها مات فى مغامرة من مغامرات الجاسوسية ، فخلفته فى مهمته ·· ثم ظهر ان هذا القول ينطبق على تلميذة من تلميذات « السيدة الطبيبة » ·· أما هذه ، فكانت فى الواقع سيدة من أب ألمانى وأم هولندية ، وكانت تدعى «سكراجميلر» ·· وقد تعلمت ـ فى صغرها ـ فى مدرسة داخلية بالقرب من (ارنهيم) ، ثم انتقل أبوها الى (مينستر) فالتحقت بجامعتها ، حيث أبدت تفوقا فى الدراسة ، لا سيما فى اجادة اللغات ، مما رشحها ـ عندما نشبت الحرب العالمية الأولى ـ لأن تعين فى الرقابة الألمانية ·· وكانت اذ ذاك ـ كما يؤكد الرواة ـ فى الخمسين من عمرها ·· أى انها لم تكن شابة حسناء ذات عينين ثاقبتين جذابتين !

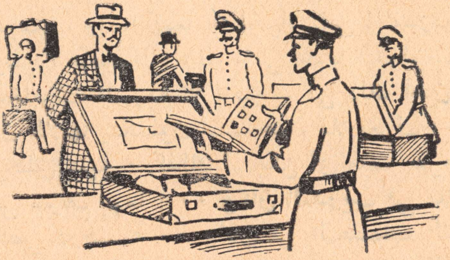
ولم تلبث « سكراجميلر » أن نقلت من الرقابة الى التجسس ··لا كجاسوسة ، وانما كمعلمة للجواسيس فى مدرسة أنشأتها فى (انفرس) ببلجيكا ! وقد أثنى عليها الكولونيل نيقولاى ـ رئيس المخابرات السرية الألمانية ـ فى ذلك الحين ، ثناء طيبا · وكان طلابها يتكتمون أسماءهم ، فلا يعرف أحد منهم الا برقم معين يطلق عليه · كذلك لم يكن أى منهم يعرف رفاقه ، حتى لا يفشى سرهم يوما ! ·· وكان التدريب فى تلك المدرسة دقيقا الى أقصى درجة ·· وكان من التعليمات التى تلقنها « السيدة الطبيبة » للطلبة : أن يخفوا درايتهم باللغات حتى

يطمئن الناس الى الحـــديث أمامهم دون تحفظ ، وأن يتجنبوا الحديث والكتابة باللغة الألمانية اذا ما كانوا فى مهمة بالخارج ٠٠ وكانت تحـــذر الطلبة كذلك من تسجيل شىء على الورق ، لأن احراق الورق لا يخفى ما به ، بل ان الفحص الميكروسكوبى يكشف أحيانا عن الكتابة التى قد توجد بالورق المحروق ! ٠٠ كما ان تمزيق الورق والقاءه فى أماكن متباعدة لا يقضى على ما فيه من معلومات ٠٠ ولهـــذا فان الاعتماد على الذاكرة هو خير الطرق !

على ان مدرسة « السيدة الطبيبة » لم تلق النجاح الذى كان من الميسور أن تبلغه ٠ وكان ذلك راجعا الى أن القـــواعد التى وضعتها السيدة كانت جافة ، غير مرنة ٠٠ كانت نظرية أكثر منها عملية ٠ وكانت السيدة لا تعامل كل طالب على حدة ، وفقا لاستعداده ومواهبه وميوله ٠٠ وهو أسلوب فى التعليم لا يؤدى ـ اذا طبق فى الجاسوسية ـ الا الى الدمار !

لغة طوابع البريد ٠٠ فى الجاسوسية !

◆ **وقد** حدث ـ عندما بلغت الحرب الأولى ذروتها ، فى سنة ١٩١٥ ـ أن هبط فى ميناء (تلبورى) بهولندا ، مسافر يدعى « جوزيف ماركس » ٠٠ وعثر رجال الجمـــارك فى أمتعته على



مجموعة من طوابع البريد ، فاذا بالرجل يبادر قائلا انه يريد أن يسلم نفسه ، وهو مغتبط لنجاته من « تلك المرأة الرهيبة »!

اذن ، فقد كان الرجل جاسوسا ! ٠٠ وبدا لأول وهلة ان الخطة التى رسمت له للاتصال بغيره من الجواسيس ، تنم عن مهارة فائقة ، اذ كان عليه أن يرسل الى «صديق» فى (روتردام) عددا من الطوابع تمثل ما يبغى تبليغه من بيانات ٠٠ فاذا أراد أن يذكر عدد ما لدى بريطانيا من « بوارج » ، أرسل طوابع « أوربية » بهذا العدد ٠٠ وتمثل الطوابع « الافريقية » طرادات القتال ، أما طوابع « أمريكا الجنوبية » فتمثل الطرادات الثقيلة، فى حين ان الطوابع « الاسترالية » ترمز الى الطرادات الخفيفة ، وطوابع « أمريكا الشمالية » ترمز الى المدمرات ، وطوابع آسيا ترمز الى السفن الحربية الصغيرة ٠٠ **فاذا تلقى جاسوس فى (روتردام) مثلا ، طابعين فرنسيين وأربعة استرالية وسبعة كندية وعشرة هندية فى مظروف يحمل خاتم ميناء (بلايموث)، كان معنى ذلك ان فى هذه الميناء ، فى التاريخ الذى يسجله خاتم البريد ، بارجتين ، وأربع طرادات خفيفة ، وسبع مدمرات ، وعشر سفن حربية صغيرة !**

وشاء نحس ماركس أن تكون هذه الطريقة معروفة ، اذ سبق أن اتبعت من قبل ٠ وكان من الغريب حقا أن تغفل « السيدة الطبيبة » درسا سبق للتاريخ أن ألقاه على القائمين بأعمال الجاسوسية والمخابرات ٠ وكانت هذه هى الغلطة الأولى ٠ أما الغلطة الثانية ، فلم يكن للسيدة ذنب فيها ، وانما كانت تبعتها واقعة على السلطات الألمانية ذاتها ٠٠ اذ ان ألمانيا كانت تحتل بلجيكا فى تلك الآونة ، فكان من الحماقة أن تؤسس مدرسة فى بلد أصبح الحلفاء يعتبرونه « أرضا معادية » ، يرتابون فى كل من يفد منها !

وفضلا عن ذلك ، فان البلجيكيين الكارهين لوجود الألمان فى

بلادهم ، كانوا قد ارتابوا فى تلك الدار المحوطة بالغموض ٠٠ دار مدرسة الجاسوسية التى أقيمت فى (انفرس) ، ولذلك أخذت منظمات الهواة ـ التى كانت منتشرة فى البلاد لمقاومة الاحتلال والخونة ـ فى مراقبتها ليل نهار ، وفى ملاحظة أوصاف كل من يدخلها أو يغادرها ، بل وفى تصوير المترددين عليها ما أمكن ذلك ٠ وكانت هذه البيانات تصل الى أقلام مخابرات الحلفاء، خلال شبكات الجاسوسية ، فأصبحت سلطات الأمن فى فرنسا وبريطانيا ترتقب باستمرار ، وفى يقظة تامة، أن يتسلل خريجو تلك المدرسة الى بلادها !

يظن صديقته غبية ٠٠ وهى تتجسس عليه !

◆ **بقى** أن نضرب مثالا للجاسوسة « الجميلة » بكل ما فى هاتين الكلمتين من معان ٠ وخير مثال لها هى « مارث ريشار » ٠٠ وكانت فرنسية ، قتل زوجها أثناء الحرب ـ فى سنة ١٩١٤ ـ فاذا حبها المشبوب له ، يولد فى نفسها حب الثأر ، ويذكى لديها الدهاء والجرأة ٠ ومن ثم تطوعت للعمل فى المخابرات السرية ، فأوفدت الى اسبانيا ، حيث استطاعت بحسنها الخلاب أن تسلب الملحق البحرى الألمانى لبه !

وظفرت « مارث » بنجاح كبير ٠ وكانت تزعم انها من أهل اللورين ، ومن أصل ألمانى تعتز به ٠ وساعدها فى ذلك انها كانت تتحدث الألمانية بطلاقة تامة ٠ واذ أصبحت خليلة للملحق البحرى الألمانى ، باتت أسراره وأسرار دولته فى متناول يدها ٠٠ لا سيما حين خيل للرجل ان بوسعه أن يستغلها فى التجسس لمصلحة ألمانيا ، فقبلت متحمسة ، رغبة منها فى أن تزداد تعمقا فى الأسرار الألمانية ٠ وقد أبلغت ذلك الى مركز مقاومة الجاسوسية ـ التابع لقيادة الحلفاء ـ فى باريس ، وسألت المشرفين عليه أن يمدوها بمعلومات تطمئن الملحق البحرى

الألمانى الى اخلاصها له · **ومن ثم فانهم أخذوا يمدونها ـ بين حين وآخر ـ بوثائق لا تؤدى اذاعتهـا الى الاضرار بمصلحتهم العليا ·· ومكنها ذلك من أن تستخلص من عشيقها الألمـانى أسرارا خطيرة أدت الى اغراق أكثر من غواصة ألمانية !**

وهكذا كانت « مارث » تتجسس لمصلحة الحلفاء ، وتتقاضى أجرها من الملحق البحرى الألمانى !·· ولا يدرى أحد ما جرى لهذه المرأة البارعة ـ بعد الحرب ـ ولكن المهم فى أمرها انهـا ساعدت على تحطيم الأسطول الألمانى ، وعلى هـزيمة ألمانيا ، فانتقمت لزوجها !

على ان الجنس اللطيف لا يفيد فى الجاسوسية بقدر ما يفيد فى مقاومتها ، وكشف الستار عن جواسيس الأعـداء · ومن الأمثلة التى تذكر فى هذا الصدد ، حادث وقع فى سنة ١٩٣٨ وأثار انتباه العالم ، اذ وقع ثلاثة من عمال المصانع الحربية فى (وولويتش) ـ بانجلترا ـ تحت اغراء جواسيس دولة أجنبية ، وكانت لأحدهم صديقة تبدو ـ رغم جمالها ـ غبية ، حتى انه لم يكن يرى حـرجا فى أن يلتقط صور ما كان يحمله الى داره من رسوم وخطط ، فى حضـورها ·· **وشدما كانت دهشته عندما قدم الى المحاكمة ـ بعد اعتقاله ـ فاذا به يتبين ان الحسناء كانت من جاسوسات الهيئة الموكلة بمقاومة الجاسوسية الأجنبية ·· وانها لم تكن غبية كما خالها !**

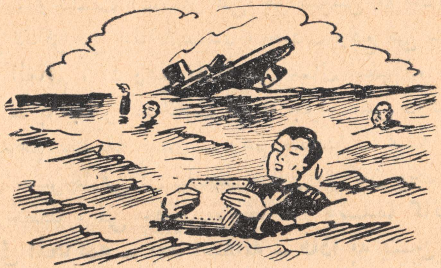
الفصل الثامن

« رقيب » ·· يغير مجرى التاريخ !

◆ **من** الطبيعى أن يظفر الجواسيس بقسط من الشهرة فوق ما يحصل عليه العاملون فى مقاومة الجاسوسية · ذلك لأن هذه المقاومة تعتمد على التنظيم أكثر مما تعتمد على الفرد ذاته ، وان

كانت نتائجها لاتقل قيمة وخطورة عن نتائج أعمال الجواسيس. وليس أدل على ذلك من أن رقيبا فى البحرية البريطانية، استطاع يوما أن يغير مجرى التاريخ ! .. فما أن قامت الحرب العالمية الأولى، حتى أنشأت وزارة البحرية البريطانية ادارة للرقابة، كانت دقيقة النظم، فعالة فى نشاطها، موفقة فى عملها !

وحدث فى الأسابيع الأولى من الحرب، أن أغرق الطراد الألمانى « مجدبورج » فى مياه بحر البلطيق، وألقت الأمواج جثث بحارته على الساحل الروسى، فاذا بينها جثة ضابط - من ضباط الصف - تيبست ذراعاه على كتاب ذى غلاف حديدى،



يتضمن « الشفرة » التى كان الطراد يستخدمها فى رسائله .. وقد وضع فى ذلك الغلاف ليغوص فى قاع البحر عند الخطر. وكان من الجلى أن الضابط كان يهم بالقائه فى البحر عندما وافته المنية

وأبلغ الروس بريطانيا بالأمر، اذ كانت فى تلك الفترة صديقة لهم. وسرعان ما أوفد تشرشل طرادا الى (اركانجل) ليحضر ذلك الكتاب .. فقد كان جديرا بكل عناية، نظرا لما كان يتضمنه من أضواء تكشف غوامض الشفرة السرية للأسطول الألمانى .. ومع ان الشفرة قد تتغير من حين لآخر، الا أن أية

صيغة لها خليقة بأن تساعد الباحث على الوصول الى أسرارها ٠٠ ولم تقنع البحرية البريطانية بذلك ، بل انها كلفت غواصا يدعى « ميلر » بالهبوط الى قاع البحر ليفحص حطام غواصة ألمانية كانت غارقة قرب ساحل (كنت) بانجلترا ، سعيا وراء مزيد من أسرار البحرية الألمانية ٠ وكانت الأسماك الكبيرة تحاصر موقع الغواصة لتنهش جثث الغرقى ، ولكن « ميلر » استطاع – بعد لأى – أن يشق لنفسه طريقا الى غرفة القائد ، حيث عثر على صندوق معدنى بدا ان القائد لم يجد فرصة لافراغ محتوياته بعيدا عن المقر الأخير لغواصته !

وعند فتح الصندوق ، ظهر أنه يضم خططا ومشروعات هامة عن حقول الألغام ، فأرسلت هذه الوثائق الى وزارة البحرية فى الحال ، وهناك أقبل عليها الرقباء البحريون ، واستخلصوا منها أسرارا خطيرة ٠ وكان من جراء ذلك ، أن اتخذ « ميلر » نواة لمنظمة أحيطت بسرية تامة ، ومنحت سلطات عليا ٠٠ وكانت هذه المنظمة تندفع الى مواقع غرق الغواصات الألمانية – بمجرد غرقها – لتفحصها ، فخرجت من ذلك بكثير من مفاتيح الشفرة ، ومواطن الألغام والمشروعات ٠ وبهذه الطريقة ، كان الرقباء البحريون الانجليز ، على دراية مستمرة بكل التغييرات التى كانت تدخل على الشفرات الألمانية !

خطر الجاسوسية ٠٠ فى الحرب البحرية !

• **ولقد** تحدثت عن أثر الخيال فى تصوير أعمال ماتا هارى ٠٠ وهناك مثال آخر ، فقد كثرت القصص الخيالية عن « الحجرة رقم ٤٠ – أو ٠ بى ٠ (O.B. — 40) ، وزعم مؤلف انها فى « اسكتلنديارد » ، بينما ادعى آخر انها فى وزارة الحربية البريطانية ، وقال آخرون انها فى المركز الرئيسى للجاسوسية ، بل ان بعضهم ذهب الى أنها فى مقر رئاسة الوزارة ، فى رقم ١٠ « دونينج ستريت » ٠٠

والواقع ان « الحجرة رقم ٤٠ » كانت فى المبنى القديم لوزارة البحرية البريطانية ، وكانت مقر « الرقباء البحريين » ! ٠٠ وتدين هـذه المنظمة بوجودها الى مدير المخـابرات السرية البحرية فى انجلترا ، فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وكان اذ ذاك الكابتن « رجنالد هول » ٠٠ وقد أصبح أميرالا فيما بعد ٠ وقد عجم « هول » عيدان رفاقه وأعوانه ، بحثا عن أصلح رجل لتولى هذه الادارة الجديدة ٠٠ وفى لمحة من لمحات الالهام ، تذكر « هول » رجلا يدعى « الفريد أبوينج » كان يتولى ادارة التعليم البحرى اذ ذاك ٠٠ وكان عالما أوتى عبقرية فذة فى معالجة كل ما يتعلق بالشفرات السرية ، واتخذ من دراستها هواية له منذ أمد بعيد ٠ ومن ثم أقبل على عمله الجديد بأقصى ما كان لديه من نشاط ، متعاونا مع الأساتذة الذين عينوا لمساعدته ٠٠ وكان لبعضهم « أنف » عجيب يحذق تشمم أسرار شـفرات الألمان وحلفائهم ! ٠٠ وكان الأساس الذى اتخذه هؤلاء الخبراء لعملهم، يتمثل فى تلك الكتب التى عثر عليها ميلر وزملاؤه ، ولذلك لم تعد تستعصى عليهم شفرة ألمانية !

ولم تكن فى أية وزارة بحرية أخرى ادارة مطلعة اطلاع رجال « الحجرة رقم ٤٠ » ، فكانوا يلتقطون كل رسالة لاسلكية تذيعها البحرية الألمانية ويفكون رموزها ، مما أدى الى تغييب عدد كبير من الغواصات الألمانية فى قيعان البحار والمحيطات ، والى اعتقال عدد كبير أيضا من الجواسيس الألمان ٠ وكانت هذه الحجرة هى التى حذرت الحلفاء قبل الهجوم الألمانى على (فردان) بثلاثة أسابيع ٠٠ كما انهـا هى التى اكتشفت خطة انزال السير « روجر كيسمنت » الى ايرلندا لاشعال ثورة قومية هناك أثناء الحرب (١) ٠٠ وكانت أغرب مغامراتها نجاحهـا فى أن تدس

---

(١) نشرت تفصيلات هذه الخطة فى العدد ٥٨ من « كتابى » ، عن جماعة « السين – فين » الايرلندية التحريرية

جاسوسا لها فى وزارة البحرية الألمانية ، بعد أن زودته بنسخة من الشفرة السرية الألمانية ، ليستخدمها فى تضليل سفن وغواصات أسطول غليوم الثانى !

ولقد انتهت أول معركة بحرية في الحــرب ، بين انجلترا وألمانيا ، بهزيمة للأولى ، اذ التقى الأميرال « فون شبى » بقطع من الأسطول البريطانى على مقربة من (كورونيل) فدمرها . وفى الحال قررت البحرية البريطانية أن توجه الى الأسـطول الألمانى ردا قاسيا ، فأصدرت أمرا الى أسطول قوى ، يضم بين قطعه طرادتين للقتال ، بالابحار من البحر الأبيض المتوسط الى جنوب المحيط الأطلسى ، ووضعت فى مكان الطرادتين نموذجين زائفين لتضليل الجــواسيس الألمان الذين كانوا يراقبــون الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط ..

واذ ذاك نشط الجاسوس البريطانى المنــدس فى البحرية الألمانية ، فأرسل الى الأميرال فون شبى أوامر زائفة بالشفرة، كى يتجه الى جزر (فولكلاند) بالمحيط الأطلسى الجنوبى .. واستجاب الأميرال للتعليمات ، ظنا منه انها صحيحة ، فأبحر الى الجنوب حيث كان الأسطول البريطانى يتربص له .. ووقع فى الكمين فأبيدت سفنه ! .. وقد ظهر ـ بعــد الحرب ـ ان الامبراطور غليوم كتب على هامش تقرير البحرية عن المعركة : « انه لشىء غامض غير مفهوم .. لماذا ذهب فون شبى الى جــزر فولكلاند ؟ » .. وقد بقى الجــواب سرا مكتوما ، حتى انتهت الحرب وتكشفت الأسرار !

وفى معركة (جوتلند) البحرية ، كان من المحتمل أن تحرز المخابرات السرية البحرية ـ التابعة لبريطانيا ـ نصرا عظيما .. وكان الاشتباك الأول غير حاسم ، ولكن الأميرال الألمانى رأى أنه يعرض أسطوله لكارثة محققة لو استمر فى القتال ، فقــرر أن يتجه بأسطوله الى أقرب ميناء ألمانية .. وكانت هناك ثلاثة

ممـــرات سرية مأمونة فى منطقـــة الألغام التى كانت تحيط بالأسطول ، فتربص الأسطول البريطانى أمام ممر منهـــا ، حدس أن القائد الألمانى سيتخذه ، ولكن حدسه طاش ٠ وكانت البحرية البريطانية تلتقط الاشارات اللاسلكية الألمانية ، وتفك رموزها ، ثم تبعثبها الى أسطولها فى المعركة ٠ولكنها ـ لسبب غير معروف ـ لم تصـــل اليه فى الوقت المنـــاسب ، فتمكن الأسطول الألمانى من الافلات ، ومن الوصول بسلام الى ميناء مأمونة !

دخول أمريكا حرب ١٩١٤ من عمل الجاسوسية البريطانية !!

• **وهكذا** كانت الظروف تعترض جهود « الحجرة رقم ٤٠ » أحيانا ، فتفسد نتائجها ٠على أن أكبر نصر أحرزته الحجرة ،كان انتصارا سياسيا٠٠فقد طلع عام ١٩١٧ على الحلفاء وهم فى حال ســـيئة ، اذ كانت فرنســـا قد أوشكت على الانهيار ، وكانت روسيا قد دخلت مرحلة الانهيار وأصبح كل مطلع يتوقع انفجار الثورة فيها ، ولم تكن ثمة قوة تعوض الحلفاء عن روسيا سوى الولايات المتحدة الأمريكية ٠ غير ان البوادر المبشرة باستعداد هذه الدولة لدخـول الحـــرب ، كانت قليلة ، اذ كانت الآراء المنادية بالعزلة لا تزال قوية النفوذ في أمريكا ، رغم المساعدات والمواد التى كانت الصناعة الأمريكية تمد بها الحلفاء ٠٠ فان الحياد كان فى مصلحة أمريكا ، وكان أكثر نفعا لها ، كما كان الرئيس « ولسون » يبغض الحـــرب ٠ ومن ثم أيقن الحلفاء فى النهاية انه لن يعدل عن موقفـــه ، الا اذا أغرقت الغـواصات الألمانية بعض سفن أمريكا ٠٠ ومع ذلك ، فان هذا لم يثر فى البداية سوى غضب لم يتجاوز حدود الاحتجاج !

وكان مسلك ألمانيا فى المسائل الخارجية ـ فى تلك الفترة ـ يتسم بالتقلب ، لا سيما حين تغافلت بحـــريتها عن عواقب

مهاجمة سفن أمريكا ، وقررت أن توغل فى حرب العصابات البحرية ، غير متقيدة بأى اعتبار !

وأرسل الهر زيمرمان ــ وزير الخارجية الألمانية ــ بتعليمات خاصة بهذا الصدد ، الى سفيره فى واشنطن ، فالتقطت البحرية البريطانية هذه الرسالة ، وعهدت بها الى « الحجرة رقم ٤٠ » ٠ وكانت الرسالة مكتوبة بشفرة جديدة استعصت فى البداية على خبراء الحجرة ، ولكنهم استطاعوا فى النهاية فك طلاسمها ، فاذا الرسالة خطيرة الشأن ، تحتاج الى دقة ودهاء لعلاج الموقف ! ٠٠ ومن ثم بادرت الحكومة البريطانية الى ابلاغ السفير الأمريكى تلك الرسالة ، وسمحت لأحد رجاله بولوج «الحجرة رقم ٤٠ » حيث اطلع على الطريقة التى اتبعت فى حل الشفرة٠ وكانت الرسالة تتضمن اخطارا للسفير الألمانى فى واشنطن بأن بلاده قررت أن تستأنف فى أول فبراير سنة ١٩١٧ حرب الغواصات المطلقة ، غير مقيدة بأى اعتبار ، ومن ثم فعليه أن يقنع الولايات المتحدة بأن « تبعد سفنها عن أوربا » ــ ان شاءت أن تتمسك بحيادها ــ وبأن يسعى لعقد محالفة بين ألمانيا والمكسيك اذا فشل فى ذلك ، مقابل وعدها بأن تمنحها ألمانيا ولايات تكساس ونيومكسيكو واريزونا الأمريكية ، اذا ما انتهت الحرب بهزيمة الولايات المتحدة والحلفاء

وكانت بعض الصحف الأمريكية تشن ــ فى تلك الفترة ــ حملة شعواء على بريطانيا ، متهمة اياها بأنها تعمل على جر الولايات المتحدة الى الحرب ٠٠ ولكن نشر الرسالة الألمانية ــ التى حلت « الحجرة رقم ٤٠ » رموزها ــ قلب الرأى العام الأمريكى بين يوم وليلة ، وكان من أكبر العوامل التى دفعت بالولايات المتحدة الى الاشتراك فى الحرب العالمية الاولى ٠٠

بل ان هذه الرسالة غيرت مجرى الحرب بأسرها ٠ فان وصول القوات الامريكية الى صفوف الحلفاء قلب ميزان القوى

لصالح هؤلاء . ولو ان ألمانيا انتصرت فى سنة ١٩١٧ أو سنة ١٩١٨ ، لتمكنت بعد ذلك من التغلب على روسيا ، ولسيطرت على أوربا بأسرها ، وجزء من آسيا .. ثم لاشتبكت مع الولايات المتحدة فى سبيل السيادة على العالم ! .. وكان الفضل فى كل هذا التحول راجعا الى براعة خبراء « الحجرة رقم ٤٠ » فى حل الشفرة السرية .. والى « ميلر » الذى أرسى أساس هذا النجاح بعثوره على مفتاح الشفرة البحرية الألمانية !

الفصل التاسع

جواسيس .. فى الرقابة

◆ **من** عادة الدول جميعها أن تلجأ الى الاستعانة بالرقابة فى أوقات الحروب . وعلى الرغم من أن الرقابة بغيضة الى القلوب ، الا أنها سلاح لا غنى عنه فى مقاومة تجسس الأعداء . ومع دقة النظم التى تسير عليها الرقابة ، الا ان تاريخها لا يخلو من لحظات وجيزة ، خاطفة ، تترك آثارا فى التاريخ .. ومن ذلك ما حدث فى سنة ١٩١٥ ، اذ كان على جاسوس ألمانى ، يدعى « روزنتال » ، ان يتسلل الى بريطانيا عن طريق الدانيمرك . فما ان وصل الى (كوبنهاجن) ، حتى نسى الحذر الذى تتطلبه مهنته ، فكتب الى صديق له فى ألمانيا ينبئه بأنه فى طريقه الى انجلترا ليتجسس أنباءها ، منتحلا شخصية بائع « ولاعات » سجاير !

وألقى الخطاب فى صندوق البريد .. فوقع فى يد عامل من عمال الفرز - فى ادارة البريد - كان يعمل بسرعة ، وتحت ضغط سيل دافق من الرسائل ، فكان يطوح بالرسائل الى الأكياس الخاصة بالبلدان الموجهة اليها ، اقتصادا للوقت والحركة .. **فلما قرأ العنوان الذى كان على رسالة «روزنتال»** ،

طوح بها نحو كيس ألمانيا ، فاذا به يخطىء الرماية ، فوقعت الرسالة فى كيس انجلترا ٠٠ وبهذا تسنى لرقيب بريطانى أن يقرأ الرسالة وهو مفعم بالدهشة !٠٠ ومن الطبيعى أن « روزنتال » لم يجد فرصة لأداء مهمته ٠٠ فكان أجدر الجواسيس بلقب « الجاسوس سىء الحظ » !

كذلك تتخلل حياة الرقابة أحداث مضحكة ، كالحادث الذى سأسوقه فيما يلى ، والذى بدأ - فى سنة ١٩١٥ - فى ادارة الرقابة البريطانية ٠٠ ذلك لأن من أهم وسائل ادارة مقاومة التجسس ، اعداد « قائمة سوداء » تضم العناوين التى يشتبه فى أن لها علاقات بالتجسس - سواء داخل البلاد أو خارجها - وعناوين رعايا الأعداء المقيمين فى دول محايدة ، ممن يكونون على اتصال بأفراد فى داخل البلاد

فقد حدث ذات يوم ، ان كان رقيب انجليزى يفحص محتويات البريد الصادر ، واذا به يعثر على صحيفة مرسلة الى شخص فى هولندا ، كان ممن ذكروا فى « القائمة السوداء » ٠٠ وبدت الصحيفة عادية فى مظهرها ، وخالية من أية رسالة ، ومع ذلك فقد رؤى فحصها كيميائيا للتثبت من عدم وجود كتابة ما بمداد سرى ٠٠ واذا الفحص يسفر عن وجود عبارات فى أحد الهوامش ، جاء فيها ان : « ك ٠ سافر الى الشمال » ، وانه « سيكتب من ٢٠١ » ٠ وكان غلاف الصحيفة يحمل خاتم بريد (ديبتفورد) ٠٠ ومن هذا المفتاح الضئيل ، أمكن الوصول الى واحد من أمهر جواسيس ألمانيا الذين كانوا يعملون فى انجلترا ، والى جاسوس بحرى بارع كاد يفلت من السلطات البريطانية !

الرقيب يكشف سر « البواخر الزائفة » !

• وقد يبدو ان العنوان الذى اخترته لهذا الفصل مضلل ،

لأن الأمثلة التى سقتها حتى الآن تتعلق بمقاومة التجسس ، وليس بالتجسس ذاته . على ان تاريخ الرقابة تضمن سيرة « رقيب جاسوس » ، كان من أحذق الجواسيس .. ففى سنة ١٩١٤ ، لم تكن جوازات السفر ضرورية – فى الغالب – الا لمن يسعون الى دخول روسيا وتركيا . لهذا كان من الميسور لألمانى يدعى « شيلبر » ، عاش ردحا من الزمان خارج ألمانيا وحذق اللغة الانجليزية بطلاقة ، ان يكسب عطف السلطات البريطانية ، لاسيما وانه ساعد الجيش البريطانى يوما فى جنوب أفريقيا . وكان « شيلبر » يعيش فى الولايات المتحدة فى أوائل الحرب ، فانتقل الى كندا ، حيث عرض على الملحق العسكرى الألمانى اقتراحا قبل فى الحال ، رغم انه لم يكن جاسوسا مدربا

وكانت الخطة التى رسمها تنم عن دهاء ، اذ انه بادر الى التطوع للعمل كرقيب للبريد فى كندا ، وأظهر من الكفاءة ما أكسبه ثناء رؤسائه . وكان عمله يتيح له فرصا وافرة ، لا تقتصر على التقاط المعلومات من بعض الرسائل ، وانما تشمل أيضا تمكنه من ارسال تقاريره الى أعوان فى بلاد محايدة ، بعد أن يختمها بخاتم الرقابة !.. **وكان من الشخصيات التى اعتاد أن يوجه رسائله اليها ، شخصية خيالية .. أسير – لا وجود له فى الواقع – فى ألمانيا .. وكانت الرسائل التى تصل الى ألمانيا بهذا العنوان تحول الى ادارة المخابرات السرية الألمانية فورا !**

وكان « شيلبر » حريصا فى تدبيراته ، فلم يكن يكتب رسائله فى مكتبه ، ولا فى مسكنه .. فقد استأجر غرفة بعيدة ، كان يتسلل اليها فى المساء حيث يكتب تقاريره ، وينقل أو يصور أجزاء من الخطابات التى تقع بين يديه أثناء عمله فى الرقابة !.. وكانت المتاعب الرئيسية التى اعترضته ،

هى الحصول على المواد اللازمة لعمله ، لاسيما الأفلام التى يستخدمها فى تصوير فقرات الرسائل . وكانت الأفلام بالذات هى منفذ الخطر الذى حاق به ، اذ أن الرجل الذى كان يبيعه الأفلام لم يلبث أن ارتاب فى أمره لكثرة ما كان يشتريه ، فأبلغ البوليس هواجسه . ولكن القدر كان يحالف « شيلبر » ، اذ أن البوليس استهجن شكوك البائع وزجره !

واستطاع شيلبر بأسلوبه الفذ ان ينقل الى ألمانيا كثيرا من الأنباء المتتابعة . ولكنه بلغ أوج نجاحه فى سنة ١٩١٥ ، حين وقعت فى يده رسالة من فتاة الى صديق لها ، ذكرت فيها ابتهاجها لأن أخاها ـ الذى كان يعمل فى البحرية ـ قد حظى بوسام لشهامته ، ونقل الى ميناء قريبة ، حيث عهد اليه بمهمة محوطة بالغموض ، تتعلق باصلاح السفن التجارية القديمة !

ولما كان من واجب الجاسوس الناجح أن يتنسم الأخبار كما يفعل الصحفى ، ولما كان شيلبر قد حدس ان وراء هذه الرسالة أمرا ، فانه سافر ـ فى أقرب فرصة سنحت له ـ الى البلدة التى كانت كاتبة الرسالة تقيم فيها ، وتقدم الى الفتاة بوصفه رقيبا ، فألقى عليها محاضرة عن خطر الثرثرة فى رسائلها !.. **وشكرت الفتاة للرقيب كرمه ، واطمأنت اليه ، فراحت تتكلم ـ دون ما حذر ـ منساقة الى الاتجاهات التى كان يستدرجها اليها .. واذا بحديثها يقود « شيلبر » الى سر من أعظم أسرار الحرب .. سر « البواخر الزائفة » !**

.. كانت الخطة تعتمد على اختيار بواخر تجارية وتسليحها بمدافع مستترة بوسائل التعمية (الكاموفلاج) ، **بحيث تبدو كبواخر** تجارية تمخر البحار ، حاملة أعلام دول محايدة . فاذا تعرضت احدى الغواصات الألمانية لباخرة منها ، أبدى بحارتها هلعا ، وأسرعوا الى مغادرتها فى قوارب الانقاذ . **واذ ذاك تطمئن الغواصة الى أن فريستها غير مسلحة ، فتظهر على سطح الماء ،**

وبدلا من أن تنسف الباخرة بطوربيد - وكانت الطوربيدات قليلة وغالية - تشرع في رميها بالقنابل ٠٠ وقبل ان تتمكن من ذلك ، تفاجأ الغواصة بقذائف المدافع المستترة تنهمر عليها كالمطر !٠٠ وقد أغرقت احدى عشرة غواصة بهذه الخطة ، كما أصيب عدد كبير بأضرار من جرائها ٠ وكانت كفيلة بأن تمضى فى مهمتها المدمرة لو لم يتلق الألمـان ما أنذرهم ٠٠ وكان الانذار مرسلا من شيلبر !

ومع ان شيلبر كان يتبع أسلوبا بسـيطا ، ومسلكا نظيفا - فما عرف عنه يوما انه استخدم مسدسا أو أقدم على عمـل اجرامى - الا أن مغامراته ترفعه الى أرقى مصاف الجواسيس فى الحـرب ! كانت الجاسـوسية لديه صراعا فـكريا ، أوتى استعدادا فذا لخوض غماره !٠٠ وقد أدى لبـلاده - ألمانيا - أجـل الخدمات ، ومع ذلك فانه لم ينـل من الحمـد والثناء الا النذر اليسير !

الفصل العاشر

رسول الخراب !

• فى سنة ١٩٤٠ ، اعتقل الـكابتن فرانز فون رينتلن - زعيم فن التخريب الذى كان يلقب بالغـازى الاسود ! - فى جزيرة (مان) ٠ وقد طلب منى ان أشفع له لدى السلطات ، ولكننى رفضت ، لأنه رغم عدائه لهتلر ، ما كان ليحجم عن الانضمام الى القادة الألمان لو انهم تخلصوا من الفوهرر !٠٠ وكان قد لجأ الى بريطانيا عند قيام النازية ، التى لم تكن تقدر أمجـاد الأبطال الا اذا أبدوا اسـتعدادا لقبول « المذهب » النازى !٠٠ على ان فون رينتلن وجد ترحيبا من بريطانيا ، اذ كان كتابه عن أعماله فى الحرب العالمية الأولى قد أكسبه صيتا

ذائعا هناك ، كما انه وجد موردا للعيش فيما كان يلقيه من محاضرات عامة

وكان فون رينتلن من أبرع من حذقوا فن « التخريب » ، الذى يعتبر طابعا هاما فى كل الحروب الحديثة • وقد أوفدته البحرية الألمانية — فى مارس سنة ١٩١٥ — الى الولايات المتحدة على انه من رعايا سويسرا • **ومع ان أمريكا كانت فى تلك الفترة تتشبث بالحياد التام ، الا أنها كانت عاكفة على اعداد نفسها للدور الذى كان مقدرا لها •• أى ان تصبح مستودع الأسلحة والذخائر للحلفاء • بل ان الحياد لم يمنعها اذ ذاك من أن تمد الحلفاء — لاسيما روسيا — بالذخائر ••فكان من الأهداف الرئيسية لألمانيا أن توقف هذه الامدادات !**

ولم تكن الخطوات الاعدادية فى مهمة فون رينتلن فى صعوبة الخطوات التمهيدية فى عمليات الجاسوسية ، اذ كان فى الولايات المتحدة مئات من البحارة الألمان الذين بقوا فيها عند قيام الحرب ، وانتشروا فى أرجائها ، بعد ان حال الحصار البريطانى دون عودة سفنهم الى ألمانيا • وقد كان عدد كبير منهم ، من مجندى احتياطى الأسطول الألمانى ، وعلى استعداد لأن يعملوا من أجل وطنهم ، كما كان من السهل على فون رينتلن أن يعثر على متطوعين من الايرلنديين الذين كانوا يعملون فى الموانىء الامريكية ، والذين كانوا يكرهون انجلترا ولا يتورعون عن كل ما يوقع بها أبلغ الأضرار !

على ان أهم رجل انضم الى الحركة التى نظمها فون رينتلن ، هو الدكتور « شيل » • وكان عالما ماهرا ، اخترع سلاحا أحدث دويا فى ذلك الحين ، هو « السيجار المحرق » ، أو « القنبلة السيجار » ، التى كانت ذات أثر مدمر عظيم • وكانت هذه القنبلة عبارة عن أنبوبة جوفاء من القصدير ،

تفوق حجم السيجار قليلا ، وينقسم جوفها – بحاجز نحاسى رفيع – الى قسمين ، يحتوى أحـدهما على حامض البكريك ، والآخر على حامض الكبريتيك ، فاذا امتزج الحامضان أحدثا لهبا قويا عنيفا ، يستمر فترة طويلة نسبيا ويتصل بأى جسم قابل للالتهاب ولو كان على بضع ياردات منه !

وكان من الصعب كبح استخدام هذا « السيجار المحرق » ، لأن صغر حجمه كان يمكن أى شخص من القـائه بين الفحم عند شحن الوقود اللازم للسفن ، فاذا سرت اليه حرارة المواقد تفجر وأحدث حريقا دون أن يعثر له أحد على أثر . **وقد اختيرت سفينة أمريكية شحنت بالذخائر الى روسيا لاجراء أولى تجارب هذا « السيجار المحرق » .. وما لبثت التجارب المتوالية ان أثبتت نجاحه !.. كما اخترع الدكتور « شيل » قنـابل على شكل كتل الفحم ، تدس بين وقود السفن ، ولا تنفجر الا بعد وضعها فى الافران فتتلف آلات السفينة !**

واخترع رجـــل آخر من معـــاونى فون رينتلن – ويدعى « فاى » – جهازا يلصق سرا بدفة الســـفينة ، فاذا انفجر ، مالت السفينة على أحد جانبيها ، وربما غرقت !

ولقد اشتهر فون رينتلن بأنه كان « نظيفا » فى عملياته ، فكان يحرص على ان لا تؤدى الى سفك الدماء .. ومع ذلك فقد نجح ايما نجاح فى مهمته كمخرب . وكانت وسـائله تنم عن مهارة وتنظيم دقيق .. ولكن اختلاط عدة جنسيات فى جماعته أدى الى صعوبة السيطرة عليها ، كما ان الدكتور « شيل » لم يلبث أن سبب له ازعاجا ، اذ انقلب فجأة الى انســـان نهم لا يكف عن طلب مبالغ ضـخمة من المـال . وقد تحايل فون رينتلن على علاج مشكلته ، بعد ان عرف ان نقطة الضعف لديه هى شغفه بالنساء !

فون بابن ٠٠ الغبى !

• **ولقد** سبق فون رينتلن كثيرا من الساسة الى ادراك ان تحطيم الروح المعنوية لا يقل شأنا عن التخريب المادى ٠ ووجد فى هذا الميدان كثيرا من المتطوعين ٠ فقد كان فى أمريكا اثنا عشر مليونا من الرعايا المنحدرين من أصل ألمانى ، والذين مالت قلوبهم الى مناصرة وطنهم الأصلى ، فأخذوا ينظمون الاضرابات فى مصانع الذخيرة ، كما ألف العمال الألمان والايرلنديون اتحادا لنقابات عمال الموانىء ، كان ينظم الاضرابات كلما دخلت سفن الحلفاء الموانىء الامريكية لتتزود بالأسلحة والذخائر ٠ ولكن هذه الخطط لم تلبث ان اكتشفت، فعمد الجواسيس الانجليز الى تشجيع اتحادات النقابات الأصلية حتى تغلبت على الاتحاد الألمانى الايرلندى

على ان أبرع حيل فون رينتلن تجلت فى استغلاله ميل الامريكيين للعزلة وعدم اقحام بلادهم فى مشكلات أوربا ٠٠ فقد نظم اجتماعات للاحتجاج على ارسال أسلحة وذخائر الى الحلفاء ، بحجة ان ذلك يضر بحياد أمريكا ٠ **وتوصل الى الاستعانة بشخصيات بارزة وأعضاء فى مجلس الشيوخ الامريكى ، كانوا يخطبون فى هذه الاجتماعات ، دون أن يفطنوا الى أنهم كانوا ألاعيب فى يد جاسوس ألمانى !** ٠٠ وبينما كان مثيرو الخواطر ومهيجو الرأى العام ـ من الايرلنديين والامريكيين السذج ـ منهمكين فى هذه الحرب السياسية التى كان فون رينتلن يقودها وحده ، اذا به يستدعى الى ألمانيا للتشاور

وكان قد بذل كل جهد ممكن ليتجنب أية شبهات طوال بقائه فى أمريكا ٠ ولكن القدر كان يريد له أن يقع ، بغباء سواه !٠٠ فعندما عاد الى أمريكا ـ وهو لا يزال منتحلا الشخصية السويسرية ـ كان يحمل نسخة من شفرة بحرية جديدة ، للملحق البحرى الألمانى فى واشنطن ٠٠ وكان هذا

الملحق هو الذى أفسد على فون رينتلن نشاطه ، اذ كان الانجليز قد دسوا على الملحق امرأة عملت كسكرتيرة له حتى حصلت على مفتاح الشفرة · وحدث ان أبرق الملحق برسالة لاسلكية ، كتبها بغباء ، عن تفصيلات خطة وضعها فون رينتلن للعودة الى ألمانيا للتشاور فى مشروعات جديدة · واذا البحرية البريطانية تلتقط الرسالة وتحل رموزها ·· وعندما سافر فون رينتلن ، اعترضت سفينة حربية بريطانية طريق السفينة التى كان يستقلها واعتقلته !

وعندما دخلت أمريكا الحرب ، طالبت انجلترا بتسليمها فون رينتلن ·· لا كأسير حرب ، وانما كمجرم عادى · ووافق الانجليز على هذا الطلب الغريب ، فحوكم « المخرب » البارع فى أمريكا ، وقضى عليه بالسجن أربع سنوات ! ·· وكنت اذا رغبت فى اغاظته – بعد ذلك – ذكرت أمامه اسم الملحق البحرى الألمانى الذى تسبب غباؤه فى الزج به فى السجن ·· ومن عجب ان الشهرة كانت ترتقب هذا الملحق ، فانه لم يكن سوى ·· **فون بابن !**

وخليق بمن يدرس تاريخ الجاسوسية ان يدرس حياة فون بابن نفسه ، كنموذج من نماذج الجواسيس ·· فقد كانت أول مهمة كلف بها هى تنظيم ألوف من جنود الاحتياطى الألمان – الذين كانوا فى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الأولى – للقيام بأعمال التخريب ، ولكنه منى فى هذه المهمة بفشل شنيع ، وكاد أمره يفتضح

ثم ارتكب خطأ أسوأ وأخطر ·· فقد حدث ان كان عائدا من ألمانيا الى مقر عمله فى أمريكا ، فى سنة ١٩١٧ ، مطمئنا الى أن جواز سفره الديبلوماسى خير وقاء له ، اذا مرت باخرته بالموانىء البريطانية ·· والواقع ان الانجليز لم يمسوه بسوء ، بالفعل ، ولكنهم أصروا على تفتيش حقائبه عندما أنزلت الى

البر فى ميناء (فالماوث) .. فان الحصانة الدبلوماسية لم تكن تمتد الى حقائبه ، اذ ذاك . وشد ما كانت دهشة القائمين بمقاومة التجسس فى انجلترا ، حين عثروا فى تلك الحقائب على مفتاح للشفرة الألمانية ، وعلى مئات الملفات الخاصة بالجاسوسية الألمانية فى أمريكا .. واستطاع الامريكيون - بمعونة الانجليز - أن يوقعوا بالعدو الكامن بينهم ضربة قاصمة !

ولعل خير تعليق على فون بابن ، هو ذاك الذى قيل بعد ذلك بعام ، وكان قد عين ملحقا ألمانيا مرافقا للجيوش العثمانية فى فلسطين . فقد قدر له أن ينجو من الأسر ، عندما تقدمت قوات الانجليز بقيادة « اللنبى » ، ولكن أوراقه وقعت فى أيدى الأعداء ، فكانت عظيمة النفع لهم ، اذ كان قد سجل كل حركة وكل خطة في مذكراته .. وعندما نمى هذا الأمر الى السلطات البريطانية فى لندن ، أرسلت وزارة الحربية برقية قالت فيها : « اذا أسرتم فون بابن فلا ترسلوه الى معتقل ، وانما ارسلوه الى مستشفى للأمراض العقلية ! »

الفصل الحادى عشر

الشرق الأوسط .. مستودع الجواسيس !

• **لطالما** اعتبر الشرق الأوسط منطقة فريدة فى نوعها تجمع منها الدول الجواسيس المرتزقة والمأجورين ، بحيث كانت بلاد هذه المنطقة تمثل على الدوام تمثيلا عادلا فى « عصابات » الجاسوسية الدولية ، التى تفوق فى الحقيقة أغرب ما تفتق عنه خيال الروائيين . وقد اشتهر اليونانيون والأرمن منذ زمن طويل بالتفوق فى هذا المضمار الدولى ، وبقدرتهم على التنقل بحرية تامة فى مجتمعات مختلف الدول !

فمن بين جواسيس ألمانيا الذين سببوا الكثير من المتاعب لقسم مكافحة الجاسوسية فى فرنسا ، جاسوس يدعى « قسطنطين كودويانيس » ، كان كثير التنقل ، وكانت له صلة بتلك المرأة ذات الشخصية الشبيهة بشخصيات الأساطير ، وهى التى كانت تعرف باسم « السيدة الطبيبة » !

٠٠ وكان « كودويانيس » يونانيا بحكم مولده ، عالما باللغات من الطراز الأول ، وكان الى جانب ذلك مجردا من الضمير ! وقد عمل يوما كضابط فى جيش بلاده ، ثم استغنت اليونان عن خدماته ، وكان هذا الاستغناء قرارا وطنيا حكيما !٠٠ وعندئذ دبر له سادته الجدد ـ أى الألمان ـ أن يتستر وراء حرفته المدنية الأخيرة ، وهى الاتجار فى المخدرات ٠ وكان من الطبيعى أن يعرضه ذلك لخطر السجن ، لو ضبط ، لكن عقوبات المخدرات كانت فى ذلك الحين أخف بكثير من عقوبات الجاسوسية !

على انه اضطر مع ذلك لتغيير هذا « الستار » مرتين ، وفى فرصتين متقاربتين : فاتخذ فى المرة الأولى شخصية تاجر فاكهة ، حتى تذكر سادته ان الحصول على الفاكهة وتصديرها فى زمن الحرب أمر عسير ، فقرروا أن يجعلوه صحفيا ، سيما وقد كانت له مواهب طبيعية تؤهله لهذه المهنة ٠ وعلى هامش الرسائل التى كان « كودويانيس » يتلقاها من رؤسائه الألمان كانوا يكتبون له التعليمات بحبر سرى ، فكان اذا تسلمها وضع عليها سائلا خاصا ثم قربها من لهب النار ، وعندئذ كانت سطورها تبدو له بوضوح !

ورغم نجاحه الباهر فى الجاسوسية ، فقد كانت له نقطة ضعف شديدة ، هى حدة عواطفه ـ شأن سائر اليونانيين ـ وتعلقه الزائد بارضاء شهواته ٠ **وكانت تعليمات رؤسائه اليه فى هذا الشأن تطالبه بأن يقتصر فى علاقاته الجنسية على دور**

الدعارة الرسمية ، خارج مناطق الحرب • ورغم ان (باريس) كانت تتيح له هذه الفرصة ، فانه كان ينفر بطبعه من نساء الهوى المحترفات •• فلم يلبث أن وجد نفسه مسوقا الى أن يتخذ لنفسه خليلة !

وكانت الفتاة جذابة للغاية ، تبدى له الحب والوله • وبحكم احترافها التمثيل أجادت تمثيل دورها الى حد أبعد عنها الشبهات ، فلم يجل بخاطره لحظة انها تنتمي الى فرقة مقاومة الجاسوسية التابعة لقوات الحلفاء !•• على أن براعته وذكاءه فوتا على الجاسوسة الحسناء كل فرصة لاقتناص أية معلومات منه ، فعاشت معه عدة أشهر دون ان تتوصل الى أى دليل ضده !

السقطة التي اكتشفتها خليلته •• أودت به !

• وفي الوقت الذي كاد الحلفاء يفصلون فيه الفتاة من عملها في خدمتهم ، لفشلها ، لاحظت أمرا تافها لفت نظرها : **فقد عادت الى مسكنهما ذات يوم مبكرة عن موعدها ، فوجدته يغسل جواربه بنفسه ـ ولم يكن منطقيا ان يفعل رجل ذلك وفي البيت امرأة ! ـ كما لاحظت ان الجوارب ليست قذرة ، وانه يغسلها برفق ، دون أن يضغط عليها كثيرا ، فأدركت ان وراء ذلك لغزا خفيا** •• وكانت تعلم ان الجواسيس اذا أرادوا



الاحتفاظ بكمية من الحبر السرى فى حوزتهم ، فانهم لايحملونه فى زجاجة ، وانما يغمسون فيه جوربا أو منديلا ثم يتركونه يجف ، حتى اذا احتاجوا الى استعماله يوما غسلوا الجورب بماء ساخن يذيب الحبر اللاصق به ، فيمكن استعماله فى الكتابة !٠٠ وكان ذلك الحادث العرضى هو المفتاح الذى أدى الى ضياع « كودويانيس » ، فقد عمدت مخابرات الحلفاء على اثر ذلك الى تكليف الفتاة باستنزاف ماله عن طريق الاكثار من النفقات ، حتى اذا تورط فى الديون خرج عن تحفظه وأكثر من الاضطلاع بمهام التجسس ، فيكشف أمره !

وقد كان ٠ استطاعت خليلته ان تقرأ رسالة وردت اليه كلف فيها بالاشتراك ـ كصحفى ـ فى تشييع جنازة أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، كى يسلم أثناء ذلك ورقة الى رجل يضع على رأسه قبعة عالية ٠ فلما أبلغت الفتاة هذا النبأ الى رؤسائها وجد الرجل حوله فى الجنازة ثلاثة رجال يضع كل منهم على رأسه قبعة عالية ! فأدرك أن أمره قد اكتشف ، وانتابه اليأس ٠ واذ ذاك حاول التخلص من الورقة التى تحمل دليل التجسس ، بالقائها فى القبر المفتوح ، لكن أحد المخبرين التقطها ٠٠ فاعتقل « كودويانيس » ، وحكم عليه بالاعدام !

على أن قلم المخابرات الفرنسى كان يبغى الحصول على أسماء شركائه ، فلجأ الى أساليب وحشية تتنافى مع القناع الذى كانت فرنسا تظهر به أمام العالم ٠ جاءوه بطعام مملح يثير العطش ، ثم أتوا بماء ونبيذ ، وقبل ان يطفىء ظمأه أخذوهما من على مائدته وهو يتلمظ بشفتيه شوقا الى الماء !٠٠ وبعد أن احتمل الرجل هذا الظمأ القاتل يومين ، خارت قواه فتكلم٠
ولكن عقله كان قد شرد واضطرب الى حد أفقد اعترافاته قيمتها ٠٠ وعبثا حاولوا انعاش ذاكرته وذهنه بالكوكايين ،

فان الأوان كان قد فات ٠٠ وهكذا أعدم الرجل ، ودفن معه سر شركائه ، الى الأبد !

مغامرات « لورنس بلاد العرب » ، وغريمه الألمانى !

• **والى جانب** الجاسوسية الدولية المنظمة ، شهد الشرق الأوسط بعض المغامرات الأوربية « الفردية » ، التى كان أبرز أمثلتها الجاسوس البريطانى « لورنس » ، صاحب المغامرات المشهورة فى البلاد العربية ٠٠ فقد أدرك انه لا بد للحملة العسكرية المقبلة ـ وقتئذ ـ من أعمال المخابرات الدقيقة ، فدخل البلاد التى كان الأتراك يحتلونها وقدر الحالة « التكتيكية » العامة بنفسه ، فكان يزور القلاع التركية ويفحصها بحجة انه عالم فى الآثار !

أما غريمه ـ فى المعسكر الألمانى ـ فكانت حياته أعجب ، وأقرب الى « المسرحيات » من حياة لورنس ٠ ولم يكن هذا الغريم غير الكابتن « واسموس » ٠ والفرق بين الاثنين ان لورنس كان مأجورا مزودا بمعونة القوات البريطانية ، أما « واسموس » فكان يعمل بمفرده ، بدافع الغيرة على وطنه ، وقد أثر تأثيرا كبيرا فى الرأى العام الايرانى خلال الحرب العالمية الأولى ، اذ حد من نشاط الحلفاء هناك الى درجة كبيرة ٠٠ واليك قصته : عندما نشبت الحرب عام ١٩١٤ ، كان «واسموس» يعمل قنصلا لألمانيا فى (بوشير) بايران ٠ وكان يتكلم اللغة الايرانية ، بلهجاتها المختلفة ، فى طلاقة واجادة ، كما كانت له صلة بكثير من القبائل ٠٠ فلما نزل الجنود البريطانيون هناك ، متعللين بالدعوى الاستعمارية المألوفة ، وهى « حماية منابع الزيت» ، أعلن الرجل عليهم حربا شعواء ، وان كانت «فردية» ٠ لم يكن فى استطاعته ان يحاربهم علانية ، فصار يجمع رجال القبائل لمناوشتهم ٠٠ ثم تمكن من الفرار من المدينة وفى جعبته سلاح قوى هو المال ، (وقدره ١٤٠ ألف مارك من الذهب !)

واشتغل ذهبه فى تأليب رجال القبائل ضد الانجليز ، وتنظيم شبكة للتجسس عليهم . ثم تزوج من ابنة زعيم فارسى كبير ، وأولم وليمة فاخرة دعا اليها مئات من ذوى النفوذ ، علاوة على كثيرين من الرعاة والفلاحين، وعمال الزيت والموانىء .. **وألقى فيهم خطبة عن القضية الألمانية ، وعن دسائس الانجليز وجشعهم الاستعمارى ، فلم تنته الوليمة حتى كان قد استمال اليه نصف الحاضرين !**

وأفادت خطته ، فتدفقت عليه الأنباء من كل مكان ، ولكنه كان يضطر الى مراجعة كل نبأ يأتونه به ، لأن الكثيرين كانوا مصابين بخصوبة الخيال ، طمعا فى المال ، فكانوا يختلقون بعض الأنباء اختلاقا ! .. وكانت تدابير الانجليز الحربية هناك بدائية فجة ، **فاستطاع واسموس ان يحصل من عمال الموانىء والصيادين على تفصيلات كاملة عن تحركات القوات البريطانية، فكان يرسلها أولا بأول الى الجيش العثمانى ـ حليف ألمانيا عندئذ ـ فى مقر قيادته بشمال العراق** . وقد اعترف القائد الألمانى للمنطقة بأن أنباء « واسموس » أثرت فى سير تلك الحملة الطويلة ، ولا سيما فى المعارك التى أدت الى سقوط (كوت) ـ أو « قوت العمارة » ـ وكان سقوطها من أكبر الكوارث التى أصابت بريطانيا فى الشرق الأوسط !

حيل الجواسيس حين تنضب أموالهم !

◆ **على** ان الحظ لم يكن يواتيه دائما ، فقد حاول ان يعمل على غزو « أفغانستان » ، ولكن أمواله كانت قد بدأت تنضب .. وبلغ من تفننه فى تهريب الأسلحة الى القبائل فى زوارق الصيد ان اضطر الانجليز الى تخصيص داورية دائمة من أربع سفن حربية لضبط تلك الزوارق ، ولكن دون جدوى ! .. وفى النهاية أعلنوا عن مكافأة ضخمة قدرها ١٤ ألف جنيه لمن يأتيهم بالرجل ، حيا أو ميتا !

وعندما تحول تيار الحرب ضد الألمان أهاج هذا الفشل ثائرة « واسموس » ، فبذل جهدا جبارا للمحافظة على ثقة الايرانيين فى انتصار ألمانيا ٠ **وكان أجرأ ما فعله أن أصدر بلاغا زعم فيه ان الألمان غزوا انجلترا ، وان امبراطورهم « غليوم » سار بعربته ظافرا فى شوارع لندن ٠٠ وان ملك الانجليز « جورج الخامس » أعدم علانية !**

ورغم الصعوبات التى كان يتعرض لها ، والتى كانت تزداد كلما نقصت موارده المالية ، فانه لم يفقد أعصابه قط ! ٠٠ ومن أطرف أمثلة سعة حيلته ما فعله حين أحاطت به جمهرة من الدائنين ذات يوم ، فادعى انه أقام محطة لاسلكية للاتصال بحكومته كى ترسل اليه المال اللازم ، **وكان كل ما فعله لايهامهم بذلك انه أقام عمودا وضع فيه بعض الأسلاك وجزءا من جهاز (جراموفون) قديم ، ثم زعم لهم انه بعث برسالة الى الخليفة العثمانى فى (استانبول) ، شاكيا اليه مسلك رعاياه المؤمنين الفارسيين نحوه ، وأضاف ان الخليفة أجاب بأنه يحثهم على ان يحسنوا معاملة الضيف الألمانى ! ٠٠** (وقد فعل « لورنس » شيئا من هذا القبيل يوما ، فقد نفد ماله فملأ صندوقا بالأحجار وادعى للدائنين انه مملوء ذهبا ، ولكى يجيد « سبك » الحيلة جعل الجنود يحملون الصندوق تحت حراسة مشددة ! ومن فرط ثقل الصندوق جازت الحيلة على أصحاب الديون فصبروا على لورنس حتى جاءه الذهب الحقيقى !)

ورغم ما فعله « واسموس » بالحلفاء فان خصومه كانوا يقدرونه ٠ وكان الكتاب والمؤرخون يسمونه « لورنس الألمانى » ٠ **لكنه فى الواقع كان يفوق غريمه الانجليزى فى التخريب والتجسس ، حتى لقد سيطر بمفرده على منطقة واسعة زمنا طويلا ٠ وكانت خرائط المخابرات البريطانية تشير الى (ايران) بعلامة حمراء كتب عليها اسم خصمهم اللدود « واسموس » !**

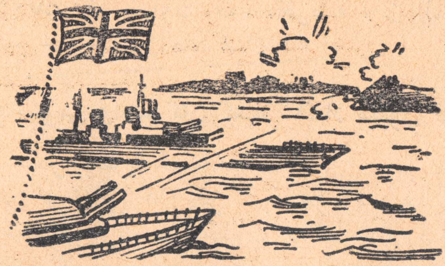
الفصل الثانى عشر

غباء جاسوس بريطانى ، يكلف بلاده غاليا !

● **اشتهر** الفرنسيون والانجليز فى حروبهم بارتكاب أخطاء مروعة أدت الى سفك دماء كثيرة بغير ضرورة ، وان كان بعض هذه الأخطاء مضحكا يبعث على السخرية ٠٠ من ذلك على سبيل المثال ان ضابط مخابرات بريطانى بعث بتقرير هام الى حكومته سنة ١٨٩٠ يقول فيه انه سمع بعض كبار الضباط الفرنسيين يتحدثون عن نوع جديد من الرصاص مغطى بالجلد ! ٠٠ وكان النبأ غريبا ، فبذلت وزارة الحربية البريطانية جهدا كبيرا ، وأنفقت أموالا طائلة ، لاكتشاف حقيقة هذا الاختراع الغريب ٠ **وأخيرا تبين أن الضابط الانجليزى ارتكب خطأ سببه قلة درايته باللغة الفرنسية : فقد قال الفرنسيون ان الرصاصة ستكون مغطاة بقشرة من النحاس (CUIVRE) ، فظنهم يقولون انها مغطاة بالجلد (CUIR) ، والفرق فى النطق بين الكلمتين بسيط !**

أما اداة الحرب الفرنسية ، فلها أخطاء كثيرة مضحكة ــ الى درجة « محزنة » ! ــ فقد حدث قبل ان تنشب الحرب العالمية الأولى ان وقفت المخابرات الفرنسية على ما كان يسمى « خطة شليفن » ، وهى خطة وضعها القواد الألمان لمهاجمة فرنسا واكتساحها ٠٠ ولكن غباء القيادة الفرنسية وغرورها ومغالاتها فى الاعتماد على ما كانوا يدعون انه « تفوق أسلحة الجيش الفرنسى وروحه الهجومية » ، كل هذا جعل القيادة الفرنسية تتواكل فلا تضع خطة مضادة للخطة الألمانية التى اكتشفها جواسيسهم ! ٠٠ وقد أصيب الفرنسيون من جراء ذلك بهزائم وخسائر فادحة فى القتلى والجرحى ، لم يفيقوا منها طول مدة الحرب !

ولم يكن سجل البريطانيين فى مكافحة الجاسوسية أفضل من سجل الفرنسيين ! ٠٠ فقد حدث فى فبراير ١٩١٥ ان بدأ الأسطول البريطانى الفرنسى فى ضرب القلاع التى تحمى مضيق الدردنيل ٠ وكان الضرب شديدا الى درجة قطع معها القائد



المحلى كل أمل فى الدفاع عن المضايق، وساد الدولة العثمانية فى استانبول شىء من الفزع ٠٠ واستعدت حكومة الباشوات للفرار السريع ، فقد كان منتظرا ان يصل أسطول الحلفاء الى المدينة بعد أيام ، ومعنى هذا اجبار تركيا على الانسحاب من الحرب والتخلى عن حليفتها ألمانيا ! ٠٠ **ولكن ، لشد ما كانت دهشة القائد التركى حين رأى أسطول الحلفاء يبدأ فى الانسحاب! ٠٠ وقد تبين بعد ذلك ان قائد ذلك الاسطول كان فى فزع وحالة عصبية سيئة ، اذ كان يخشى ان يفقد سفنه بتأثير الالغام العائمة ٠٠ فى حين انه لو كان شجاعا وغامر قليلا لأخرج تركيا من الحرب ! ولو كانت للحلفاء مخابرات صالحة ، وكان لهم جاسوس واحد فى الدردنيل ، لأبلغهم بحالة الفزع التى كانت تسود السلطات ، وبما أصاب الحصون التركية من تحطيم ٠٠ ولأنقذ بذلك أرواح مليون نفس من الموت فى السنوات التى تلت تلك المعركة !** ٠٠ بل كان محتملا أن يحدث ما هو أكثر من ذلك ، فلو خرجت تركيا من الحرب لوفر الحلفاء على

أنفسهم مشقة ونفقات حملات فلسطين وشمال العراق ، ولوفروا حياة الذين قتلوا فى هذه الحملات ٠٠ أو لاستخدموهم على الأقل فى مهاجمة ألمانيا وحلفائها من الأراضى التركية ، أى من الباب الخلفى ٠٠ ولانتهت الحرب قبل نهايتها الفعلية بسنة كاملة . ومع كل ذلك فقد ضاعت هذه الفرصة لأن القيادة لم تعرف كيف تضع جاسوسا واحدا هناك !

جاسوس واحد كان كفيلا بانقاذ مليون نسمة !

◆ **واستمر** فشل الحلفاء بعد ذلك ! ٠٠ حدث بعد أشهر أن نزل جيش بريطانى كبير فى شبه جزيرة (غاليبولى) ، وهى موقع « ستراتيجى » فى جنوب تركيا الأوربية يستطيع من يسيطر عليه ان يسد المضايق ! ولم تكن القيادة البريطانية التى أنزلت هذا الجيش تعرف ان الأتراك عززوا استحكاماتهم هناك ، فدفعوا ثمن جهلهم هذا غاليا — لا لشىء الا لعجز قلم مخابراتهم ! — وان كان الضرر الذى أصاب بريطانيا من جراء ذلك جاء أقل بكثير من الضرر الذى أصاب حلفاءها ، ولا سيما روسيا القيصرية ٠٠ **ذلك ان الهدف الرئيسى من الهجوم الجرىء على الدردنيل ، وما حدث بعد ذلك من نزول فى (غاليبولى) ، انما كان فتح المضايق فى وجه روسيا . ولو واصل ذلك الاسطول مهمته لتلقت روسيا الامدادات التى كانت فى حاجة شديدة اليها ، فان ذخيرتها كانت قد قلت الى درجة حولت كل معركة الى « مجزرة » تزهق فيها أرواح الروس بغير حساب ، بسبب قلة ذخيرتهم . وتقدر الأرواح التى أزهقت نتيجة لذلك بمليون نسمة ، ان لم يكن أكثر ! ٠٠ بل يمكن القول ان تلك الكارثة كانت من العوامل الرئيسية التى عجلت بنشوب الثورة الشيوعية ، فان الروس لم يثوروا على القيصر فى أول الأمر بسبب استيائهم من الحالة الاجتماعية ، بل بسبب نفور الرأى**

العام منه لما أظهرته الأسرة وقوادها من عجز نتجت عنه تلك الخسائر الفادحة .وقد أدى ذلك كله الى سأم الشعب من الحرب، فتحول السأم الى ثورة !

لغز اغتيال ولى عهد النمسا !

◆ **كذلك** يمكن القول ، من جهة أخرى ، ان اهمال قلم المخابرات النمسوية فى الوقوف على مؤامرة اغتيال ولى عهد الامبراطورية فى (سراجيفو) ، قبل وقوع الجريمة ، كان هو السبب المباشر فى نشوب الحرب العالمية الأولى .. فلقد وقع حكام امبراطورية النمسا والمجر تحت تأثير رجال حاشيتهم ، الذين زينوا لهم ان الحرب واقعة لا محالة ، فعجزوا عن ضبط أعصابهم حين وقع ذلك الاغتيال ، وعجلوا بنشوب الحرب ـ رغم انه كانت فى النمسا يومئذ عناصر مسالمة تنفر من فكرة الحرب ، كما كانت فى كل من ألمانيا وروسيا عناصر مماثلة تتمسك بالسلام ..

ولنستعرض الآن المقدمات الخفية التى أدت الى وقوع ذلك الحادث : **كانت النمسا قد استولت على منطقة (البوسنة) ، كنصيبها من الامبراطورية العثمانية التى أخذت تنهار وتتفكك. لكن سكان هذه الولاية كانوا من أصل صربى (أى سلافى) ، فكانوا يطمحون الى الاتحاد مع واحدة من الدويلات الصغيرة الأخرى المنحدرة من الجنس السلافى ، وهى الصرب المجاورة لها ، فأحنقهم ان يتخلصوا من نير الامبراطورية العثمانية ليقعوا تحت نير الامبراطورية النمسوية !** .. وكانت الجمعيات السرية شيئا مألوفا فى البلقان فى ذلك الوقت ، اذ كانت بمثابة « التركة » التى خلفها الخضوع طوال مئات من السنين لحكم عثمانى فاسد ، وكانت من هذه الجمعيات جمعية « نارودنا اودبرانا » ، التى عرفت فى الخارج باسم اليد السوداء (راجع العدد رقم (٥٦) من «كتابى») . وهكذا بينما كان السياسيون

منصرفين الى الغاء الخطب الحماسية ، كان عزم هذه الجمعيـــة منصرفا الى العمل ! ٠٠ فلما جرت مناورات الجيش النمسوى فى (البوسنة) خلال شهر يونيو عام ١٩١٤ ، شهدها الأرشيدوق النمسوى ـ ولى العهد ـ فبدا لتلك الجمعية ان الفرصة سانحة للانتقام ، وللرد على هذه المناورات ٠ وقد ساعد غباء النمسويين فى ذلك الحين على تنفيذ المؤامرة ، فقتل الارشيدوق ٠٠ بينما كان من السهل على جواسيس النمسويين أن يحبطوا المؤامرة ، لو تسللوا الى صفوف تلك الجمعية السرية التى كانت معروفة وملحوظة النشاط يومئذ ، سيما وانهم كانوا يتوقعون نشوب الحرب بينهم وبين الصرب قبل ذلك بزمن طويل ، بل وكانت لهم منظمة كبيرة للتجسس فى هذه الدولة ٠٠ وأكثر من ذلك ، ان تلك المؤامرة التى ذهب ولى عهد النمسا ضحيتها ـ وغيرها من المؤامرات الأخرى ـ كانت موضع ثرثرة الناس فى المقاهى العامة !

على ان هناك فريقا من الناس يعتقدون ان الجواسيس أبلغوا النمســا فعلا بهذه المؤامرة ، وان الارشيدوق لم يكن محبوبا بسبب آرائه المتحررة، كما انه كان على خلاف مع عمه الامبراطور بسبب زواجه ٠٠فسمح له الحكام الذين يعرفون المؤامرة بزيارة (سيراجيفو) فى يوم حداد الصرب على بقاء ولاية منها تحت حكم النمسا ٠٠ وفى الوقت نفسه لم يزودوه بحراسة قوية من رجال البوليس ! واذا صح هـذا الظن فان ثمن جنـونهم كان أضخم من ان يحسب له حســاب ، فقد أدت هذه الجريمة الى نشوب الحرب العالمية الأولى ، التى مات وجرح فيها الملايين ، بل ونجم عنها انهيار الامبراطورية النمسوية ذاتها ، وفصل المجر عنها ، وضم أجزاء أخرى منها الى كل من الصرب والسلوفاك ، لتكوين دولتى يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ٠٠الى آخر سلسلة التطورات التى جعلت من النمسا دولة صغيرة منذ ذلك التاريخ ٠٠ الى اليوم !

ضربة معلم .. أفنت نصف مليون ايطالى !

• **ومما** يؤيد شبهة البعض فى ان يكون قلم المخـــابرات النمسوى قد وقف على تفصيلات تلك المؤامرة قبل وقوعها ، ان ذلك الجهاز من أجهزة الجاسوسية كان متصفا بالكفاية الفعالة ، الى حد انه حقق فى أثناء الحرب ما يعتبر بمثابة « ضربة معلم » فى تاريخ الجاسوسية الحديثة .. واليك تفصيل ذلك :

دخل الايطاليـــون الحرب عام ١٩١٥ ، وقاموا بسلسـلة من الهجمات دلت على بسالة عظيمة ، اذ رغم ان قيـــادتهم كانت ضعيفة فانهم قتلوا مئات الالوف من النمسويين عبر منطقة الالب ! .. **والايطالى محارب جيد ، ولكن لفترة قصيرة فقط . ولهذا ما كاد خريف ١٩١٧ يحل حتى تلاشى الحماس للقتال من نفوس الجنـــود الايطاليين .. ورغم ان النمســويين كانوا يشاركونهم هذا « الانهيار المعنوى » ، فقد رأى القواد الألمان - المشرفون على الجيوش النمسوية - ان الفرصة باتت سانحة للهجوم على ايطاليا ، وضرب عصفورين بحجر : تحطيم الجبهة الايطالية من ناحية ، ورفع الروح المعنوية عند النمسويين من الناحية الأخرى !**

فى ذلك الوقت كانت ادارة المخابرات السرية النمسوية تحت ادارة الجنرال « رونج » - الذى تحدثنا عنه من قبل فى قضية ريدل - وكان حينذاك برتبة « كابتن » فقط . وكان رجال المخابرات النمسويون قد وضعوا تقريرا دقيقا جدا دللوا فيه على ضعف القوة المعنوية لدى الايطاليين، وحددوا أكثر الوحدات والمناطق ضعفا ، وذكروا ان حوادث اضراب وشغب قد وقعت فى المدن الصناعيـــة مثل (تورينو) و (ميلانو) . وكانت التقـارير دقيقة فشملت أسماء وعناوين الذين قتـــلوا فى الاضطرابات !

استغل « رونج » هذه المعلومات بمهارة فائقة ، فزور آلاف

النسخ من الصحف الايطالية المعروفة ، ذاكرا فيها التفاصيل الواقعية عن الموقف ، وأضاف اليها مقالات يستنكر فيها الاعمال الخبيثة الدموية التى تقوم بها السلطات ·· بحيث بات يفهم من هذه المقالات ان ايطاليا تعيش فى فوضى ! ·· ثم هربت هذه الصحف الى الوحدات الايطالية المعسكرة فى المنطقة التى اختارها النمسويون للهجوم ·· فقرأ الجنود الايطاليون هناك ان عائلاتهم تموت جوعا ! وان رجال البوليس المسلح لا ينقطعون عن مهاجمتها ·· الخ ·· وقبل ان تثبت هيئة أركان الحرب الايطالية للجنود ان تلك الصحف مزورة ، كانت الضربة النمسوية قد وقعت !

والعجيب انه مقابل هذه البراعة من قلم الجاسوسية النمسوى ، أبدى قلم الجاسوسية الايطالى منتهى الاهمال والغفلة ، ولو انه من الصعب تصور ان هذا الأخير لم يعلم بأمر الهجوم الألمانى النمسوى قبل وقوعه ، فقد كانت التحركات العسكرية التى سبقته ضخمة واسعة النطاق بحيث لا يعقل انها خفيت عن علم القواد الايطاليين · والتفسير المقبول هو ان هؤلاء كانوا من الصلف والغرور بحيث لم يقدروا الخطر المنتظر حق قدره ! ·· تؤيد هذه النظرية عدة قرائن ترجح سبق علمهم بذلك الهجوم مقدما : من هذه القرائن ان بعض جواسيس الأمريكيين فى سويسرا أنذروا ايطاليا بنبأ الهجوم المرتقب ·· كما أيد النبأ جنود من أصل تشيكى أو كرواتى فروا من الخدمة العسكرية فى قوات النمسا ·· ومن ناحية ثالثة التقطت داورية فى اقليم (الفلاندر) الفرنسى بطاقة بريد مرسلة من جندى ألمانى ، وعليها منظر من احدى مدن الألب النمسوية المجاورة لحدود ايطاليا ، وكان ذلك دليلا على احتشاد القوات الألمانية فى جنوب النمسا ، استعدادا للهجوم على ايطاليا !

ومع كل هذه القرائن ، فقد أصم قواد ايطاليا آذانهم عن كل

تحذير ، وشغلوا أنفسهم باعداد خطة هجوم من جانبهم هم ٠٠ فلما هبت العاصفة الساحقة على جنودهم الذين كانت روحهم المعنوية قد ضعفت ـ كما سبق البيان ـ انهارت جبهتهم بسرعة مذهلة ، فخسروا فى أسبوع واحد أكثر من ستمائة ألف جندى !

واضطر الحلفاء الى ارسال ما لديهم من احتياطى الى ايطاليا ، لنجدة القوات المنهزمة ٠٠ فى الوقت الذى كان الألمان فيه ينقلون عشرات الفرق من جبهة روسيا الى الميدان الغربى — الذى ضعفت فيه جبهة الحلفاء — فلم يحل يوم ٢١ مارس (عام ١٩١٨) حتى شنوا عليهم هجومهم الكبير ، الذى أصاب الحلفاء بكارثة أخرى فادحة !

الفصل الثالث عشر

جواسيس لليابان ، من حاشية قيصر روسيا !

◆ **على** ان الجائزة الأولى فى عجز رجال المخابرات وعدم كفايتهم يجب أن تمنح لروسيا القيصرية ، لا لايطاليا ٠ وقد يكون تفسير ذلك ان التجسس الداخلى كان يشغل النصيب الأكبر من نشاط قلم مخابراتهم ، حتى انهم غالبا ما كانوا يفشلون أو يضعفون عندما يعملون خارج الحدود ! بل ان جواسيس بوليسهم كانوا يفشلون فى الداخل أيضا ٠٠ وقد حدث فى الحرب الروسية اليابانية ان كان اليابانيون يستأجرون خونة من الروس كانوا تابعين لقيادة القيصر نفسه !٠٠ ومن هذا نستطيع ان نفهم أسباب انتصار اليابانيين فى تلك الحرب بسهولة !

وقد أظهر الروس أكثر من مرة ضعفا فى هذا الميدان أصابهم بأضرار جسيمة ، فكانوا اذا أرادوا معلومات عن بلد أجنبى لجأوا الى أصدقائهم الرسميين فى تلك الدولة ٠ فكان

هؤلاء يبلغون روسيا ما تحب ان تسمعه ، وليس ما يجب ان تعرفه !

حدث في عام ١٩٣٩ أن أقنع زعماء الحزب الشيوعى الفنلندى روسيا ان الشعب سيرحب بقواتها مفتوح الذراعين ، وانه سيطيح بالحكومة الفاشية المتولية زمام الأمور فورا بمجرد دخول القوات الروسية !٠٠ وعلى هذا الأساس تقدمت حامية



(ليننجراد) نحو حدود فنلندا وكأنها ذاهبة الى نزهة ٠ وكم كانت المفاجأة بل الصدمة حين استقبلها الفنلنديون بأشنع هزيمة حربية ! ولم تستطع روسيا سحق الفنلنديين الا بعد ان أعدت لهذا الغرض حملة عسكرية كاملة !

لغز معاهدة عدم الاعتداء بين ستالين وهتلر !

◆ وفى السنوات التى مضت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت سحابة من الريب والشكوك تحيط بالعلاقات بين روسيا والديموقراطيات الغربية ٠ لذلك لم يدهش الذين يعرفون سياسة الحكومة السوفييتية فى ذلك الحين حين سمعوا ان روسيا وألمانيا النازية قد وقعتا ميثاق عدم اعتداء فى أغسطس ١٩٣٩ ٠٠ ولو ان فريقا آخر اعتبر الأمر لغزا عسير التفسير ، **فلقد كان واضحا انه اذا هزمت ألمانيا النازية جميع الدول الغربية فانها ستتحول بعد ذلك الى روسيا ٠ ومع ذلك**

فان الحكومة السوفييتية ظلت تعلن « زمالتها الروحية » للرايخ النازى !٠٠ وكانت تبعث الى هتلر بتهنئات دورية وهو يتغلب على مقاومة دولة صغيرة بعد أخرى !٠٠ بل حدث ما هو أعجب من ذلك ، فان روسيا تمسكت باخلاص بالجانب الاقتصادي من اتفاقيتها مع الألمان ، وظلت ترسل كميات كبيرة من المواد الحربية الى ألمانيا ، الى أن نشبت الحرب بينهما !٠٠ بل لقد كانت الدولتان تشتركان معا فى احضار أثقال من المطاط من الشرق الأقصى ، بقطارات سريعة خاصة !

على انه كان واضحا مع ذلك ، قبل الهجوم الألمانى بعدة شهور ، انه واقع لا محالة ٠ وقد أمر هتلر بذلك الهجوم فى ديسمبر ١٩٤٠ ، عندما طلب مولوتوف عقد اتفاق جديد يعطى روسيا نصيبا أكبر مما يجب من « غنائم الحرب » ، أى من الدول الصغيرة التى كانت الدولتان الكبيرتان تقتسمانها !٠٠

والواقع ان رحلة « هيس » الى بريطانيا كانت دليلا ماديا على قرب وقوع ذلك الهجوم : فقد حاول اقناع بريطانيا - أو تخويفها - كى تعقد الصلح مع ألمانيا وتخرج من الحرب ٠ وكان واضحا انه أراد ذلك ليحمى مؤخرة ألمانيا ، حتى تتفرغ لمهاجمة روسيا !

بل لقد حدث قبل ذلك ان عرفت مخابرات الغرب أن القوات الألمانية ترسل فى حشود كبيرة صوب الحدود الشرقية ٠ وكان واضحا أيضا ان الغرض من حملات الألمان العسكرية فى البلقان هو حماية جناحهم ٠ وظهرت علامات أخرى تنبىء بقرب غزو روسيا : منها سحب الوحدات الألمانية المدرعة من الميادين الأخرى ، وانشاء مطارات جديدة فى بولندا ، وغير ذلك ٠٠ وقد أخطر الغرب روسيا بذلك أكثر من مرة ٠ ولكن الروس كانوا يتجاهلون هذه التحذيرات ، ويعتبرونها مجرد حيل من دول الغرب للقضاء على روح الاتفاق الروسى الألمانى ! وكانت معلومات الامريكيين عن ذلك الاستعداد

الألمانى للهجوم أجدر بالاهتمام من سواها ، فقد كانوا محايدين الى ذلك الحين . وكانوا أحرارا - الى حد ما - فى التحرك والانتقال كما يريدون فى أنحاء أوربا .. فلما قدم الامريكيون هذه التحذيرات الى روسيا ، قال عنهم السوفييت انهم دعاة حرب

تشرشل يعلم بالهجوم الألمانى على روسيا قبل وقوعه بأيام !

• **وفى** أوائل شهر يونيو من ذلك العام ، كان الموقف قد أصبح واضحا جدا ، فان حشد ٢٥٠ فرقة على حدود دولة لا يمكن ان يظل سرا خافيا عن هذه الدولة ! ومع ذلك ظلت روسيا تقول انها صديقة برلين ، رغم ان الألمان كانوا قد طردوا ، ابتداء من شهر مارس ، ممثلى روسيا من المنطقة التى ستصبح ميدانا للحرب .. ولكن حتى هذه العلامة المشئومة تجاهلها الروس بدورها !.. وهكذا بات الموقف غريبا جدا ، فان الاتحاد السوفييتى تخلى عن كل شىء ليرضى شريكته ألمانيا .. حتى لقد اعترفت روسيا فجأة بحكومة « رشيد عالى الكيلانى » فى العراق ، وبفتوحات ألمانيا فى بلجيكا والنرويج واليونان ويوغوسلافيا

وقد دفعت روسيا ثمن هذا الخطأ المريع ، وكان ثمنا هائلا ! .. فعندما ضرب الألمان ضربتهم فى ٢٢ يونيو ١٩٤١ ، أخذت الجيوش الروسية على غرة .. فدمرت الطائرات الألمانية مئات من الطائرات السوفييتية وهى لا تزال على أرض المطارات . وأحاط الألمان بجيوش روسية كاملة ، قبل ان تعرف انها فى حالة حرب ! والى اللحظة الأخيرة السابقة على الهجوم كانت روسيا تحمل على بريطانيا وأمريكا .. وبعد ساعات قليلة كانت تطلب منهما العون والنجدة !

ومما هو جدير بالذكر ان تشرشل كان مطلعا على دقائق الموقف ، قبل الهجوم الألمانى بأيام ، حتى انه أعد - مقدما - خطابا

هاما عن الموقف الجديد الناشىء عن هذا الهجوم !

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن فى هذا المقام هو : هل عجز الجواسيس ورجال المخابرات الروس عن ملاحظة مثل هذا الاستعداد الألمانى الواسع النطاق ؟

اننا نعرف الآن ان المخابرات الروسية لم تفشل أو تعجز عن أداء مهمتها ، فقد لاحظت الحشود الألمانية فى الوقت المناسب ، وأبلغت أمرها الى (الكريملين) ٠٠ ولكن الزعماء السوفييت تلقوا رسائل سرية من بعض الشيوعيين الألمان تقول انه اذا حدث هجوم على أرض روسيا المقدسة فان الشعب الألمانى سيرفض الزحف !٠٠ وقد فضل الروس الايمان بهذه التقارير « العاطفية » على الاستماع الى تحذيرات مخابراتهم العسكرية ، ومخابرات البلاد الأخرى المعادية لألمانيا النازية !

وكانت غلطة من الغلطات البارزة فى تاريخ السوفييت

الفصل الرابع عشر

جاسوس مجرى يهودى ، ينتخب عضوا بمجلس العموم البريطانى

◆ **إن** بطل هذه الحوادث الخارقة التالية رجل يدعى « تربتش لنكولن » ، تعد سيرته أغرب من الخيال الذى نطالعه فى القصص ٠٠ فلئن استطاع بعض جواسيس الدول ان يتسللوا الى جيوش أعدائهم ، فان « لنكولن » استطاع ان يصبح فى يوم من الأيام عضوا فى مجلس العموم البريطانى !

ولد « تربتش » يهوديا مجريا ٠ وزار لندن فى شبابه ٠٠ ثم اعتنق المسيحية ، وأصبح واعظا فى كنيسة مذهب (الميثودست) فى كندا ٠ ثم عاد الى انجلترا ليترك هذا المذهب الى مذهب آخر هو التابع لكنيسة (الانجليكان) ، فعين واعظا وراعيا لأبرشية (ابلدور) ، بمقاطعة كنت ٠ وكان فى هذا

الوقت قد اكتسب الرعوية البريطانية !!

واقترن بيهودية من المجر ٠٠ فلما مات أبوها ، تاركا لها ثروة كبيرة ، ترك الزوج الوصولى الكنيسة ودخل ميدان السياسة ! ٠٠ ولم يكن ذلك عسيرا حينذاك على رجل بارع الحيلة ، له وسائله المالية الخاصة ، و صلاته بالكثيرين من ذوى الشخصيات « النافعة » ٠٠ سيما وقد كان الساسة الذين أوتوا عقولا متحررة يميلون الى محاباة رجل له مثل هذه الارومة !

وهكذا استطاع « لنكولن » قبل عام ١٩١٠ ان يدخل الانتخابات ، ويصبح عضوا فى البرلمان البريطانى عن دائرة (دارلنجتون) ـ وان كان لم يتفوق على منافسه الا بتسعة وعشرين صوتا فقط ـ فلما نشبت الحرب العالمية الأولى عرض « خدماته » على تشرشل ، وغيره من المسئولين عن ادارة الحرب ٠٠ ولكنهم رفضوا هذه الخدمات ، وان كانوا قد استخدموه فى مكتب الرقابة وقتا قصيرا ٠٠ وكان فى ذلك الوقت قد ترك مجلس العموم ، وتورط فى احدى أزماته المالية فى عملية تزوير شيك ، لكن أصدقاءه عاونوه على طوى صفحة هذه الجريمة !

غير ان الرقابة كانت عملا « هادئا » بالنسبة له ، فاتصل بالاميرالية وعرض عليها مشروعا غريبا لمخادعة جزء من الاسطول الألمانى واخراجه الى بحر الشمال للايقاع به ! ولكن البحث فى هذا المشروع كان سيؤدى الى اطلاع « لنكولن » على مواقع أسطول الحلفاء ، ولهذا رفضوا اقتراحه ٠

عندئذ ذهب لنكولن الى روتردام ، بهولندا ـ وكانت محايدة ـ ليثبت أنه جدير بالعمل فى مخابرات الحلفاء ٠ وهناك اتصل بجاسوس ألمانى ، واستغل هذه الصلة عند عودته الى بريطانيا زاعما انه حصل عن طريقها على الشفرة السرية للجاسوسية الألمانية ٠ وقدم للسلطات الشفرة التى كان فى الواقع قد

اخترعها ! ·· ولكن المخابرات البريطانية لم تكن ساذجة كما تصور ، فعمدت قبل الاطمئنان الى صحة الشفرة المذكورة الى تجربتها ، بارسال عدة رسائل بواسطتها الى القيادة الالمانية ·· واذ ذاك ثبت لهم انها زائفة ! ·· فدعاه مدير المخابرات البحرية الى زيارته ، ثم تحدث اليه بطريقة عابرة عن تزويره الشفرة ·· فذهل لنكولن لكشف حيلته ! ·· ثم أشار المدير الى ان جواز سفره سينتهي بعد أيام ، فأدرك انهم يزمعون ابعاده ان لم يسافر من تلقاء نفسه ! ·· فركب سـفينة ذهبت به الى الولايات المتحدة ، التى كانت يومئذ ما تزال ملتزمة الحياد

وهناك استطاع الرجل بدهائه ان يتصل بجواسيس ألمانيا · فزعم لهم انه كان فى انجلترا للتجسس عليها ، وانه لا يضمر لها الا البغض · وانه اشتغل فيها بالسياسة ليتعرف الى الشخصيات الكبيرة، ويستمع الى ما تلوكه الألسنة من أحاديث ·· وانه أندفع بعد ذلك الى التجسس بكل ما فيه من قوة !

على ان خصومه الانجليز كانوا أخبث منه ، فأثاروا من جديد قضية الشيك الذى كان قد زوره · وطلبوا من الولايات المتحدة ان تسلمه ، باعتباره مجرما عاديا متهما بالتزوير ، فاعتقلوه ! ·· على ان رجل البوليس الأمريكى الذى اعتقـله لم يكن حذرا ، فقد طلب لنكولن اليه ان يمكنه من دخول مرحاض ، فسمح له بذلك ·· لكنه انتهز الفرصة وقفز من النافذة ! ·· وقد زعم بعد ذلك انه منذ ذلك اليوم صار يتخفى فى زى قس مرة ، وفى زى بحار سكير مرة ثانيـة ، وفى زى مزارع من المقاطعات الامريكية الغربية الوسطى ، مرة ثالثة ·· الخ ·· وانه كان يأكل فى نفس المطعم الذى كان يرتاده رجال البوليس الأمريكى الذين يبحثون عنه ! ·· ولكن أكثر هذه الحوادث كان من نتاج خياله الخصيب ··

ويبدو انه غالى فى الثقة بمهارته ، فقد اعتقلوه آخر الأمر ، و « شحنوه » الى الخارج ·· ثم حاكموه فى احدى دول الحلفاء

وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات ، كمزور وليس كجاسوس !
ومن الأقاويل التى لاكتها ألسن الكثيرين فى ذلك الحين تساؤلهم : لماذا حاكموه كمزور مع ان عقوبة التزوير أخف من عقوبة التجسس ؟ .. هل لأنه كان له أصدقاء من ذوى المناصب العالية ؟ أم لأن تهمة التجسس تمس كرامة البرلمان البريطانى الذى كان عضوا فيه ؟

الخيانة والغدر .. فى دمه !

◆ **وبعد** السجن ، طرد « لنكولن » من بريطانيا ، عام ١٩١٩ .. فهرع كعادته الى ألمانيا وهو يدعى الخصومة لبريطانيا ! وبدأ يدعو الى تحالف ألمانيا وروسيا والصين ، لسحق بريطانيا ! .. وكان أول ما فعله فى هذا السبيل أن اتصل بالكولونيل « باور » الذى كان يضع خطة ثورية لقلب حكومة ألمانيا حينذاك . **ولكن روح الخيانة والغدر عاودت « لنكولن » ، فحاول ان يبيع أسرار هذه الخطة للامبراطور غليوم الثانى ، الذى كان منفيا فى هولندا . ولكن الامبراطور كان أعظم منه دهاء وأشد مكرا ، فأبى الاصغاء اليه ..**

ومضى « باور » فى مؤامرته ، فحاول قلب الحكومة فعلا ولكنه فشل . وكانت محاولة رجعية لقلب الحكومة الديمقراطية الشابة التى كانت تبذل كل جهد لقيادة سفينة ألمانيا الى مصيرها ، وسط مسالك حرجة ، بعد أن خرجت مهزومة من الحرب العالمية الأولى ، وكان عليها ان تبنى كل شىء من جديد .

أما لنكولن ففر الى بودابست عاصمة المجر .. ولم يلبث « باور » ان دبر ثورة أخرى ، وعندما أوشكت مشروعاته ان تتم ، باع لنكولن أسرار المؤامرة للغرب ، ثم أبحر الى الصين ليكون بعيدا عن متناول « باور » وانتقامه ! .. ومع انه لم يكن يعرف شيئا عن الصين ولغتها ، فقد توصل الى ان يتولى منصب المستشار لأقوى قائد صينى .. وساهم فى خلق

مرحلة جديدة من مراحل الحرب الأهلية التى كانت تجتاح الصين وتشيع فيها التخريب والدمار · ولقى رئيسه نجاحا فى خططه ، حتى غالى فى طموحه فهاجم (شنغهاى) ، وبذلك أثار اهتمام الدول الاجنبية التى كانت تملك مؤسسات تجارية كبيرة هناك · فردت عليه ردا قاسيا ، حطم أحلامه كلها ·· واذ ذاك اضطر لنكولن الى التعجيل بالخروج من الصين !

وعرج فى رحلته على (كولمبو) عاصمة سيلان ، فأثر فى نفسه شيئان : أولهما الديانة البوذية التى اجتذبته · أما الأمر الثانى فهو انه عرف بطريق المصادفة انهم حكموا بالأعدام على ابنه الوحيد فى انجلترا ، بتهمة القتل !

يثير الرعب ·· أينما حل !

◆ **وحاول** الوصول الى لندن ، ولكن دون جدوى ، فعاودته كراهيته لبريطانيا ، ورجع أدراجه الى الصين ، حيث أصبح راهبا بوذيا باسم « شاوكونج » ، ولبس زى الكهنة التقليدى · ولكن المخابرات الأوربية لم يخدعها تصوفه ، فاضطر الى الخروج · وحاول مرة أخرى ان يصل الى انجلترا فى رحلة « روحية » ، للدعاية للديانة البوذية ، ولكنهم عرفوا حقيقة شخصيته عندما مرت سفينته بميناء سنغافورة ·· ومع ذلك استطاع ان ينجو بنفسه وان يسافر الى برلين ·· **ففزعت السلطات الألمانية من وصول الرجل الذى كان يبذر بذور الفتن والثورات والحروب الأهلية حيثما حل ! ·· فاقتادوه فى هدوء الى حدود بلجيكا · ولكن البلجيكيين رفضوا قبوله ، قائلين انه لا شك سيكون أسعد حالا لو عاد الى الصين !**

واستطاع الرجل ان يعود الى الصين !! ·· لكنه لم يعد كراهب بوذى ، وانما كرئيس لدير من أديرة هذا الدين ! ·· ومع هذا لم يرضه الهدوء والاستقرار ، فسمحت له السلطات الكندية بأن يسافر الى كندا ليلقى فيها سلسلة من المحاضرات ·

ومن هناك نجح فى الحصول على اذن بدخول انجلترا ، لكنهم عادوا الى طرده من جديد ·· فرجع للمرة الأخيرة الى الصين ، لينتظر حتى « تدمر مدنية الغرب المتعفنة مجتمع الصين » ·· وعندئذ ينفذ مشروعاته لخلق مجتمع جديد !

لكن الموت لا يبقى على خطط الانسان ولا يذر ! ·· ورغم ان قصة « لنكولن » هذا ليست بالشىء الجديد على مؤرخى الحروب ، فانى أستطيع أن أقول مرة أخرى انه أصاب العالم بضرر بالغ ·· فقد شجع الثورات فى كل مكان حل به ، فدفع آلوف الأرواح الى الموت !

« هتلر » يخرج من الظلال الى الضوء !

• ونعود الى انقلاب « باور » الذى فشل فى ١٩٢٠ · فقد كانت جماعته فى برلين تنتظر قبيل ذلك الفشل وصول بعض الأعوان من (بافاريا) ·· فلما فشل الانقلاب أسرع لنكولن الى المطار ليحذر المتآمرين القادمين !

وفى تلك الأثناء وصلت طائرة ، وخرج منها رجل ·· لكن لنكولن دفعه الى مكانه من الطائرة مرة أخرى ، وطلب اليه ان يعود الى (بافاريا) ، والا فانه سيعتقل ! ·· فامتثل الرجل وعاد ، فنجا بذلك من السجن ·· لكن هذا كلفه انتظار عشر سنوات أخرى ليعد انقلابه ··

وكان هذا الرجل هو « ادولف هتلر » !

ولو افترض المؤرخ ان فيما زعم لنكولن عن مغامراته شيئا من المغالاة ، فان هناك أدلة كثيرة تبين ان حياته كانت فريدة فى تاريخ الدسائس الدولية ! ·· ومهما يكن من شىء ، فقد يكون ثمة نصيب من الصحة فى ادعائه بأنه لم يفعل ما يشين وطنيته — بصفته من رعايا المجر ، حليفة ألمانيا — أثناء تجسسه ضد بريطانيا ، عدوة بلاده ·· أو فى قوله بأنه ما دام الانجليز « مغفلين » الى حد مكنه من التغلغل فى أوساطهم الحكومية ، فلماذا لا يستفيد من حماقتهم هذه ؟!

الفصل الخامس عشر

الجاسوس « الرومانتيكى »
الذى حصل على خطة غزو هتلر لبولندا !

• **والمغامرات** « الرومانتيكية » فى حياة الجاسوس قليلة ، ومع ذلك ففى تاريخ الجاسوسية رجل انصرف الى هذا الميدان فدفعه الى الكارثة ٠٠ والى الموت !

كان الكابتن « سيرج سوسنوفسكى » ضابطا بولنديا من أسرة عريقة ٠ وكان شابا جميلا حسن الرواء ، له طريقة ساحرة فى الحديث والتصرف ، وشخصية تجتذب النساء ! ٠٠ وبحكم حبه للمغامرة ، وطلاقته فى التكلم باللغة الألمانيــة ، رأى ان يتطوع للقيام بأعمال التجسس ٠٠ فلما انتهى تدريبه بعث به البولنديون الى برلين ٠ وكان الستار الذى تستر وراءه عاديا : فقد تخفى فى شكل مندوب تاجر (قومسيونجى) ٠ وقد أدى دوره ببراعة ، فتعرف الى عدد كبير من الناس ، ثم سيطر على بعض الأعوان ونثرهم فى طول ألمانيا وعرضها !

وبعد أن ظهر هتلر فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، أدرك البولنديون ان النازيين سيدعونهم يوما ما للزحف الى جانب ألمانيا ، ضد روسيا ، أو يضطرون الى مقاومة هجوم ألمانى عليهم ان رفضوا الانصياع لأوامر النازيين !٠٠ وقد اختاروا الطريق التى يسلكونها من أول الأمر ، وهى عدم التعاون مع ألمانيا ٠ وتلقى سوسنوفسكى تعليمات جديدة بهذا الشأن ، وأموالا ٠٠ وبقى عليه ان يحصل على خطة الهجوم الالمانية المحتملة على بولندا !

وبدأ مهمته بمطالبة أعوانه بالاصغاء الى حديث المقاهى ٠ وكان هو بدوره يصغى الى ثرثرة الدوائر العليــا التى يتردد عليهــا فى المجتمع ٠ وبدأ يبنى من هذه الأقاويل المتنــاثرة صورا للموقف ــ فان كسر خزائن وزارة الحربية وسرقة الخطط

العسكرية منها لهو شيء لا يحدث الا في القصص الخيالية !

وكانت له سيدة يحبها ، هي البارونة « فون برج » . وكانت البارونة قد تركت زوجها لكي تهب نفسها للشاب البولندي الحلو القسمات ، ثم انتقلت الى شقته وأقامت معه . وصارت تعاونه كثيرا في أعماله التجارية ، اذ كانت خبيرة بالناس . ولكنها لم ترتب يوما في مهنته الحقيقية ، ولم يكن هو ينوي ان يكاشفها بحقيقة أمره !

على ان الحب يحول الرجال الى طريق الاهمال واجتناب سبيل الحيطة ! كان « سوسنوفسكى » قد عاش سنوات بين الألمان دون ان يزل لسانه أو يخطيء أدنى خطأ . ولكنه عاد ذات ليلة مع البارونة من حفلة باهرة للطبقة الراقيـــة ، وكان في روح طيبة عالية ، بعد ان سمع حديثا هاما عن طائرات القتال الالمانية الجديدة من طراز « مسرشميدت » . وكان لا بد له من ذاكرة قوية لتدوين ما سمع ، فانه لم يكن طيارا ، فكتب معلوماته على ورقة دسها في جيبه .. ثم لبى نداء البارونة التي كانت في حالة نشوة وشوق شديد الى مبادلته الحب . وعلى اثر ذلك أخلد الى نوم عميق لم توقظه منه صاحبته في صباح اليوم التالي ، اذ انشغلت باعادة سترته الخاصة بالسهرة الى صوان الملابس . وعندئذ عثرت بتلك الورقة في جيبه فأدركت انه جاسوس !

وعندما استيقظ في الصباح وروت له القصة ، قال همسا :



« وماذا أنت فاعلة الآن ؟ » ٠٠ ولكن ، ماذا كانت لتفعل بالرجل الذى تحب ؟ ٠٠ ان من السهل على امرأة مثلها ان تجد له عذرا فى تلك الظروف ٠ وقالت لنفسها تبرر عمله : انه يعمل ضد النازية وليس ضد ألمانيا على أى حال ! ٠٠ ثم استدارت اليه : « ولكن هذا شىء خطر للغاية ٠ تصور ما كان يحدث لو كانت الخادمة قد عثرت بهذه الورقة ؟! »

ـ انى أعرف ٠٠ كان تصرفى جنونيا يدل على الحمق ! لكنى كنت على وشك اخفاء الورقة فى الليلة الماضية عندما حانت منى نظرة الى وجهك ، أنستنى ذلك ٠٠ بسبب حبك ! ٠٠ ولكن » ٠٠ وضمها بين ذراعيه ، فقالت هامسة : « **الى متى تستمر هذه الحال ؟** »

ـ الى ان أتم مهمتى ، فأحصل على خطة الألمان لمهاجمة بولندا ٠٠ يجب ان أحصل على التفصيلات !

ـ وهل تستطيع بعد ذلك ان تعود الى بولندا ؟ ـ نعم

ـ **اذن سأعاونك !**

الفراشة الجميلة التى سقطت فى الفخ !

◆ **وبهذا** بدأت قضية من أعجب القضايا الخاصة بالتجسس فى التاريخ ! ٠٠ قضية تتابعت فيها لحظات من الدراما ٠٠ والدسائس ٠٠ والمأساة ! ٠٠ فقد وضعت البارونة « فون برج » الخطط لانقاذ الشاب الذى تحب من الخطر المحدق به ٠ وأدركت انه كلما أسرع فى انجاز مهمته استطاع ان يعجل بالعودة الى بولندا ، والى الأمان ٠٠ فصارت تصطحبه الى الحفلات التى تضم قوما يستطيع ان يستفيد من حديثه معهم ، فيضيف الى الصورة التى كونها معالم جديدة كل يوم !

وجاء يوم من أيام سنة ١٩٣٤ ٠٠ كانت عشيقته تحتفى فيه بابنة عم لها هى الآنسة « فون ناتسنر » ، التى كانت تعمل كاتبة سرية فى وزارة الحربية الألمانية ٠ وكان من تقاليد

ألمانيا ان لا تعين فى هذا المنصب الا من تثق بها من بنــات الضباط المتقاعدين . وكان والد هذه الفتاة ضابطا برتبــة كولونيل ، ولكن التضخم المالى الذى حدث فى ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى كان قد أصابه بخراب شامل ، فاضطرت ابنته الى العمل . **ولكنها ما كادت تلاحظ جمال ثوب ابنة عمها البارونة حتى لسعتها عقرب الغيرة ، والرغبــة فى الثراء .. فلمح « سوسنوفسكى » فى عينيها بريق هاتين العاطفتين !**

واستطاع ان يعــالج الخطوات التالية بمهــارة ، بمعاونة البارونة ، فاقترح على الفتاة ان يمدها بالمال الذى تريد ، على ان تمده بين الحين والآخر بمعلومات عن العقــود التى يعقدها الجيش مع التجار مثلا ، بدعوى ان هذه المعلومات تفيده كثيرا فى عمله التجارى ! .. ولم يكن فى الخطوات الأولى ما يريب . **وصار صاحبنا يدفع للفتاة أجورا عالية ، حتى أصبحت تحت رحمته والعوبة فى يده ، بحيث بات فى استطاعته ان يحصــل منها على ما يريد ، وهى التى لم تألف من قبل سعة العيش فأدار رأسها ان يكون فى يدها مال كثير ! .. واســتأجرت مسكنا خاصا بها ، واشترت الثياب التى طالما اشتهت اقتناءها !**

وكانت الآنسة فون ناتسنر تعمل فى الادارة المالية الخاصة بالتموين والمخــازن ، وتكتب على الآلة قوائم عن التموين . وكان فى استطاعة أى ضابط أركان حرب يعمل فى المخابرات ان يحصل من هذه القوائم على الخطوط الرئيسية فى أى خطة حربيــة أو مشروع هام . ورغم انه لم يكن فى الامكان سرقة نسخة من هذه القوائم ، لانهم كانوا يرقمون كل ورقة بعناية، فان الشريكين اكتشفا وسيلة أخرى تدل على مهارة ، هى سرقة ورقة كربون من الاوراق التى توضع بين نســخ ما يكتب على الآلة ، وبذلك يمكن لأى انسان ذكى ان يقرأ فيها ما كتب !

واستمر « سوسنوفسكى » فى دفع مبالغ كبيرة للفتاة ، التى كانت قد بدأت تحصل له على مادة من الطراز الأول — حتى

لقد أكد للبارونة ان مهمته ستنتهى فى خلال أشهر قلائل !

يد القدر تنسج خيوط الافتضاح !

• **ومرت** بالشركاء الثلاثة لحظة كانت تدعو الى القلق ! كانت أم الفتاة تعيش فى (بافاريا) ، فزارتها فجأة على غير انتظار · واذ ذاك ذهلت لكثرة ثيابها وأناقة أثاثها ·· فزعمت لها الفتاة ان « جنرالا » من أصدقاء والدها (ذكرت اسمه) كلفها بعمل يأتيها بأجر كبير · ولكن هذا الحادث العرضى كان كفيلا بهدم كل ما بناه سوسنوفسكى ! ·· **فقد قابلت الأم بعد ذلك بعدة أشهر هذا الجنرال فشكرته لانه أسدى هذا الصنيع الى ابنتها ، وعندئذ أدرك الرجل ان وراء الأمر شيئا ، لكنه لزم الصمت ، فقد كان رجلا صارما فى عمله · ولم يكن الى ذلك الوقت مرتابا فى نشاط الفتاة ، بل ظن انها لا بد قد أصبحت خليـــلة رجل ثرى ! ·· على ان الاضطراب انتاب عقله منذ تلك الســـاعة ، فبعث بأحد ياورانه لمراقبتها والتحرى عنها ·· فلم يعثر لها على أى عشيق ثرى ·· وازاء هذا تولت ادارة مقاومة الجاسوسية الأمر ·· فلم تلبث الفتاة ان ضبطت والكربون فى جيبها !**

وأملا منها فى ان تنقذ حياتها من الاعدام ، أفشت سر الكابتن سوسنوفسكى والبـــارونة فون برج · وكان الأمر خطيرا الى حد ان « هيدريتش » ـ أحد كبار زعماء النـــازية ورئيس الجستابو حينذاك ـ اعتقلهما بنفسه !

وحكم على البارونة وابنة عمهـــا بالاعدام ! ·· وتحرك قلب زوج البارونة ـ البارون ـ فى اللحظة الأخيرة ، فأراد تطليق زوجته لتتزوج من « سوسنوفسكى » وتصبح رعية بولندية ، فتنجو بذلك من الاعدام ! ولكن خطته منيت بالفشل ··

وقد وصف شاهد عيان مأساة الاعدام ـ الذى نفذ فى فناء أحد سجون برلين ، وكان شبيها بما كان يحدث فى العصور الوسطى ـ فقال :

« كان الجلاد يلبس ثوب السهرة ، وكان الجزء الأسفل من وجهه مغطى بقناع أسود . وخانت الآنسة « فون ناتسنر » أعصابها فى اللحظة الأخيرة ، فحملها ثلاثة رجال . وجعلت تقاوم وتصرخ وهم يدفعونها الى كتلة الخشب أمام الجلاد . ثم أمسكوا بجسمها بقوة الى ان أهوى الجلاد على رأسها بفأسه . ولكن الضربة الأولى لم تنجح ، فاضطر الى معاودة الكرة حتى فصل الرأس عن الجسد ! .. أما البارونة « فون برج » فانها تقدمت الى مصيرها المحتوم فى هدوء . وكانت تحسب ان حبيبها الضابط البولندى على وشك ان يلقى نفس مصيرها ، فكانت تحدث نفسها فى زنزانتها عن لقائهما السعيد بعد الموت !

وقد تبدو لحظاتها الأخيرة أشبه بفصل من مسرحية ، ولكنها كانت مخلصة الى حد أن بعض الموظفين من ذوى القلوب المتحجرة تأثروا لحالتها . فقد ركعت أمام كتلة الخشب ، ووضعت صورة لسوسنوفسكى على الأرض — كى تنظر اليها الى ان تموت — ثم أسندت رأسها بلطف على الخشب وأزاحت الشعر عن مؤخر عنقها . وتردد الجلاد لحظة — وقد رأيت العرق يتصبب من وجهه ! — وكان هذا بعد الفجر بقليل ، فى صباح يوم بارد من أيام شهر فبراير . واذ ذاك أمره ضابط بأن يضرب .. فاستجمع ما بقى له من شجاعة وأعصاب ، وهبطت الفأس .. فتدحرج الرأس الجميل على الأرض .. الى جوار صورة الرجل الذى أحبته صاحبته ! .. واضطروا الى اقتياد الجلاد بعيدا ، فقد رأيته يترنح عبر فناء السجن . وسمعت انه استقال من منصبه بعد ذلك . ولست ألومه !

مصير « سوسنوفسكى »

◆ **وظهرت** فى برلين لافتات عن اعدام اثنتين من الخائنات للرايخ . ولكن ، ماذا حدث لسوسنوفسكى ؟

حكم عليه بالاعدام مثلهما ، ولكن يد القدر تدخلت فى الأمر .

فان البولنديين كانوا قد اعتقلوا جاسوسة ألمانية ذات شأن كانت تسمى نفسها « مدام اوتسوريل » ٠ وقد نفوا ـ كما جرت العادة ـ ان « سوسنوفسكى » كان يتجسس لحسابهم ٠ ونفى الالمان ان « مدام اوتسوريل » كانت جاسوسة من طرفهم ٠٠ ثم اتفقوا على تبادل السجينين !

وقد كانت لهذه القضية نتائج هامة : فقد عاد «سوسنوفسكى» الى بولندا رجلا محطما ٠ ولكن السلطات البولندية بدأت ترتاب فى أمره ، وتخشى ان يكون قد تحول الى جاسوس لألمانيا ، بسبب النداءات الحارة التى كان يوجهها الى هذه الدولة كى تعفو عن عشيقته (قبل اعدامها) ٠٠ لذلك خشى المسئولون ان يكون قد وعد بالعمل لصالح ألمانيا اذا أطلقوا سراحها !

وعلى أى حال فانه اعتقل ، وقدم لمحكمة عسكرية بولندية ٠ **وأعلنت الحكومة الشيوعية فى بولندا انه اعدم رميا بالرصاص قبل ان تبدأ الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ بأيام قلائل ! ٠٠ ولكن ضابطا يعرفه جيدا أكد لى ان سوسنوفسكى فر هاربا ٠٠ وانه يعمل الآن مع الروس !**

ولا بد لأقلام المخابرات ان تنتظر معلومات أخرى قبل ان تعرف مصيره ٠ فكلا القصتين ليس مستحيلا ٠ والواقع ان الآلام النفسية التى انتابته كانت شديدة الى حد آذى عقله ولم يكد يتركه سليما !

الفصل السادس عشر

الجواسيس النازيون

◆ **كانت** الظاهرة الملموسة عند الجواسيس الألمان ـ فى الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ـ هى انهم عرفوا بالكثرة فى العدد ، دون الجودة فى العمل ! ٠٠ ومع ذلك فقد شهدت هذه الفترة تغيرا هاما واحدا فى أسس الجاسوسية ٠

وتفصيل الأمر ان نظام التجسس الألمانى انهار مع هزيمة ألمانيا فى سنة ١٩١٨ ، ولكن عددا قليلا من الجواسيس ـ الذين كانوا قد اندسوا فى بلاد أجنبية قبل الحرب بزمن طويل ، واستقروا فيها دون ان تحوم حولهم أية شكوك ـ ظلوا متشبثين بعملهم ، مؤمنين بأن الجمهورية الألمانية التى قامت فى أعقاب تلك الحرب لن يقدر لها أن تدوم طويلا ، لأنها مناقضة لجميع المبادىء القومية التى يؤمن بها الألمان، ومن ثم فلا بد من ان تولد حكومة قومية تعيد لألمانيا مجدها ، فيسترد الجواسيس ما كان لهم فى الماضى من أهمية ..

والواقع انهم كانوا على صواب فى رأيهم ، اذ ما لبث هتلر ان تولى الحكم ، فكان أول ما فعله ان بعث نظام الجاسوسية الألمانى من جديد ، ووسع نطاقه الى حد لم يسبقه مثيل ، ورصد له الاعتمادات المالية الطائلة ، فلم يجر على ما كان متبعا ـ من قبل ـ من شح فى مكافأة الجواسيس !

ولم تثر قضايا الجاسوسية الألمانية فى بريطانيا اهتماما كبيرا فى الفترة بين الحربين الأولى والثانية ، ولكن قضية معينة منها استطاعت ان تثير ضجة هائلة ، وقد أطلقت الصحف على بطلها لقب « الضابط السجين فى البرج » ..

وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٣ ، وقد تقرر ان يقدم الملازم « نورمان بيلى ـ ستيوارت » الى المحكمة العسكرية .. فانه رغم انحداره من أسرة ذات أمجاد عسكرية عريقة ، ورغم انتمائه الى فرقة « سيفورث هايلاندرز » ، كان سىء السلوك والسيرة ، لم يستوعب ما تقتضيه الحياة فى وحدات الجيش من اخاء عسكرى ، فكان يحقد على من هم أرقى منه مرتبة ، ولا يكف عن التذمر ، حتى لقد قال أحد زملائه فى وصفه : « لقد بلغ به الغيظ من حظه ان أعلن وحده حربا ضد الأمبراطورية البريطانية كلها ! »

ففى صيف سنة ١٩٣٢ ، دهش أصدقاء « بيلى ـ ستيوارت »

حين علموا انه قضى أجازته فى ألمانيا ، اذ كانوا يعرفون انه يشكو العوز دائما . ثم اشتدت دهشتهم حين عرفوا انه رحل فى أغسطس - من العام ذاته - الى هولندا ، ليقضى احدى عطلاته الأسبوعية .. وكرر هذه الزيارة مرة أخرى فى شهر اكتوبر . وكان من شأن هذا الثراء ان يسترعى الأنظار ، ومن ثم فرضت رقابة على الخطابات التى كانت تصل اليه . وما لبث ان جاءه يوما خطاب احتوى على خمسين جنيها ارفقت برسالة من سيدة وقعت باسم « مارى لويز » ، تشكره على ان أقرضها هذا المبلغ من قبل . وأسلمته السلطات الرسالة وقد ازدادت شكوكها فيه ، اذ لم يعرف عنه يوما انه امتلك خمسين جنيها تزيد عن حاجته ، بحيث يستطيع أن يقدمها قرضا لأحد ! .. ولهذا زيدت الرقابة عليه ، فظهر انه تلقى بعد ذلك رسائل مماثلة ، كلها من «مارى لويز» ، التى كانت تكتب اسمها بأشكال شتى : فهى تضيف اليه بعض حروف تارة ، أو تنتقص من حروفه تارة أخرى ، شأن الكاتبة غير المتثبتة من هجاء اسمها .. أما الضابط ، فكان يوقع ردوده باسم « ألفونس بواريه » !

وعندما سئل « بيلى - ستيوارت » عن الرسائل والمبالغ التى كان يتلقاها ، أجاب فى براعة وذكاء ، غير حافل بما فى رده من مجافاة للكرامة العسكرية .. فقد زعم ان المبالغ كانت ثمنا لخدمات جنسية كان يؤديها للمرأة ! .. وشد ما ذهل «الكولونيل» الذى كان يستجوبه حين أضاف الضابط قائلا انه لم يكن يصطحب المرأة الى فندق ما ، وانما كان يؤدى لها « الخدمات الجنسية » فى حديقة عامة لم يذكر موقعها ، وان تذكر انها كانت تضم بين جنباتها بحيرة !

ولكن الوقائع أظهرت ان « بيلى - ستيوارت » سرق أسرارا عن الدبابات والبنادق الأوتوماتيكية ، وانه باعها للألمان ، فقضى عليه بالسجن خمس سنوات .. لا لأن الأسرار التى باعها كانت خطيرة أو هامة ، ولكن لأنه عمل كجاسوس لدولة



٠٠ وركعت البارونة ، ثم أسندت رأسها على كتلة الخشب ، ووضعت صورة حبيبها على الارض ، كى تنظر اليها الى أن تموت (ص١٢٦)

أجنبية ! ‥ ومع ان الحظ حالفه ، فأخلى سراحه فى سنة ١٩٣٦ بعد ان قضى ثلثى المدة ، الا أنه خرج من السجن مصرا على انه كان بريئا ، وذهب فى ادعائه الى درجة أوحت الى البعض بأنه كان ضحية مؤامرة أو دسيسة ! ‥ وقد استشارتنى سيدة — اذ ذاك — فى أن تتبرع له بمبلغ من المال يبدأ به حياته من جديد، ولكننى نصحتها بأن تتريث ‥ **وما هى الا أسابيع قلائل ، حتى فوجىء كل من عطفوا عليه باعتراف كامل نشره باسمه فى احدى الصحف الشعبية ، مسجلا على نفسه انه كان يقدم الخدمات للألمان !**

وفى سنة ١٩٤٥ ، وقع « بيلى — ستيوارت » فى أيدى الحلفاء، وقدم للمحاكمة ، فاقترح القاضى اعادته الى ألمانيا · ولكن الحكومة العسكرية التى أقامها الحلفاء هناك رفضت ان تسمح له بالعودة ، ومن ثم حوكم من جديد فى انجلترا ، حيث قضى عليه بالسجن خمس سنوات ، لخرقه قوانين الدفاع !

ولا تكمن قيمة هذه القضية فى تفصيلاتها ووقائعها ، وانما تكمن أهميتها فى ان « بيلى — ستيوارت » بدأ يتجسس لألمانيا فى سنة ١٩٣٢ ، وقبل ان يتولى « هتلر » الحكم بعدة شهور ‥ وفى هذا ما ينقض ما اعتاد الناس ان يلقوه على هتلر من لوم ! ‥ كذلك نخرج من هذه القضية بدرس آخر ، هو انه من العسير على الجاسوس الهاوى غير المدرب ، ان يقاوم الهيئات الفنية التى تحارب الجاسوسية

خطة بارعة ‥ لأستاذ الجاسوسية الألمانية الحديثة !

◆ **ولقد** كان الكولونيل « كارل بوخس » هو الرأس المدبر لخطط الجاسوسية الألمانية فى أوربا الشرقية قبل سنة ١٩٣٩ ‥ وكان داهية ، لا ضمير له ، كأى « أستاذ » للجاسوسية · وعلى خلاف أبناء عنصره ، كان « بوخس » يتعلم من أخطائه ، ولا يحز فى نفسه شىء قدر ذلك الفشل الذى منيت به المخابرات

السرية الألمانية فى انجلترا ، فى سنة ١٩١٤ ، أى عندما قضت السلطات البريطانية على شبكة الجاسوسية الألمانية فى بلادها ، فى مطلع الحرب . ولتدارك هذا الفشل ، رأى « بوخس » انه قد يكون من الأجدى ان ينشىء شبكتين للجاسوسية فى الخارج ، بدلا من شبكة واحدة . وكانت الفكرة تنطوى على دهاء عظيم .. **اذ تنصرف احدى الشبكتين الى العمل ، بينما تجتذب الشبكة الأخرى انتباه المخابرات السرية فى البلد الأجنبى ، وتذهب فى ذلك الى حد ان يضحى أفرادها بأنفسهم كى يشغلوا السلطات عن الشبكة العاملة !**

ووفقا لهـــذه الخطة البارعة ، تدفق الجواسيس الألمـــان والنمسويون ـ رجالا ونساء ـ على بريطانيا ، فى شكل خدم ! .. وكان اختيارا موفقا، لأن بريطانيا كانت اذ ذاك تعانى أزمة فى الخدم . وحصلت بعض الألمانيات على الجنسية الانجليزية بالزواج، لا سيما وانهن وزملاءهن كانوا يزعمون أنهم لاجئون من الاضطهاد الهتلرى . كذلك توافدت على انجلترا أفواج الشبان الألمان ، باسم السياحة ، فى وقت كانت ألمانيا تشكو فيه نقص مواردها من العملات الأجنبية .. وكان هذا هو ما استرعى انتباه رجال المخابرات البريطانية . وقد عثرنا فى سنة ١٩٤٥ ـ عند انهزام ألمانيا ـ على خطط كان الألمان قد وضعوها لغزو انجلترا ،اعتمادا على البيانات « الطبوغرافية » التى جمعها « السياح » عن جنوب انجلترا .. وتبين ان الحصول على الخرائط من ادارة الصيانة بوزارة الخارجية البريطانية كان ميسورا ، كما ان كتب السياحة كانت حافلة بها ! .. ومن ثم فان الحاجة لم تكن تدعو الى ايفاد كل هذه الأفواج من « السياح » ، كما ان « تغطية » عمليات كل هذا العدد من الجواسيس كانت شبه مستحيلة .. وكانت هذه هى أهم مواطن الضعف فى خطط « بوخس » . والواقع ان ألمانيا النازية كانت مدينة بالقسط الأوفر من معلوماتها عن انجلترا ، لنفر قليلين من الألمان الذين أقاموا فى انجلترا منذ

زمن طويل .. وحتى هؤلاء كانت امكانياتهم محدودة ، وفرصهم ضيقة !

وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى خطط النازيين .. وقد لجأوا فى هذه الخطوة الى بعض أساليب الجاسوسية الصريحة ، واستخدموا فى ذلك عددا من الألزاسيين ، كان بينهم جنديان يعملان داخل « خط ماجينو » ذاته . **على ان المؤامرة النازية لم تنكشف الا بعد نشوب الحرب ، وكان من نتائج انكشافها ان أعدم الفرنسيون الدكتور « كورت روس » - وكان من الزعماء المطالبين بالاستقلال الذاتى - لأنه أفشى أسرارا عسكرية للعدو . وقد عمد الألمان - حين احتلوا الاقليم بعد عام - الى تمجيد « روس » ورفعه الى مصاف الأبطال ، ليستميلوا قلوب مواطنيه** . ولكن الألزاسيين لم يتذوقوا السعادة المرجوة فى عهد الاحتلال النازى ، وبدأ دعاة الاستقلال الذاتى يشعرون بالقلق ، اذ لم تبد بادرة واحدة تبشر بالحكم الذاتى الموعود.. بل ان القرائن كانت توحى بأن الألمان استخدموهم كمجرد أدوات لتحقيق أهدافهم العسكرية . وقد ازدادت هذه الحقيقة وضوحا مع تقدم الحرب

ولا شك فى ان الذين تجسسوا لحساب ألمانيا ، فأظهروا لها ان استحكامات « خط ماجينو » كانت أضعف فى القسم الشمالى منها فى القسم الممتد فى الالزاس واللورين ، قد ساهموا بنصيب كبير فى الانتصارات التى أحرزها النازيون فى بداية الحرب ، وفى تمكينهم من احتلال فرنسا

الفصل السابع عشر

الحظ يناصب جواسيس هتلر العداء !

◆ يعتبر جواسيس هتلر في المرتبة الثانية ، اذا هم قورنوا بالجواسيس الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، رغم انهم أفادوا

من تقدم العلم ، فكان لهم فى أجهزة الارسال اللاسلكى خير عون كان يفتقده الجواسيس السابقون ٠٠ ولقد وقع جواسيس هتلر فيما وقع فيه جواسيس غليوم ، اذ مكن نشاطهم ونظامهم رجال المخابرات السرية البريطانية من أن يكتشفوا أمرهم ، وان يمسكوا عن اعتقالهم ويتركوهم يعملون دون أن يفطنوا الى أنهم كانوا مراقبين ، وبذلك كانوا يكشفون عن المزيد من عملياتهم وعملائهم وعمالهم ! ٠٠ **وما ان نشبت الحرب العالمية الثانية – فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ – حتى بادرت السلطات البريطانية الى شن غارات بوليسية واسعة على أوكار هؤلاء الجواسيس ، واعتقلت منهم كثيرين** ٠٠ ومع ذلك فان الأحداث دلت على ان هذه السلطات كانت متساهلة ، وانها لم تأخذ فى معالجة الجاسوسية الهتلرية بما كان ينبغى من حزم ، الا بعد انسحاب القوات البريطانية من (دنكرك) ٠٠ ولعل السر فى ذلك يرجع الى أن ادارة المخابرات البريطانية و « القلم الخاص » باسكتلنديارد ، شغلا خلال الشهور الثمانية – التى انقضت بين بدء الحرب وغزو فرنسا وبلجيكا – بالشكاوى التى انهالت عليهم ، عن أولئك الذين كانوا يضيئون الأنوار أثناء الغارات ، أو الذين كانوا يخفون أجهزة ارسال لاسلكية ٠٠ وكان الاضطراب العصبى يسود البلاد ، فيوحى بالشبهات لأتفه بادرة من البوادر !

والواقع الذى نستخلصه من سجلات الجواسيس الألمان الذين برزوا فى الحرب العالمية الثانية ، انهم كانوا ضعاف المستوى ، وكان تدريبهم سيئا ، مما أدى الى وقوعهم فى أخطاء ربما بدت تافهة ولكنها كانت كافية لأن تكشف حقيقتهم

وكان أول بريطانى شنق فى انجلترا لتجسسه – فى الحرب العالمية الثانية – مجرد محتال أراد الحصول على المال بأيسر الطرق ٠٠ وكانت القصص التى سمعها قد أوهمته بأن الجواسيس يكسبون أموالا طائلة ٠ لذلك أقدم عندما عرجت

سفينته يوما على (لشبونة) ـ وكان مهندسا بحريا ـ على الاتصال بالألمان هناك ، عارضا خدماته ٠٠ ولكنه قوبل بالرفض ، اذ ارتابوا فى انه ربما كان جاسوسا انجليزيا يحاول التسلل الى صفوفهم ٠٠ ولكن القنصلية الألمانية فى نيويورك أتاحت له الفرصة ٠٠ فرصة السير الى حتفه بقدميه، لأنه لم يفطن الى أن المخابرات البريطانية كانت تبذل نشاطا جبارا فى البلاد المحايدة ، ومن ثم بدأت تتعقبه من (لشبونة) !

والظاهر ان الحظ نفسه كان يناصب جواسيس هتلر العداء ، فكان هذا العداء ينتهى بهم ـ سواء كانوا من الألمان أو من الخونة ـ الى الاعدام ٠ وسواء كان الاعدام شنقا أو رميا بالرصاص ، فان النتيجة واحدة ! ٠٠ وتحضرنى هنا قصة حادث وقع فى أغسطس سنة ١٩٤١ ، وكان الألمان قد قلبوا خططهم الجاسوسية رأسا على عقب ، بعد الفشل الذى أصيبوا به ٠٠ **فقد عدلوا عن استخدام ألمانيين فى البلاد الأجنبية ، اذ انهم رغم حذقهم للغات، كانوا يفتقدون اجادة النطق الصحيح٠ ومن ثم أخذت الجاسوسية الألمانية تستعين بهولنديين وبلجيكيين يتسللون الى أراضى الحلفاء على انهم لاجئين آثروا ان يهجروا بلادهم بعد الاحتلال النازى !٠٠** وكانت نقطة الضعف فى هذه الطريقة ، ان بعض هؤلاء الجواسيس كانوا من المجرمين المسجونين ، وقد مناهم الألمان بالخلاص من تبعات جرائمهم اذا عملوا فى الجاسوسية ، لذلك كان همهم الأول هو الخروج من السجون ٠٠ ولقد كان نصيب انجلترا من هذا الصنف من الجواسيس كبيرا ، ولكن الواحد منهم كان يبادر الى الاعتراف بكل شىء بمجرد وقوعه فى أيدى السلطات ٠٠ وعندما تكشفت هذه الحقيقة ، استعانت المخابرات السرية بضباط هولنديين وبلجيكيين من رجال قوات الحكومات الحرة ، ليتولوا تحرى حقيقة أمثال هؤلاء الجواسيس ، والتحقيق مع من يقع فى أيدى السلطات منهم !

الفصل الثامن عشر

سر الجاسوسة الغامضة !

◆ **هذه** قصة خليقة بأن تثير اهتمام علماء النفس أكثر مما تثير اهتمام الذين يدرسون تاريخ الجاسوسية ، اذ أن الطبيب النفسى يعرف ما فى الحديث من أكاذيب متعمدة ، أو ثرثرة متهوسة . فقد كانت مسز « دوروثى باميلا أوجرادى » ـ من سكان (سانداون) بجزيرة (وايت) ـ المرأة الوحيدة فى بريطانيا التى حكم عليها بالاعدام أثناء الحرب ، بسبب التجسس .. ولم تكن من الحسان ، بل انها كانت فى أواسط العمر ، تضع نظارة على عينيها ، وقد أوتيت قامة قصيرة مكتنزة !.. وكانت زوجة رجل وقور ، كان من رجال المطافىء يوما ثم تقاعد . ولقد عرفت هذه المرأة بين جيرانها بقلة أصدقائها ، وميلها الى العزلة ، وشغفها بالتريض سيرا على قدميها .. وكانت هذه الرياضة تقودها الى السير على مقربة من المنشئات العسكرية ، اذ كانت جزيرة (وايت) من أهم مراكز الدفاع الجوى عن (بورتسماوث)

ولم تفطن مسز « أوجرادى » الى أن هناك عيونا لاحظت انها كانت تسجل ملاحظات ، وترسم مواقع أثناء سيرها .. فان السلطات فطنت الى أن نزهاتها لم تكن بريئة ، فبدأت تراقبها لتعرف الذين كانت تتصل بهم المرأة وتسلمهم ملاحظاتها ورسومها .. ولكنها لم تلبث ان أضافت الى نشاطها محاولة قطع الأسلاك التليفونية التى تربط الجزيرة بانجلترا ، واذ ذاك اضطرت السلطات الى التدخل فى حركاتها .. ولكن المحققين كانوا تواقين الى أن يعرفوا شركاءها ، فلم يوجهوا اليها تهمة التجسس ، وانما اكتفوا بأن اتهموها بمخالفة القانون والاقتراب من منطقة محرمة .. ثم أخلوا سبيلها بكفالة . واذا

بها تختفى ٠٠ ولكن السلطات استطاعت أن تعثر عليها في (يارموث) ، فقدمت الى المحاكمة - في جلسة سرية - بتهمة الخيانة ٠٠ وظهر من تفتيش دارها انها كانت تحتفظ بمذكرات عن تدابير الدفاع في الجزيرة ٠ وازاء الأدلة الدامغة التى كشفت عنها المحاكمة ، قضى عليها بالاعدام

على ان الخبراء فى مطاردة الجواسيس لم يرتاحوا الى هذه النهاية ، اذ كانوا يدركون ان لابد من وجود صلة بين المرأة وبين جاسوس ألمانى تنقل اليه معلوماتها ، فكانوا شديدى الرغبة فى معرفة هذا الجاسوس ، بينما كانت المرأة شديدة التشبث بالانكار ٠ لذلك سر الخبراء عندما استأنفت مسز أوجرادى الحكم ٠٠ ولكن هذا الاستئناف لم يقرب الخبراء من غايتهم ، اذ حكم القضاء بالغاء الاعدام ، وابداله بالسجن ١٤ عاما ٠٠ وظل الهدف الذى كان يسعى اليه الخبراء محوطا بالغموض ، الى أن قدر لمسز أوجرادى ان تسترد حريتها فى فبراير سنة ١٩٥٠ ، بعد ان قضت ثلثى المدة فى السجن

وكانت تدخر مفاجأة للمسئولين أذهلتهم ٠٠ فقد اعترفت بأنها كانت مريضة بحب الظهور ، وكانت تعانى - منذ صغرها - من عدم اهتمام الناس بها ، مما خلق لها عقدة نفسية ٠٠ فكانت فى صباها تستثير مدرساتها ومعارفها بقصص غريبة ، ذهبت في بعضها الى أنها قتلت أمها ٠٠ولكنها كانت كلها قصصا مختلقة ! ٠٠ وعندما بدأت الحرب ، استدعى زوجها للخدمة فى المطافىء ، فتركها وحيدة مع كلبها الحبيب٠٠ وكان هذا الكلب هو سر البلية ، اذ ان المرأة كانت قد عودته على أن يستحم فى البحر يوميا ، فلما أقيمت استحكامات الدفاع على سواحل الجزيرة ، عز على مسز أوجرادى ان يحرم كلبها من حمامه اليومى ، وكانت تضطر فى سبيل ذلك الى أن تسير مسافات طويلة كى تصل الى بقعة منعزلة وراء الاستحكامات ٠٠ وصادف ذات يوم ان جلست داخل نطاق

الأسلاك الشائكة ، وانصرفت الى القراءة فى كتاب ، بينما كان الكلب يستحم ، فاذا بجنديين يسعيان اليها ويسألانها عما كانت تفعل ٠٠ وكان من الممكن ان ينتهى الأمر عند هذا الحد، لولا أن لاحظ أحد الجنديين علامة الصليب المعقوف مشتبكة بشعرها ٠ فقد كان من المألوف أثناء الحرب ، ان يتتبع الناس سير المعارك على الخرائط مستخدمين دبابيس تحمل أعلام الدول لتعيين مواقع الجيوش ٠وقد حدث ان اشتبك علم ألمانيا ـ وعليه الصليب المعقوف ـ بشعر المرأة دون ان تفطن اليه



ورأى الجنديان فى علامة الصليب المعقوف دليلا دامغا ، فقادوها الى قائدهما الذى أبلغ أمرها الى البوليس ٠٠ **وأدركت أثناء التحقيق انهم ارتابوا فى انها جاسوسة ، فبدأت غريزة « حب الظهور » توحى اليها بأن تزيد من تخبطهم ، وراحت تدافع عن هتلر وسياسته ، والمحقق يسجل أقوالها !** ٠٠ على ان البوليس لم يلبث ان أطلق سراحها ٠٠ وفطنت الى انها كانت تحت المراقبة ـ وان ظن مراقبوها انها كانت غافلة ـ فسولت لها عقدتها النفسية ان تواصل اثارة اهتمام السلطات بشأنها، ومن ثم أخذت تحوم حول الاستحكامات وتدون ملاحظاتها ، وترسم معالمها ٠٠ وكانت بعض الرسوم دقيقة ، وقد سجلت عليها عدد الجنود المرابطين فى المواقع !

وانتهت محاولات السيدة الى ما كانت ترجوه من اثارة

اهتمام السلطات بها ٠٠ ولكن تهوسها دفعها الى المغالاة ، فلما أدركت أن رجال المخابرات كانوا يسعون لمعرفة أى شخص يحتمل ان يكون على اتصال بها لنقل المعلومات الى الأعداء ، نسجت قصة غريبة ، اذ زعمت أن غواصة ألمانية كانت تسعى لتقترب من الشاطىء ، ثم توفد رسولا فى قارب من المطاط يتلقى تقارير السيدة ٠٠ على انها عندما فطنت الى أن الأدلة التى اصطنعتها انقلبت الى قرائن جدية ، جزعت ٠٠ **ثم زين لها تهوسها انها ستخلد فى التاريخ ، كما خلدت « ماتا هارى » وبطلات القصص ٠٠ لذلك رفضت استئناف قضيتها عندما حكم عليها بالاعدام ، ولكن محاميها لم يلبث ان أقنعها**

وقالت المرأة انها استاءت عندما استبدل السجن بالاعدام ! ٠٠ على انها لم تكد تقضى فى السجن أشهرا حتى أفاقت الى ما ألقاها فيه تهوسها ، فأرسلت الى زوجها شرحا وافيا للقصة ٠٠ وبعثت بشرح مشابه الى وزارة الداخلية ، ولكن السلطات لم تحفل بها ٠٠ وكان من حظها ان زوجها لم يفقد ثقته فيها ، فدفعه ولاؤه وحبه لها الى أن يبذل الجهود فى سبيل اخراجها ٠٠ كما انها راحت ترسل الالتماسات تباعا ، الى أن كان شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، اذ أرسلت نداء يائسا الى وزير الداخلية ، فرأى انها قد عوقبت بما فيه الكفاية

وهكذا بدأت القصة بمهزلة وعبث ٠٠ ولكنها انقلبت الى مأساة !

الفصل التاسع عشر

جاسوس أمريكى كاد يغير مجرى الحرب الأخيرة !

◆ **ان** تسلل الجاسوس الى مركز هام فى معسكر العدو عمل جد عسير وخطير ، يستمد الجواسيس القوة على تذليله من موارد عدة ، أهمها : الوطنية ، والجشع المادى أو الرغبة فى

الاثراء ، والطموح ، والتعلق بالمبدأ السياسى أو المثل العليا ٠
ونستطيع ان نقول ان النازية اذا كانت قد حمست بعض الألمان على ركوب الصعاب ، الا انها قل ان حفزت أى معجب بها من غير الألمان على ان يخون وطنه ٠٠ ولعل القضية التالية خير مثال لذلك :

كان بين ديبلوماسيى السفارة الامريكية فى لندن - فى سنة ١٩٣٩ - شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، يدعى « تيلر كنت » ، توحى كل الشواهد بأنه خليق بمستقبل باهر ٠٠ فقد كان ذكيا ، رياضيا ، يجيد اللغات ، وينحدر من أسرة ذات تاريخ سياسى عريق فى الولايات المتحدة ٠٠ وقد رشحته كفاءته لتولى منصب خطير ، اذ كان « كاتب الشفرة » فى السفارة ٠ **وكان الشاب من أصحاب المثل العليا ، كما كان يكره الحرب كراهية بلغ من قوتها انها جعلت عقله ممهدا لأن يتقبل أية فلسفة يخيل اليه انها تناصر شعوره هذا ٠٠ ولهذا اقتنع بمنطق هتلر عندما راح يردد ان اليهودية العالمية هى سبب كل نزاع وحرب**

ولمس جاسوس ألمانى هذا الاستعداد فيه ، فعرفه بسيدة تدعى « أنا فولكوف » ، كانت ابنة أميرال فى أسطول روسيا القيصرية ، ثم استقرت فى انجلترا واكتسبت الجنسية البريطانية بعد انهيار الحكم القيصرى ٠٠ ومع انها كانت فى السابعة والثلاثين من عمرها ، الا انها كانت جميلة ، ذكية ، قوية الشخصية ٠ وقد استطاعت أن تستميل الشاب ، بتأييدها لآرائه ، حتى اذا توثقت الصداقة بينهما ، أخذت تبث فيه أفكارا أخرى بدهاء ولباقة ٠٠ كأن تقول له ان انتهاء الحرب بسرعة يمكن ألمانيا من الاحتفاظ بشىء من القوة يكفى لأن تواصل سياستها فى محاربة اليهود ٠٠ أس البلاء ! ثم تقول ان المعونة الامريكية للحلفاء تطيل أمد الصراع ، وسيكون النفع فى النهاية لليهود ، الذين يؤازرون « روزفلت اليهودى » !

وهكذا انساق « كنت » الى المصيدة ٠٠ وسألته « أنا » فى البداية ان يساعدها فى ارسال رسائلها الى أصدقائها فى ألمانيا ، فاستغل فى ذلك « الحقيبة الديبلوماسية » ٠٠ وما لبثت ان استدرجته الى خطوة ايجابية مباشرة ، فكان يصور الوثائق قبل ان يكتبها بالشفرة ، ويرسل الصور الى أصدقاء



« أنا » فى ألمانيا ٠٠ بالحقيبة الديبلوماسية !٠٠ **وقدر عدد التقارير التى نقل صورها فى شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ بحوالى ١٥٠٠ ، كان بعضها سريا جدا ٠٠ فقد كانت تقارير عن القوات البريطانية وما لديها من معدات ، وعن المدخر فى بريطانيا من أقوات ووقود ، وعما ترسله أمريكا من امدادات ومعونات لبريطانيا ٠٠ وهكذا كانت ألمانيا تعد حملاتها العسكرية وضرباتها على هدى هذه المعلومات ٠ بل ان الألمان دبروا حملاتهم العسكرية الكبيرة - التى شنوها فى ربيع سنة ١٩٤٠ - بمعونة تقارير « كنت » ، ولو ان الحلفاء هزموا اذ ذاك ، لكان هو من أوائل أصحاب الفضل فى انتصار الألمان ٠٠ على انه لم يقم دليل واحد على انه تقاضى أجرا عن جهوده !**

وكان من الممكن ان يواصل « كنت » و « أنا » تجسسهما ، لولا خطأ مألوف كثير الحدوث فى ساعات النجاح ، هو الاهمال٠ فقد سئما تحميض الأفلام بأيديهما ، فعهدا بها الى مصور على مقربة من (فليت ستريت) ، حى الصحافة بلندن ٠٠ وكانت

المخابرات البريطانية تهتم بحركات « أنا فولكوف » منذ زمن طويل ، فلاحظوا الصداقة التى توثقت بينها وبين الديبلوماسى الامريكى الشاب • ثم وافاهم أحد رجالهم يوما بأنه لاحظ ظاهرة غريبة : كان الصديقان يتقابلان فى مسكن المرأة ، ثم يرتادان الملاهى ، ويترددان فى طريقهما على محل مصور صغير • فلما كثر ترددهما على المصور ، تقرب اليه أحد رجال البوليس السرى ، واستطاع أن يستدرجه الى الحديث عن « أنا فولكوف » ، فاذا المصور يكشف عن اعتقاده بأنها تعمل فى السفارة الامريكية ، وان منصبها أباح لها ان تلجأ الى مساعدته فى تحميض أفلام الوثائق !

وانكشف السر !•• وأدت القضية الى عقد عدة مؤتمرات عليا فى لندن ، اذ كانت بريطانيا تخشى ان يثير اتهام الديبلوماسى الامريكى بالتجسس ثائرة الرأى العام الامريكى عليها •• ولكن الأدلة أثبتت أن « كنت » لم يكن يفشى الأسرار التى تمس بريطانيا وحلفاءها فحسب ، وانما أسرار أمريكا أيضا !•• وكان قد مضى على تشرشل أسبوع واحد فى رئاسة الوزارة ، حين أوفد وزير خارجيته « هاليفاكس » الى السفير الامريكى الذى أبى فى البداية ان يصدق الأمر ، ولكنه لم يكد يطلع على الأدلة والقرائن حتى تصرف فى حزم وقوة ، فعزل « كنت » من منصبه فورا ، وبذلك حرمه من الحصانة الديبلوماسية ، وأتاح للسلطات البريطانية ان تعتقل الشاب و « أنا » •• وقضى عليه بالسجن سبع سنوات • أما المرأة فقد عوقبت بالأشغال الشاقة عشر سنوات

ولا سبيل — حتى الآن — لتقدير مدى النتائج التى ترتبت على خيانة « تيلر كنت » فانه لم يقتصر على افشاء أسرار الرسائل التى كانت متبادلة بين بريطانيا وأمريكا فى تلك الفترة الدقيقة ، بل أفشى أيضا أسرار الشفرة الامريكية ذات الطابع السرى العالى ، أى التى كانت تستعمل فى الرسائل

السرية جدا . وقد تكلم السفير الامريكى فى لندن ـ عقب انتهاء الحرب عن القصة .. **فقال ان « كنت » كان مكلفا بشفرة لا سبيل لغيره الى حل رموزها ، فلما اعتقل انقطعت الاتصالات الديبلوماسية بين لندن وبين أمريكا ، ثم بين السفارة الامريكية فى لندن وبين جميع السفارات الامريكية فى العالم ، حوالى ستة أسابيع ، ريثما وصل خبراء بشفرات جديدة من واشنطن .. وكان ذلك في أحرج فترات الحرب .. فترة سقوط فرنسا والانسحاب من دنكرك !**

على ان قصة « كنت » لم تنته عند هذا الحد ، فما ان أذيع نبأ اعتقاله ، حتى ثار غضب بعض الدوائر الامريكية لاسيما أنصار العزلة والجماعات التى يؤلفها أمريكيون من أصول معادية لانجلترا ـ كالايرلنديين ـ وذهب بعضهم الى القول بأن القصة كلها دسيسة من تدبير المخابرات البريطانية لجر أمريكا الى الحرب !

ومن الطريف ان « كنت » لم يكد يسترد حريته فى سنة ١٩٤٥ ، حتى عاد الى نيويورك ، فاحتفت به الهيئات المعادية لبريطانيا ولليهود كبطل مظلوم ، بينما بادر هو الى مقاضاة وزارة الخارجية الامريكية ، متهما اياها بفصله بطريقة غير قانونية ، ولكن القضاء خذله !

الفصل العشرون

صيادو الجواسيس !

• **من** المألوف أن تنكر كل دولة أعمال جاسوسيتها فى الخارج ، وأن تعترف بأن لديها ادارة لمقاومة الجاسوسية فى الداخل .. بل ان بعض الدول يرى ان الاعلان عن هذه الادارة مستحب ، لأنه يرهب الجواسيس . وقد تحدثت فى فصل

سابق عن نشأة ادارة مقاومة الجاسوسية البريطانية و « القلم الخاص » ، وهمـا جهازان صغيران نسبيا ـ اذا قيسا بباقى فروع المخابرات السرية ـ اذ أن عدد رجالهما لا يزيد عن ٢٠٠ فى وقت السلم ، ولكن قوات البوليس فى الدولة كلها تحت تصرفهمـا • وفى أوقات الحـرب ، تتضخم ادارة مقاومة الجاسوسية ، لأن رقابة البريد والاذاعة وحـدها تحتاج الى خمسة آلاف شخص من الملمين بمعظم لغات العالم

وتعتبر « التوافه » من أهم العنـاصر المساعدة لصـيادى الجواسيس ، فكم من جاسوس فضح سره لأن مراقبـا سريع البديهة لاحظ عليه شيئا غير مألوف • وقد حدث ان استطاع ألمانى ، أثناء الحرب الماضية ، ان ينزل على الشاطىء البريطانى ليلا من احدى الغواصـات ـ وكان يتكلم الانجليزية بطلاقة ، ويحمل بطاقة شـخصية مزورة باتقـان ، ودفترا لبطاقات التموين ـ ثم سـار على طول الشاطىء حوالى ميلين ، حتى صادف قرية فسرق منها دراجة استقلهـا وانطلق فى الطريق المرسومة له •• **ولكن البوليس قبض عليه قبل ان يقطع ٤٠٠ ياردة ، لا لشىء الا لأنه نسى أن المرور فى انجلترا على الجانب الأيسر لا الأيمن !** •• وحـدث ان نزل جاسـوس آخر فى اسكتلندا ، فقصد الى أقرب محطة للسكك الحـديدية ، وطلب تذكرة لأبردين ، فقال له العامل : « اثنان وعشرة » •• **وكان يقصد شلنين وعشرة بنسات ، ولكن الجاسوس قدم له جنيهين وعشرة شلنات •• وكان الفرق أكبر من أن يكون مجرد سهو، مما أثار الشك فى نفس العامل ، فأبلغ الأمر للبوليس !**

وحدث فى الحرب العالمية الأولى ان أراد جاسوسان ألمانيان ان يبرقا الى رئيسهما فى الخارج ببيان عن عدد السفن الراسية فى ميناء (بورتسماوث) وأنواعها ، فأرسـلا برقية يطلبـان فيها كميات من السيجار من شركة فى (روتردام) • وكانت الكميات التى طلباها : ٤٠٠٠ سيجار هافانا ، و٧٠٠٠ سيجار

كوبا ٠٠ وكانت حيلة بارعة للارشاد الى وجود ٤ بوارج و٧ طرادات ٠ **ولكن الرقيب فطن الى هذه الحيلة لأمرين تافهين : أولهما ، ان بحارة بورتسماوث وأهلهـا لا يدخنون السيجار الغالى الفاخر الا نادرا ٠٠ وثانيهما ، ان الكمية المطلوبة كانت تعادل ما تستهلكه المدينة من السيجار فى مدة عام !**

وأرسل الألمان الى فرنسا - ذات مرة - فتاة سويسرية لتكتب تقريرا عن مواقع الفرق المتحالفة ، فكانت تطرز شكل وردة حول أزرار ثيابها الداخلية ، فترمز بالوردة المؤلفة من ٢١ غرزة - مثلا - الى الفرقة الواحدة والعشرين ٠٠ وكانت ترمز للفرق الاحتياطية بفراشات كل منها مؤلفة من عدد من الغرز يعادل رقم الفرقة ٠ واستطاعت الفتـاة ان تتنقل بين فرنسا وسويسرا اثنتى عشرة مرة ، دون أن يرتاب أحد فى أمرها ٠٠ **ثم حملها البخل على ان تبتاع أصنافا رخيصة من الثياب الداخلية كان الفرق بينها وبين ما بقى لديها من الملابس الغالية فرقا واضحا ملموسا ، كما ان رخصها لم يكن يؤهلها لهذا التطريز الدقيق٠٠ومن ثم حامت حولها الشبهات ، فتعقبها صيادو الجواسيس حتى تمكنوا من تقديمها للمحاكمة ، فقضى عليها بالاعدام !٠٠ كل هـذا لمجرد ان سيدة من مفتشات الجمارك فطنت الى هذه الفوارق التى قد لا ينتبه اليها رجل !**

وعندما لجأ الزعيم النازى « هيس » الى انجلترا - فى الحرب الماضية - لحق به جاسوسان نازيان لاغتيـاله ٠٠ وهبطا فى اسكتلندا ، فذهبا الى احدى محطات السكك الحديدية ، وابتاع أحدهما تذكرة للندن ٠٠ وتقدم الثانى الى « شباك التذاكر » ، فسأله العامل : « أذاهب أنت الآخر الى لندن ؟ » ٠٠ **وفى غفلة من الرجل ، قال : « نعم » ، ولكن ٠٠ باللغـة الألمـانية !٠٠ وكانت زلة لسان ، أوقعته وزميله فى أيدى السلطات !**

وتخف أعباء صيادى الجواسيس كثيرا ، لو ان الجمهور عرف كيف يقاوم الشائعات والأنباء الكاذبة ، لأن الجواسيس كثيرا

ما يتخذون من هذه المواد أسلحة لاثارة الخواطر والاضطرابات والذعر ٠٠ كما ان التجارب أثبتت ان هيئات مقاومة الجاسوسية يجب ان تحيط أعمالهـا بسرية تامة لا تقل عن السرية التى يتذرع بها الجواسيس الذين تطاردهم !

ومما يؤثر عن نابليون انه قال يوما : « لو ان ملوك فرنسا كانوا يملكون نظاما صالحا لمقاومة الجاسوسية ، لما أتيح لى ان أفر من البا » !

الفصل الحادى والعشرون

مكتب التحريات الأمريكى

◆ **يعتبر** الأمريكيون محدثين نسبيا فى فنون الجاسوسية ٠٠ فقد بدأت مخابراتهم السرية ـ كادارة رسمية ـ فى الحرب العالمية الأولى ، وكانت تتألف عند مولدها من ضابطين اثنين ! ومع ذلك فان الحرب لم تنته حتى كانت هذه الادارة الناشئة قد اكتسبت احترام حلفاء بلادها لما وفقت اليـه من معلومات واستنتاجات صحيحة ! ٠٠ ولقد كان من جراء تعـدد الجنسيات التى تألف منهـا الشعب الأمريكى ، أن تيسرت للجاسوسية الأمريكية فرص واسعة ٠ فان المواطن الانجليزى قد لا يسهل عليـه أن ينتحل شخصية مواطن ألمانى ، على خلاف المواطن الأمريكى ٠٠ اذ أن فى أمريكا ثلاثة عشر مليونا من أصل ألمانى !

على ان اختلاط الجنسيات كان ـ من ناحية أخرى ـ مصدر خطر لا سبيل الى التغاضى عنه ، لأن هذه الملايين الثلاثة عشر تضم نسبة كبيرة ممن يحتفظون بالولاء والعطف عـلى وطنهم الأصلى ٠٠ فكانت هذه الحقيقة سببا فى أن أصبحت مقـاومة الجاسوسية فى أمريكا عظيمة الأهمية ! ٠٠ وقـد كان مكتب التحـريات الاتحادى ـ أى التابع للحكومة الاتحـادية ـ هو الأساس الذى قامت عليه هذه المقاومة ٠ فقد تأسس المكتب فى

سنة ١٩٠٨ ، ولم يكن ثمة مناص من أن يجرفه تيار السياسة. على انه استطاع - فى سنة ١٩٢٤ - أن يتخلص من التيار السياسى ، وكان نجاحه فى ذلك سريعا حاسما ، فهبطت حوادث السطو على المصارف من ٦٠٦ حوادث الى ٤٢ حادثة فى عشر سنوات .. واستطاع المكتب أن يوفق فى حل ٢٤٩ من ٢٥١ حادث اختطاف . **ذلك لأن مكتب التحريات الاتحادى حذق اللغة التى كان يفهمها رجال العصابات الذين استفحل نفوذهم فى أمريكا اذ ذاك ، كما استطاع أن ينظم البوليس المحلى، بحيث لم يعد أفراده من محاسيب السياسيين ، وانما أصبحوا اداة قوية ، منظمة ، لا تستميلها الرشوة ، ولا يثنيها عن صون القانون أى اعتبار !**

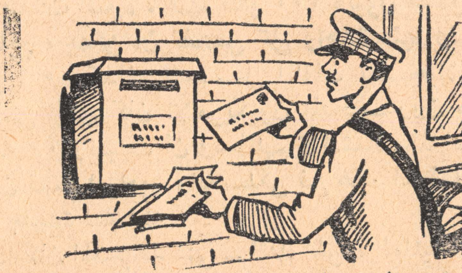
وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ، وكلت الى المكتب مهام كان قد باشرها من قبل ، هى مقاومة الجاسوسية ومنع التخريب والحيلولة دون كل ما يخالف لوائح الحياد ونظمه. **وقد أتيح لى أن أطلع على بعض الأساليب والنظم التى استنها المكتب ، فاذا هو مزود بأوسع وأدق نظام للملفات والمحفوظات، يضم بيانات كثيرة ، منها نحو ١٠٠ مليون مجموعة من بصمات الأصابع ، يمكن أن تفحص كل واحدة منها وتراجع فى ثلاث دقائق !** .. كذلك تشمل الملفات تسجيلا دقيقا للنشاط السياسى الذى كان الأمريكيون المنحدرون من أصل ألمانى يبدونه .. وتبينت أن وسائلهم لاكتشاف المداد السرى رائعة، كما ان قسم الراديو واللاسلكى فى هذه المنظمة دائب على فتح آفاق جديدة لنشاطه

واذا كان المكتب قد عنى - أثناء الحرب العالمية الأولى - بايقاف حوادث التخريب ، فانه حرص فى الحرب الثانية على أن يمنع هذه الحوادث قبل وقوعها . ولم يكن يضايق رجال المكتب سوى العقبات التى كانت تثيرها فى وجوههم الحرية السياسية التى

تمتاز بها الولايات المتحدة الأمريكية ! ٠٠ ففى أيام الحياد ، كان فى وسع الأمريكيين المنحدرين من أصل ألمانى أن يؤلفوا جمعيات تناصر ألمانيا ، وأن ينظموا هيئات عسكرية كفرق العاصفة النازية ! ٠٠ على ان الولايات المتحدة لم تلبث أن دخلت الحرب، فزادت سلطات المكتب فى الحال ، واستغلت أحسن استغلال ٠ وينم فحص بعض قضاياه الهامة عن ظواهر ذات شأن كبير

الألمان يحصلون على أسرار أمريكا باسم رئيسها !

◆ **ولعل** أول اتصال لمكتب التحريات الأمريكى بأحداث الحرب العالمية الثانية ، هو ذاك الذى حدث عند ازاحة الستار عن شبكة الجاسوسية النازية فى (اسكتلندا) ٠ ففى سنة ١٩٣٧ ، كانت تعيش فى شارع محترم بمدينة (دندى) ، حلاقة متوسطة العمر تدعى مسز « جامى جوردان » ٠٠ وقد استرعى نظر موزع البريد فى ذلك الشارع ، ان هذه الحلاقة كانت تتلقى رسائل كثيرة من بلدان عديدة ٠٠ فأسر الى البوليس بهواجسه،



وسرعان ما كشفت التحريات عن ان مسز جوردان آرملة ألمانى قتل فى الحرب العالمية الأولى ٠٠ ثم ظهر انها بمثابة « صندوق بريد » للجواسيس الألمان ، وكان معظم عملائها من المقيمين فى أمريكا !

وبادرت السلطات البريطانية الى ابلاغ مكتب التحـريات الأمريكى بذلك ، فاذا المكتب يتبين ان أمريكا كانت على شـفا مؤامرة نازية محكمة ·· **اذ كانت هناك عصابة من الأمريكيين ، المنحدرين من أصل ألماني ، تدبر الخطط لسرقة الورق الأبيض الذى اعتاد رئيس الولايات المتحدة أن يسجل عليه ملاحظاته ، ثم تستغله في توجيه رسائل للحصول على أسرار من وزارات الجيش والحربية والطيران ، وكأن هذه المعلومات مطلوبة للرئيس نفسه !**

وبدأ المكتب يعمل ، ولكن الصعوبات التى اعترضت طريقه كانت عسيرة التذليل ·· وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٣٨ ، والألمان في أمريكا يتمتعون بحريات واسـعة ، فيؤلفون فرق العاصـفة النازية ويتدربون علنا فى الأماكن العامة · ولكن القدر لم يلبث أن مال الى مساعدة مكتب التحريات ، فاذا بأحد المتآمرين يرتكب غلطة مفاجئة ، من النوع الذى يسمى «فلتة»! ·· **اذ استهان بقوة الأمن فى أمريكا ، واتصل تليفونيا برئيس ادارة جـوازات السفر ـ منتحلا شخصية وزير الخارجيـة الأمريكية ـ وطلب موافاته بخمسة وثلاثين جوازا جديدا (على بياض) ·· وكان يرجو ـ من وراء ذلك ـ أن يستغل الجوازات فى تمكين الجواسيس الألمان من دخول أمريكا !**

على ان ادارة جوازات السفر لم تكن من الغفلة بالدرجة التى حسبها ذلك الألمـانى ـ وكان يدعى « رومريخ » ـ وكان من نتائج يقظتها أن تولى مكتب التحريات الأمر ، وأعد للمتآمرين شركا تمكن به من اعتقال « رومريخ » ·· ولكن أحـد رجال البوليس ارتكب بدوره « فلتة » ، اذ أفشى القصـة للصحف ، فانتبه النازيون واتخذوا حـذرهم ، وبادر زعماء الحركة الى الاختفـاء فى الحـال ، فلم تستطع السلطات اعتقـال أهم شخصياتهم !

وظهر ان « رومريخ » كان واحدا من الذين راسلتهم مسز جوردان ، وانه كان مجرما لا يعمل الا من أجل المال ! ٠٠ وما لبث أن قرر رومريخ الاعتراف ، فأفضى بقصة أغرب من الخيال ، كشف فيها عن انه كان فى (همبورج) رجل – يدعى « كارل شلوتر » – موكل بتنظيم الجاسوسية فى أمريكا ، تعاونه سيدة تدعى « يوهانا هوفمان » ٠٠ **فكانا يتصلان بالأمريكين ذوى الأصل الألمانى ، والذين اعتادوا زيارة ألمانيا قبل الحرب ، ويغريانهم بالتجسس ، ويكلفانهم بالاتصال – فور عودتهم الى أمريكا – بالشبان الغارقين فى الديون ، والشيوخ الذين يعولون أسرات كبيرة العدد ، وأن يستدرجوهم بالتهديد أو الاحتيال أو الفتيات ، على التجسس [illegible]حة ألمانيا !**

واختتم رومريخ اعترافاته بأن شلوتر ومساعدته كانا اذ ذاك فى طريقهما الى أمريكا ٠٠ على ان اقدام الصحف على نشر المؤامرة نبه شلوتر فى الوقت المناسب ، فلم يمض فى رحلته ٠ ولكن مساعدته وصلت على سفينة ألمانية تدعى « يوروبا » ، منتحلة اسما مستعارا ، وزاعمة انها حلاقة ٠ وراقبها رجال المكتب ، ثم اعتقلوها وزجوا بها فى السجن ٠ واستطاع رومريخ أن يتعرف عليها ، وأن يكشف حقيقة شخصيتها ، كما استطاع رجال مكتب التحريات أن يعثروا فى الحجرة التى كانت تشغلها – على السفينة – على عدد من الرسائل المكتوبة بالشفرة ، وأن يعثروا على مفتاح هذه الشفرة فى حقيبة يدها !

وهكذا كانت « يوهانا » – رغم جرأتها وكفاءتها – ضحية لاهمالها ٠٠ ولكنها لم تكن الضحية الوحيدة ، اذ كشف اعتقالها الستار عن جواسيس آخرين ! ٠٠ فاذا بين جواسيس ألمانيا النازية جاسوس يدعى « اريك جليزر » ، بلغ من دهائه انه استطاع أن يلتحق بالجيش الأمريكى – رغم انه كان حديث العهد بالهجرة الى أمريكا ، وكان لا يتقن الانجليزية – وتمكن

وهو فى أحد معسكرات القوات الجوية من أن ينقل صحيفتين من كتاب الشفرة الذى يعتبر من الأسرار الأمريكية العليا !

كذلك كان من ضحايا اهمال « يوهانا » جراح معروف ، هو الدكتور « ا· ت· جريبل » ، الذى زار ألمانيا مع عشيقة له كان يزعم انها زوجته ، وهناك اتصل به شلوتر واجتذبه الى شبكة الجاسوسية ·· وكان « جريبل » من قادة الحركة النازية فى أمريكا – قبيل الحرب – كما كان يجهر بسخريته من كل ما هو أمريكى ، وبعطفه على ألمانيا وعلى المذهب النازى بالذات !·· وقد وجدت معه شفرة كان يخفيها فى علبة من علب الثقاب ، كما وجد اسمه فى قائمة الذين كانوا يراسلون الحلاقة الاسكتلندية !

واذا كان رومريخ جاسوسا من طبقة دنيئة ، فان الدكتور جريبل كان ذكيا ، وكان ذا مكانة ، فلم يجد رجال مكتب التحريات وسيلة للتغلب على عناده الا بتهديده بالفضيحة ·· أى باذاعة معاشرته للمرأة التى كان يزعم انها زوجته !·· **وبقدر ما كان مصرا على الصمت ، اندفع – بعد هذا التهديد – فى اعترافاته ، دون أن يقف عند حد ، فكشف أمر عشرين جاسوسا فى الولايات المتحدة ، كان بعضهم فى مناصب مكنتهم من الحصول على تصميمات لاختراعات حربية سرية !** ·· على ان رجال المكتب لم يحصلوا على كل ما كان فى جعبة « جريبل » ، اذ انه هرب بعد أن أفرجت عنه السلطات بكفالة ·· أو لعله اختطف وارسل الى ألمانيا ! ·· ولكنه ترك وراءه من الأدلة ما كان كافيا لادانة عدد كبير من الجواسيس النازيين فى أمريكا !

وتعلم مكتب التحريات من قضية « جريبل » دروسا أفادته ·· تعلم ان أى نظام لمقاومة الجاسوسية لا يمكن أن يكون كاملا ، وانما هو فى حاجة دائما الى تفقده وسد ما يتكشف من ثغرات خلاله ·· كذلك تعلم ان رجل المخابرات السرية يجب أن ينأى

عن الصحفيين ، وأن يكون على حذر فى اتصالاته بهم ٠٠ وان القانون مخطىء فى تحمسه للحريات الى الدرجة التى تضطر السلطات الى الافراج عن المتهم بالتجسس مقابل كفالة !

المخابرات الأمريكية تتعلم على أيدى « اسكتلنديارد » !

◆ **على** ان المكتب لم يلبث أن اتخذ مسلكا أشد حزما من ذى قبل ، بمجرد قيام الحرب ، فاستكمل جهازه حتى بلغ عدد رجاله خمسة عشر ألفا ، وأوفد بعثات الى انجلترا لدراسة أحدث الطرق الفنية التى كان يتبعها « القلم الخاص » فى « اسكتلنديارد »

وقبل أن يحدث الهجوم اليابانى المفاجىء على الأسطول الأمريكى فى قاعدة (بيرل هاربور) ، انهمك رجال المكتب فى فحص حالات آلاف ممن كان يحتمل أن يصبحوا خطرين ٠٠ **وعلى أضواء هذه الدراسات ، تمكنت السلطات الأمريكية ـ فى خلال ٤٨ ساعة بعد ذلك الهجوم ـ من اعتقال ١٧٧١ شخصا ، كما احتجزت ١٢ ألف شخص للتحرى عنهم والتحقيق معهم ، واكتشفت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ٠٠**

ولم تكن كل النتائج التى توصل اليها المكتب وليدة الأساليب العلمية ، بل انه كان يتبع أحيانا الأساليب القديمة فى مكافحة الجاسوسية ، كما حدث فى قضية « أوجست باوماير » ٠٠ وكان أمريكيا نازيا من أصل ألمانى ، يمتلك مطعما تحول الى مركز عام لجمعية نازية سياسية كانت تسمى «بوند»، ثم انقلب الى مركز للتجسس ولاخفاء الأسرى الألمان الذين كانوا يفرون من كندا ٠٠ وقد انتحل أحد رجال المكتب شخصية أسير هارب ، واختبأ فى مخزن المطعم ، حيث أقام جهاز ارسال لاسلكى قصير الموجة ، وأخذ يرسل عن طريقه تقاريره الى المكتب ، مزودا زملاءه بالمعلومات التي أدت الي اعتقال عصابة كبيرة !

على أن أعظم أعمال مكتب التحريات ـ في مضمار الجاسوسية ـ حدث قبيل قيام الحرب بوقت قصير ·· ففي سنة ١٩٣٩ ، قام أمريكي ألماني الأصل ـ يدعى « وليم شيبولد » ـ بزيارة بعض أقاربه في ألمانيا ، فاتصل به منظمو الجاسوسية وراحوا يغرونه على التعاون معهم ·· وكان الرجل أكثر ولاء لأمريكا منه لألمانيا ، فاتصل بأقرب قنصل أمريكي وشاوره في الأمر ، ثم وافق على ما عرض عليه ، فكلف بأن يحمل معه بعض رسائل الى الولايات المتحدة ، وأن ينشيء هناك محطة لاسلكية يبعث عن طريقها بتقاريره !

وعندما وصل الى أمريكا ، تولى رجال مكتب التحريات الأمر ، فاستخدموا أموال النازيين وأجهزتهم ، وأرسل شيبولد ـ بارشاداتهم ـ ٥٠٠ رسالة كان أكثرها مصوغا بمهارة للتضليل ·· وأفلحت الخطة ، حتى ان الألمان وثقوا فيه ، وأخذوا يوصون جواسيسهم الآخرين باستخدام الجهاز اللاسلكي الذى كان فى حوزته ! ·· **وهكذا أتيح لشيبولد أن يتعرف الى ٧١ جاسوسا ألمانيا ·· وعندما اعتقلوا ووجهت اليهم تهمة الجاسوسية ، قدم رجال المكتب الى القضاء أفلاما سينمائية التقطت لهؤلاء الجواسيس أثناء ترددهم على مكتب شيبولد ، وتسجيلات لأحاديثهم !**

ومن أهم الأعمال التى وفق فيها مكتب التحريات ـ أثناء الحرب ـ اعتقال ثمانية من المخبرين الألمان الذين نزلوا على سواحل فلوريدا ولونج ايلاند ، فى يونيو سنة ١٩٤٢ ، وكان أربعة منهم فى ثياب عسكرية ألمانية ·· وكادت المسألة تبدو مجرد محاولة فاشلة ، لولا ان أثبتت التحريات انها كانت حركة واسعة لابعاد أنظار رجال المكتب عن مسائل أخرى أكثر خطورة ··

ولكن أبرع أعمال المكتب جميعها ، هو انه أبى أن يسلم بانتهاء

الحرب ، عقب انهيار مقاومة ألمانيا واليابان ٠٠ ومع انه خفض عدد رجاله ، الا انه احتفظ بالجهاز معدا ومهيـــأ للعمل فى أى وقت !

الفصل الثانى والعشرون

الألمان خسروا حرب ١٩١٤ ٠٠ بسبب شائعة !

◆ **أتيح** لى فى ســـنة ١٩٣٧ أن أشاهـــد بعض المناورات الألمانية ٠ وفى ذات ليلة ، أخذ ضباط أركان الحرب يسألوننى عن معركة (المارن) التى وقعت فى ســـنة ١٩١٤ ٠٠ وكان الموضوع من الموضوعات التى يحق للعسكريين أن يناقشوها ، فضلا عن ان المعركة كانت من المعارك الحاسمة فى الحرب العالمية الأولى ٠٠ وكان الألمان قد توغلوا فى فرنســـا ، ولم يتمكن الحلفاء من ايقافهم الا عند نهر (المارن) ، بالقرب من باريس ٠٠ وكانت المعركة متأرجحة بيننا وبينهم ، اذ ان التقهقر لمسافات طويلة أوهن قواتنا ، ولكن تراجع الألمان عند (المارن) ـ رغم انه لم يكن طويل المدى ـ سجل أول هزيمة لهم ، ولهذا كانت المعركة تعتبر حاسمة ٠٠ فقد كان فى وسع الألمان أن يكسبوا الحرب كلها لو انهم فازوا فى هذه المعركة بالذات ، فى الوقت الذى كنا فى حاجة الى أربع سنوات أخرى لنحرز النصر الذى لم يواتنا الا فى سنة ١٩١٨ !

ولم يبد الضـــباط الالمان ـ فى حـــديثهم معى ـ اهتماما بالحركات الاستراتيجية والفنون فى هذه المعركة الهامة ، وانما انصب اهتمامهم على ناحية نعتبرها الآن « مهزلة » كبرى ٠٠ تلك هى : مـــرور الروس الى الميـــدان الغربى ـ عن طريق بريطانيا ـ فى الأسابيع الأولى من تلك الحـــرب ! ٠٠ والذين عاصروا تلك الفترة يذكرون الأمر جيدا ٠ والواقع أنه لم يكن

هناك روس على الاطـلاق ، ولكن آلافا من مروجى الشائعات والمبالغين زعموا انهم رأوهم ٠٠ بل ذهبوا الى وصفهم زاعمين انهم شاهـدوهم ينفضون الثلج عن أحذيتهم ! **٠٠ وحقيقة ما حدث هو ان قطارا مليئا بجنـود « الهايلاندرز » وقف فى محطة بجنـوب انجلترا ، فدهش أحـد الحمالين ، وسألهم عن المكان الذى جاءوا منه ، فأجاب أحدهم : « جئنا من روسشاير »، فالتبس الأمر على الحمال وظنه يقصد (روسيا) !**

وصادف أن كان فى اسكتلندا ـ اذ ذاك ـ جاسوس ألمـانى يدعى « كارل لودى » ، كان تحت رقابة المخابرات السرية دون أن يفطن ، وقد تبين أنه أوقف جميع الاتصالات التى كانت بينه وبين زميل له فى السويد ٠٠ ولكنه حين علم بأمر هؤلاء الجنود، كتب اليه يصفهم ، وزعم انه رآهم بعينيه فى محطة (دندى) ! ٠٠ وما أن تسلم الجاسوس الألمانى فى السويد رسالة زميله ، حتى أخطر هيئة أركان الحرب الألمانية العامة !

وكان الجيش الألمـانى القـوى مرتبطا بعمليات حربية فى فرنسا ، وقد طالت خطوط مواصلاته الممتدة من ألمانيا ـ عبر بلجيكا ـ الى فرنسا ٠ ولو ان الروس اسـتطاعوا النزول فى بلجيكا ، كما زعمت الأقاويل فى ذلك الحين ، لقطعوا هـذه الخطوط ولحاقت بالجيش الألمـانى كارثة ٠٠ **ومن ثم خصص الألمان من جيشهم الرئيسى فرقتين لحراسة الساحل البلجيكى ، قبل معركة (المارن) بأسبوعين فقط ٠٠ ولو ان هاتين الفرقتين خاضتا المعركة مع الجيش ، لأتيح للألمان أن يكسبوها !**

ومن هنـا يمكن القـول بأن الألمان خسروا المعركة بسبب شائعة !

ولقد جاءت الشائعة ـ فى سنة ١٩١٤ ـ مجرد مصـادفة عارضة ٠ ولكن الألمان كانوا ـ فى سنة ١٩٣٧ ـ يضعون الخطط لاستخدام الشائعات كسلاح فعال ٠ ومن هنا كان الحاح ضباط

أركان الحرب فى السؤال عن هذه القصة الغريبة !

« فظائع الألمان » فى الحروب ٠٠ ليست الا شائعات !

◆ **على** ان سلاح الشائعات ـ فى حد ذاته ـ ليس بالشىء الجديد ٠٠ فان التاريخ يحدثنا عن آثاره فى حروب جرت منذ ألف عام٠كما ان الشائعات لعبت دورا كبيرا فى اضعاف الروح المعنوية لدى الايطاليين قبيل هزيمتهم فى معركة (كابوريتو) ، فى الحرب العالمية الأولى ٠٠ وقد صرح « لودندورف » ـ رئيس أركان حرب الجيش الألمانى فى تلك الحرب ـ بأن الدعاية والشائعات قد أحدثتا « أثرا مدمرا للروح المعنوية لدى الشعب الألمانى » !

والفرق بسيط بين الشائعة ـ كسلاح من أسلحة الحرب ـ والدعاية ، التى تعتبر بدورها سلاحا رئيسيا : فكل من السلاحين يعتمد على جهل الانسان وضعفه ، وكل منهما يشهر فى اللحظات الهستيرية التى تتخلل الحرب ٠ ولكن أساليبهما تختلف اختلافا ايجابيا !

ولقد عرفنا « الدعاية » فى الحرب العالمية الأولى ٠٠ **كانت تتدفق فى اسفاف جعل للكلمة البريئة وقعا قبيحا تنفر منه الأسماع ! ٠٠ أجل ، أصبحت كلمة « الدعاية » توحى بتشويه الحقائق ، بل وبالكذب ٠٠ وقد صدق من قال : « الصدق هو أول المصابين بعد اعلان الحرب ٠٠ فان الزور والتمويه باتا من الأسلحة المعترف بها فى الحرب » !**

وكانت بريطانيا من أكثر الدول استغلالا للدعاية فى الحرب العالمية الأولى ، وان كانت الوسائل التى اتبعت فى تلك الأيام وسائل مبتسرة ، غير ناضجة ٠٠ وكان هدفها الأول اثارة حمى الحرب فى الشعب ، اذ كان معظم الناس يتصورون الحرب سلسلة من المناوشات ! ٠٠ وانتهت السلطات ـ فى ذلك الحين ـ

الى ان أفضل اتجاه للدعاية هو اثارة البغضاء فى نفوس الشعب ضد العسكريين الألمان ، وذلك باختلاق سلسله من الشائعات عما أطلقوا عليه اذ ذاك : « فظائع الألمان » !

ويميل المستوى الأخلاقى فى الجيوش الى الانحدار عندما يوفد الجنود الى ميادين فى خارج بلادهم ، لا سيما اذا وجدوا أنفسهم فى مناطق فتحوها بقوة السلاح ·· ومن ثم فان قصص النهب وهتك الأعراض ـ فى البلاد المحتلة ـ ليست كلها دعايه، بل ان أمثالها تقع بالفعل وتعتبر اسوأ جزء من ثمن الحرب ! ·· ولكن دعاية الحلفاء لتنفير الشعوب من « فظائع الألمان » اتجهت اتجاها آخر ، اذ زعمت ان الألمان كانوا يبترون أيدى الاطفال، ويصلبون الكنديين ، ويشقون صدور النساء بالسونكى ·· وكانت كل شائعة تتضخم بالمبالغات ، وتنتشر بسرعة ، دون أن يكون لها أساس من الواقع ·· ولم يكن لدى الناس ما يمكنهم من أن يمحصوا تلك الشائعات ليعرفوا الصادق منها والكاذب، ومن ثم فانهم كانوا يصدقونها فى أول الأمر ، ولكنهم ما لبثوا أن بدأوا يرتابون فى صحتها ·· ثم أدت المبالغة فيها الى عكس ما كان يرجى منها · **وحدث هذا بصفة خاصة عندما أشيع ان لدى الألمان مؤسسة لاستغلال جثث القتلى ، تذيب جثث الضحايا من جنودهم لاستخراج ما فيها من شحم ودهن ·· واستطاع القائمون على الدعاية أن يهيئوا صورا تدعم هذا الزعم · ثم فطن المتعلمون الى ان الاسم الألمانى لتلك المؤسسة ـ كما روجه الحلفاء فى دعايتهم ـ يوحى باستغلال جثث الحيوان لا الانسان ، فتزعزعت ثقة الناس فى الدعاية !** ·· وهذه ظاهرة مألوفة فى هذا السلاح من أسلحة الحرب ، اذ ان الدعاية لا تلبث أن تنقلب على نفسها ، فانك اذا أسرفت فى اثارة أحقاد الناس ، لا تلبث أن تولد فى نفوسهم شيئا من الخوف يصحب هذه الأحقاد ، كما ظهر في التهوس الذى أصاب الشعب

البريطانى ازاء الجاسوسية فى الحرب العالمية الأولى ، حتى أصبح كل انسان يشك فى أن جاره جاسوس ، مما ضايق السلطات وسبب لها الكثير من العناء !

والواقع اننا لا نجد سلاحا أخطر فى ارتداده الى مشهره من سلاح الدعاية ، لا سيما اذا كانت هذه الدعاية كاذبة ٠٠ و « الهستيريا » الجماعية ليست بالشىء الذى تتعذر اثارته بين الناس ، ولكنها اذا أفلتت من عقالها وجمحت أصبحت خطرا من المستحيل السيطرة عليه !

هذا السلاح الفتاك ٠٠ أجدر بمزيد من العناية !

◆ **وفى** خلال الحرب ، تميل ملكة الانتقاد عند الناس الى الاختفاء ٠ وقد دلتني تجاربي ودراساتى على ان الناس لا يفحصون الدعاية بالدقة اللازمة ، بل انهم يتلقفون الشائعات ويرددونها ويبالغون فيها ٠٠ ومن ثم فان الشائعات ـ فى الدعاية ـ تستغل نقط الضعف فى العقول ، حتى يصدقها الناس فى بساطة ٠٠ ولو ان الشائعة التى ذكرناها من قبل عن نزول الروس فى انجلترا ليصلوا الى الجبهة الغربية ٠٠ لو ان هذه الشائعة محصت وفحصت عندما ذاعت فى انجلترا ، لما صمدت أمام أى عقل ذكى !

كنت و « أومباشى » فرنسى نستقل دراجتين ، خارج مدينة (آراس) فى سنة ١٩١٦ ، عندما انفجرت اطارات الدراجتين معا ، فلم نجد بدا من أن نقلبهما ونعمل على اصلاح الاطارات ٠٠ وكان على حافة الطريق سد من التراب ، تقوم خلفه مدرسة للتدريب على اطلاق القنابل ٠ وفيما كنا منهمكين فى عملنا ، وقفت سيارة هبط منها رجل التقط صورة ، فلم ينقض أسبوع أو أسبوعان حتى نشرت الصورة فى عدد من الصحف وقد كتب تحتها : « جنديان بريطانيان يصلحان دراجتيهما فى طمأنينة



تحت سيل القذائف » ! ٠٠ وسرعان ما انهمرت علينا الخطابات ممن تعرفوا علينا في الصورة ـ من الأصدقاء ـ دون أن يساور أحد الشك فى صحة الصورة ، اذ كانت سحب التراب التى أثارتها قذائف المدربين توحى بجو ميدان القتال !

ولقد أتيح لى أن أدرس خصائص العقل البشرى ، اذ وجدت نفسى ـ فى شتاء سنة ١٩٣٩ ـ فى فرنسا ، حيث توفرت على دراسة آثار الشائعات فى الجنود والمدنيين ٠٠ وتبينت ان الألمان ابتكروا أسلوبا جديدا فى الشتاء الأول للحرب ، هو ترويج كل شائعة قديمة لبلبلة عقول الفرنسيين وتهيئتها لتصديق كل شىء ٠٠ **وقد أفلحوا في ذلك ، فلم تكد المقاومة الفرنسية تنهار ، حتى أخذ سكان القرى يهربون من قراهم على غير هدى ، وفى كل اتجاه ، معرقلين تقدم وحدات الجيش التى كانت تسعى للوصول الى العدو ٠ وكان أنكى ما فى المأساة ، ان الناس كانوا يفرون من لا شىء ٠٠ أو بالأحرى ، كانوا يفرون من الشائعات التى زعمت ان الألمان كانوا قادمين ، فلم يحاول أحد أن يتبين مصدر تلك الشائعات ولا صحتها !**

والشائعات هى أرخص الأسلحة وأقلها نفقات ، لأنها لا تحتاج الى أكثر من عقول قليلة لنسجها ، ثم يتولى المروجون

والناس ما بعد ذلك ! ٠٠ وهدفها معروف ، ويتمثل فى تحطيم الروح المعنوية للناس ٠ وفى الحروب الحديثة ، أصبحت الثغرة بين القوات العاملة والمدنيين جد ضـــيقة ٠٠ فلو تداعت روح المدنيين فى أى دولة ، لخسرت هذه الدولة الحرب !

وكم من شائعات ترددت فى الحربين الأولى والثانية ، فلمـا تتبعت منشأها وجدت انها ترددت فى حرب القرم وحـروب نابليون أيضا ! ٠٠ ذلك لأن الشـائعات نادرا ما تتغـير فى جوهرها ٠٠ ومن الأمثلة على ذلك ، شائعة سمعتها فى الحـرب الأولى ، وتكررت فى الحرب الثانية ، وان تغير الأسلوب الذى رويت به ، والأوصاف التى تخللتها ٠٠ **ومؤدى هذه الشـائعة ان البريطانيين أغرقوا غواصة ألمانية ، وأخذوا قائدها أسيرا ٠ فلما فتشوه وجدوا فى جيبه تذكرتين من تذاكر مسرح «جلاسجو امباير » ــ مثلا ــ فكأنه هبط الى تلك المدينة وقضى سهرته فيها دون أن تفطن السلطات** ٠٠ ومن العجيب اننى سمعت هـــذه القصة فى أمريكا ــ فى الحرب الثانية ــ مع تغيير مسرحها ، اذ ذكرت مدينة (سان فرانسيسكو) بدلا من (جلاسجو) !

وقد تبدو أمثال هذه القصة تافهـــة ، ولكن فى وسعك أن تتصور تأثيرها على العقول ، لا سيما اذا تذكرت اننـــا ــ فى أوقات الحرب ــ قل أن نعنى بتمحيص ما نسمع ٠٠ بل تصور مفعولها اذا ما حملها الى ميدان القتال جندى عائد من أجازته ! ٠٠ وقد لا يكون من المؤكد ان فى وسع الشائعة الموجهة ــ أى المدروسة والمعدة لأغراض معينـــة وعقول معينة ــ أن تكسب حربا ، ولكن من المؤكد حقا انها قادرة على أن تتسبب فى الهزيمة فى الحرب ! ٠٠ ولذلك نجد ان انجلترا عنيت بتنظيم « الحرب السياسية » فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الهيئات الموكلة بهذا النشـــاط لم تحرز نجاحا يذكر الا عندما بدأت القـوة العسكرية الألمانية فى التداعى ٠ ذلك لأن كثيرا من جهود تلك

الهيئات كان سيىء التوجيه ٠٠ فكآن من التفاهة ـ مثلا ـ أن تنفق هذه الجهود فى اذاعة الأنباء عن تفشى الفساد فى صفوف السلطات الفاشيستية العليا ! ٠٠ وقد كان للنظام الحازم الذى درج عليه الشعب الألمانى ، فضل مقاومة كثير من الجهود التى كانت من هذا القبيل ٠٠ فضلا عن ان الألمان كانوا سباقين دائما فى هذا المجال !

ولم تكن بريطانيا وحدها التى لم تقدر قيمة الشائعة حق قدرها ٠٠ بل ان الروس تجاهلوها تقريبا ـ فى الحرب العالمية الثانية ـ مركزين جهودهم على الدعاية السياسية التى لم تكن ذات أثر يذكر الا بعد ان تحقق انكسار الألمان فى ميدان القتال بالفعل ٠٠ على ان عدم تقدير الأمريكيين لقيمة الشائعة يفوق تجاهل الروس لها ، وان كنت قد وجدت الرئيس روزفلت ـ عندما أوفدت الى واشنطن للتشاور فى شئون الدعاية ـ منتبها كل الانتباه للأخطار والاحتمالات التى تترتب على سلاح الاشاعة !

الأطباق الطائرة : أحقيقة هى أم خيال ؟!

◆ **ومن** الواجب قتل الشائعة فورا ، والا فلن يتسنى القضاء عليها٠ ففى ٢٤ يونيو سنة ١٩٤٧ ، صرح رجل ـ فى واشنطن ـ بأنه رأى تسعة أجسام لامعة تطير بسرعة قدرها ١٢٠٠ ميل ، على ارتفاع ١٠٫٠٠٠ قدم من الأرض ٠٠ **وان هى الا أيام حتى رأى أناس غيره تلك الأشياء ، ووصفوها بأنها على شكل « أقراص » ، ثم أطلقت الصحافة الأمريكية لخيالها العنان ، فوصفتها بأنها «أطباق طائرة» ٠٠ وتوالت الشائعات وانتشرت فى البلدان الأخرى ، ثم تعاقبت الأنباء بأن مئات رأوا تلك « الأطباق الطائرة » !** ٠٠ ومع ان بعض من زعموا انهم رأوها لم يلبثوا ـ عند التحقيقات الدقيقة ـ أن اعترفوا بأنهم كانوا

واهمين ، الا أن اعترافاتهم ضاعت وسط ضجيج الشائعات . ولقد ذكر عالم ضليع ان الانسان اذا وقف جامدا وثبت بصره على نقطة معينة فى السماء ، فانه لا يلبث أن يرى أشياء تتحرك بسرعة ، نتيجة مرور كريات الدم الحمراء أمام شبكة العين .. الا ان أحدا أبى أن يأخذ بهذا التعليل البسيط المعقول ! .. وقد زعم البعض ان « الأطباق الطائرة » سلاح روسى جديد ورهيب ، يستطيع أن يصل الى أى ركن من أركان الدنيا !

وتلعب الشائعة دورا هائلا فيما يسمونه ب «الحرب الباردة» .. وما أقل الناس الذين يدركون ان من الممكن كسب المعارك دون اطلاق رصاصة واحدة ، وذلك عن طريق الحرب الباردة ! .. ومن أساليب هذه الحرب أن تعمد احدى الدول الى شن حملة – فى الدول المعادية لها – تطالب بالسلام ومنع التسلح ، بينما تكون هى منصرفة الى زيادة قواتها ! .. كما ان من أساليبها محاولة النيل من الشخصيات الحاكمة فى الدول المعادية ، وذلك باتهامها بأنها « دعاة حرب » و « دعاة استعمار » .. أو محاولة التفرقة بين الدول المعادية وتحطيم وحدتها !

الفصل الثالث والعشرون

الأسلحة السرية الألمانية

◆ **ما أظن** أهل لندن وجنوب انجلترا ينسون قط القنابل الطائرة والصواريخ التى كانت تنهمر عليهم فى سنة ١٩٤٤ ! على ان الشىء الذى لم يعرفوه ، هو ان تلك القنابل والصواريخ كانت تنهمر بمعدل مائة فى اليوم – فى حين ان خطط الألمان كانت ترمى الى ارسال ألف منها لضرب بريطانيا يوميا – وان هذه الحملة تأخرت ستة أشهر عن الموعد الذى كان محددا لها .. ووراء هاتين الحقيقتين حلقة من أهم حلقات الجاسوسية فى

الحرب العالمية الثانية !

في سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، كنت أطوف بشواطىء البلطيق على دراجة ، أجمع مادة لكتاب كنت أضعه عن الرحلات ٠٠ وبلغت فى طوافى جزيرة (روجن) الألمانية ، وهناك ضللت طـريقى بمحض المصادفة فدخلت منطقة كانت محاطة بأسوار ، واذا بى أعتقل ٠ الا انى سرعان ما أثبت حسن نيتى ، فأطلق سراحى ٠ ولكننى استطعت – فى الفترة القصـيرة التى قضيتها فى تلك المنطقـة – أن ألاحظ بعض أشياء ، منها قطـع من الأسمنت المسلح تناثرت فى أرجاء المكان ، وكانت احداها على شكل شبه دائرى ، يتخلله مجرى ضيق فى الوسط ٠٠ واستطعت أن أفهم من القرويين المقيمين حول المنطقة،انهم كانوا يسمعون انفجارات تتبعها ضوضاء غريبة تتراوح فى شدتها وتشبه الضجة التى يحدثها القطار أثناء سيره ٠٠ وقيل لى انه يبدو ان ثمة تجارب كانت تجرى داخل المنطقة ، وانها فشلت ، اذ رأى القوم قوافل من سـيارات الاسعاف تغادر المنطقـة – ذات يوم – محملة بالجرحى !

وما أن أدليت الى الخبراء – فى لنـدن – بهذا النبأ ، حتى أدركوا ما كان يحدث داخـل المنطقة ٠٠ **فهناك ، كانت ألمانيـا تجرى تجارب لاستعمال الصواريخ ، وكانت قطع الأسمنت هى بقايا القاعدة التى تطلق منها الصواريخ ، اذ ان بعضها انفجـر وهو قريب من الأرض ٠٠ وقد سمعت من بعض الأصـدقاء الألمان – بعد ذلك – ان محاولات بذلت لاطلاق صواريخ تحمل آدميين !** ٠٠ وأستطيع أن أؤكد ان جواسيسنا توصلوا الى أنباء هذه التجارب ، وان لم يسرقوا مشروعاتها من خـزانة وزارة الحربية الألمانية ٠٠ ذلك لأنهم كانوا يلتقطـون المعلومات ، ويضمون بعضها الى بعض فى مهارة وذكاء ، ليصلوا الى ما كان لدى هتلر من « أسلحة الانتقام » التى كان لا يفتأ يهدد بها !

ولقد حدث عندما انهارت فرنسا - في سنة ١٩٤٠ - أن أصيبت المخابرات السرية البريطانية بضربة شديدة . ولكن حسن الطالع خف لنجدتها ، اذ كان الألمان قد نقلوا ملايين من أبناء الأراضى التى احتلوها - كالفرنسيين والتشيكيين والبولنديين - للعمل داخل ألمانيا ، فوجدت المخابرات البريطانية فى هؤلاء أعوانا وعيونا لها ! .. وتحضرنى هنا قصة بدأت فى سنة ١٩٤١ فى (وارسو) ، اذ جمع الألمان فريقا من «المتطوعين» البولنديين لترحيلهم الى ألمانيا للعمل فيها .. فلما تهيأوا للسفر ، انتحى ثلاثة منهم جانبا مع صديق كان يودعهم ، وان راح يوصيهم بأن يفتحوا عيونهم وآذانهم وأن يوافوه بما يرون ويسمعون .. وكان هذا الرجل من العاملين فى المقاومة البولندية ، المتصلين بأحد جواسيس انجلترا !

وحدث أن نقل « المتطوعون » البولنديون الى مكان على بحر البلطيق يسمى (بينيموند) ، فأدركوا من الأحاديث العابرة ان المكان مسرح للتجارب العسكرية أكثر مما هو مصنع عادى للطائرات .. وفى ذات يوم ، وصل ضابط من الهيئة التى كانت مسئولة عن العمال الأجانب ، فاذا به هو الآخر من رجال المقاومة البولندية ، الذين كانوا يتجسسون لحساب الانجليز . وما أن اطمأن العمال اليه ، حتى قالوا له : « ان أمورا غريبة تجرى هنا .. ان هذا المكان ليس مجرد مصنع للطائرات ، وانما هو محطة للتجارب .. وقد سمعنا كلمة « الصواريخ » تتردد أكثر من مرة ، كما رأى أحدنا فى احدى الحظائر طائرة صغيرة ، ذات محرك واحد .. ولكنها خلو من مكان للطيار ! »

واستطاع العمال - بارشاد الضابط - أن يرسموا خريطة للمكان وسرعان ما أرسل سلاح الطيران البريطانى طائرة استطلاع صورت الموقع ، واذا بخبيرة فى تفسير الصور تقرر انها ترى فى الصورة طائرة بالشكل الذى وصفه العامل ! .. ومن

هنا ندرك المصدر الذى استند اليــه تشرشل عندما صرح فى البرلمان ـ فى ٦ يوليو سنة ١٩٤٤ ، أى بعد أولى غارات القنابل الطائرة ـ بأن انجلترا « **تلقت فى الأشهر الأولى من سنة ١٩٤٣ تقارير من المصادر الكثيرة التى تستعين بها مخابراتنا ، تدل على ان الألمان كانوا يعملون على ابتكار سلاح جديد طويل المدى لضرب لندن** » ! ٠٠ وفى أغسطس ســنة ١٩٤٣ ، قام السلاح الجوى البريطانى بأكبر غارة فى الحرب ، لتدمير ذلك المصنع الذى كان قائما فى (بينيموند) ، تدميرا تاما

على ان هذه الكارثة لم تحول الألمــان عن غايتهم ٠٠ فمن العمال الأجانب أيضا ، عرف الجواسيس الانجليز ان قطــع الصواريخ كانت تصنع فى مصانع متفرقة ، ثم يتم تجميعهــا وتركيبها فى مكان معين ، فهاجمت الطائرات البريطانية هــذه المصانع كلها ٠٠ ولكن البولنديين الذين كانوا يقيمون على مقربة من مدينة (ميليك) لم يلبثوا أن أشاروا الى مصنع غير عادى فى تلك المنطقة ، أحاطه الألمان بحراسة شــديدة ، واعتادت القطارات أن تتردد عليه ليلا ، وفى كل عربة من عرباتها حراس مسلحون ٠٠ وسرعان ما تسلل الى المنطقة جاسوس بولنــدى استدرج سائقى القطارات ـ التى كانت تتردد على المصنع ـ فى الحديث ، حتى جمع منهم بعض المعلومات ، كما عرف من فرنسى كان يعمل داخل المصنع ان بعض ذوى المكانة فى الحكومة الألمانية يزورون المصنع من وقت لآخر ، لا سيما مدير الارصاد الجوية بالذات !

وثبت ان المصنع كان ينتج أجهزة لاسلكية دقيقة ، توضع فى « بالونات » تطلق لتحلق فوق انجلترا ٠٠ وتجلى بعد ذلك ان هذه الأجهزة ـ التى أصبحت اليوم عادية ـ كانت تصدر اشارات لاسلكية عن الأحوال الجوية ، يستعين بها الطــيران الألماني فى غاراته !

كاد هتلر يكسب الحرب .. بقذائفه الموجهة !

◆ ومن (ريجويس) - ببولندا - تلقت المخابرات البريطانية تقارير من جواسيسها عن أجسام تشبه الطائرات شوهدت محلقة في السماء ، والضوء ينبعث من ذيلها .. وما لبث أن ظهر ان الألمان كانوا يجربون سلاحا جديدا . وفي ذات يوم، سقطت احدى هذه القذائف بالقرب من نهر (بوج) دون أن تنفجر ، فبادر أعوان هيئة المقاومة السرية البولندية الى دفعها الى النهر،



فلما بحث عنها الألمان لم يعثروا لها على أثر . وما لبث البولنديون أن أخرجوا القذيفة من النهر ، فالتقطت لها صور ، كما فحصت أجزاؤها ، وأعد عنها تقرير مفصل سلم الى رجل كان ينتحل شخصية بحار سويدى ، فنقل التقرير فى حذائه الى السويد ، ومنها الى لندن . وفى ليلة وصوله أذيع فى البرنامج البولندى بالاذاعة البريطانية نبأ بسيط فى مظهره : « ان هتلر لا يقنع بالوعود التى تكتب على ورق ، وانما هو يريد الشىء الحقيقى .. ونحن كذلك ! »

ولم يكن النبأ سوى رسالة الى الجواسيس البولنديين ، أدركوا منها ان القذيفة ذاتها هى المطلوبة ، فنقلوا الأجزاء الهامة منها - وكانت تزن نحو قنطار - الى غابة في جنوب بولندا ، على

مقربة من بقعة فضاء كانت معدة لتهبط فيهـــا طائرات القتال الألمانية عند الطوارىء .. وكانت عملية نقل القذيفة الى خارج بولندا من أشق العمليات ، لأن الجنود الألمان كانوا يرابطون على بعد ميل من المنطقة .

وصدر أمر الى طائرة بريطانية بأن تطـير الى المنطقـة .. وساعدها الحظ ، فهبطت هناك بسلام ، بعد منتصف احـدى الليالى .. وحملت أجزاء القذيفة ، كما حملت أحد زعماء المقاومة البولندية ، وكان يدعى « رافال » .. ولكن اسمه الحقيقى هو « ارشيتزفسكى » ، وقـد أصبح بعـد ذلك رئيسا لوزراء بولندا !

وعند وصول الشحنة الثمينة الى لنـدن ، فحصها الخبراء ، فاذا بها أحدث أنواع القذائف الموجهة ـ فى ذلك الحين ـ وقـد عرفت بالقذيفة : « ف ـ ١ »

وهكذا ، كان الحلفاء قد عـرفوا نبأ الصـواريخ والقذائف الموجهة قبل أن يستخدمها الألمان فى غاراتهم ، فلما بدأت تلك الغارات ، كان الحلفاء قد استعدوا لها ، كما نظموا سلسلة من أعمال التخريب فى مصانع انتاج تلك الأسلحة ـ سـواء فى ألمانيا أو فى الدول المحتلة ـ وغارات عنيفة متوالية عليها .. ومن ثم لم يقدر للألمان أن يرسلوا على بريطانيا ألف قذيفة فى اليوم ، كما كانوا يرجون !

ومن هنا نستطيع أن ندرك الدور الذى قام به الجواسيس فى تخفيف وطأة الأسلحة النازية السرية على بريطانيا ، وعـلى لندن بالذات !

الفصل الرابع والعشرون

قضية التجسس فى كندا

● فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، غادر « ايجور جوزينكو »

ـ كاتب الشفرة بالسفارة السوفييتية فى كندا ـ مبنى السفارة، كما اعتاد بعد انتهاء عمله فى كل ليلة لمدة عامين .. ولكنه فى هذه المرة كان قد عقد عزمه على ان تكون هذه آخر مرة يغادر فيها السفارة !

وكان شابا صغيرا ، لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، وقد استمتع بعضوية « الكونسومول » ـ أو هيئة الشباب الشيوعى ، فى روسيا ـ مذ كان طالبا . ولما توسم فيه المشرفون على هذه الهيئة مخايل مبشرة ، ألحقوه بمدرسة الهندسة فى موسكو ، ثم بمدرسة المخابرات السرية . وبعد ان اطمأنوا الى اخلاصه تماما ، بعثوا به الى كندا ـ فى سنة ١٩٤٣ ـ ليكون كاتب الشفرة بسفارة روسيا هناك . واذا به يجد نفسه فى جو يشبه جو قصص الجاسوسية المثيرة ، التى يبتكرها خيال الكتاب .. فقد كان الجناح الذى يعمل فيه بمبنى السفارة ، مفصولا عن باقى أجنحة المبنى بحواجز ونوافذ فولاذية . ولم يكن من المباح لأحد ان يدخل الى تلك الأجنحة .. أما حراس الأبواب وخدم السفارة ، فكانوا جميعا من ضباط الجيش الأحمر ! .. ليس هذا فحسب ، بل ان « جوزينكو » لم يلبث ان تبين ان رئيسه المباشر ـ وهو الكولونيل زابوتين ، الملحق العسكرى ـ كان قد نظم شبكة واسعة للتجسس !

واستطاب « جوزينكو » الحياة فى كندا .. لذلك فانه لم يكد يسمع بأن النية قد اتجهت لاعادته الى روسيا ، حتى قرر ان يبقى ـ بأى ثمن ـ وان يحذر الكنديين من شبكة الجاسوسية ومن الخطط التى كانت ترمى الى اثارة الشغب والقلاقل فى كندا . لذلك اختار عددا من الملفات التى تثبت ذلك ، وعرضها على احدى صحف (اوتاوا) .. وكانت القصة غريبة ، ولعل غرابتها هى التى جعلت الصحيفة لا توليها نظرة جدية . ولم يكن لجوزينكو من هم سوى ان يجنب نفسه وزوجته وطفلهما ، ما كان يخشاه من وراء العودة الى روسيا ، لذلك راح يطوف



بكل ادارة حكومية ، وبكل صحيفة ، ولكن أحدا لم يعن بقصته !

وفى مساء اليوم الذى غادر فيه السفارة وهو مصمم على ان لا يعود اليها ، اقتحم بعض أعضاء تلك السفارة مسكنه ، ليستولوا على الوثائق التى سرقها .. وكان جوزينكو قد احتاط للأمر ، فنقل أسرته الى مسكن جار له كان جاويشا فى السلاح الجوى الكندى ، فحاول رجال السفارة اقتحام هذا المسكن ، ولكن صاحبه استغاث بالبوليس . وقرر البوليس ان جوزينكو سارق ، فمن حق رؤسائه ان يعاقبوه ! .. وأثار هذا الموقف ضجة لفتت نظر السلطات العليا ، فبادرت الى تأليف لجنة لفحص القضية ، واذا وثائق جوزينكو تكشف عن حقائق خطيرة ! .. فقد ظهر ان الجناح المغلق ، المحاط بالحراسة - فى السفارة الروسية - كان فى الواقع مركزا عاما لخمس منظمات للجاسوسية ، انبثت فى مختلف ميادين النشاط فى كندا ، كما كان كل فرد فيها يتجسس على زملائه ! .. وكان زابوتين هو الذى نظم كل هذا ، بناء على الأوامر التى كانت تصدر اليه من موسكو مباشرة . **وكانت له شبكة خاصة مهمتها معرفة كل شىء عن القنبلة الذرية ومصانعها ، وعن الجيوش التى ترسلها كندا والولايات المتحدة الى أوربا ، وعن جهاز سرى لحرب الغواصات ، وعن القنابل الاليكترونية وأنظمة الدفاع الكندية ..**

وكانت هذه المهام تتطلب حشد عدد كبير من الجواسيس ، فاستخدم زابوتين وأعوانه وسائل تدل على خبرة باستغلال مواطن الضعف فى نفس الانسان ٠٠ فقد اتصلوا - فى بداية الأمر - بالدوائر الشيوعية الكندية ، واتصل أعضاء هذه بدورهم ، بالمشايعين للشيوعية أو الذين يعطفون عليها ٠٠ ونظمت اجتماعات لهؤلاء ، كانوا يلقنون فيها أساليب التجسس. وكانت السفارة تعنى بهم عناية فائقة ، لأنهم لم يكونوا شيوعيين ، ومن ثم كانوا بمأمن من الشبهات ! ٠٠ وكان زابوتين وأعوانه يهتمون بالعلماء والموظفين الحكوميين بوجه خاص ، ويبحثون حال كل واحد ينتقونه بحثا دقيقا ، حتى انهم كانوا يتحرون عن علاقاته برؤسائه المباشرين ، وأحواله المالية ، وأمانيه ، وميوله ، وموقفه ازاء سياسة بلاده ، ومدى نفوذ زوجته عليه !

وكانوا من البراعة بحيث استدرجوا بعض السذج الى شبكة الجاسوسية دون ان يفطن هؤلاء الى ما كان يكمن وراء ذلك ، فلما انتبهوا الى ما تورطوا فيه ، حاولوا ان ينسحبوا ، ولكن فرصة الانسحاب كانت قد فاتت ! ٠٠ وكان زابوتين يعد لكل واحد ملفا خاصا ، ثم يلخص المعلومات التى جمعها عنه فى بطاقة يرسل نسخة منها الى موسكو !

وفى الوقت الذى فر فيه جوزينكو من السفارة ، كان زابوتين منهمكا فى مضاعفة أعوانه ، كما اقترح ايفاد بعثة تجارية روسية الى كندا ، ليتسلل معها عدد من الجواسيس الروس الى البلاد ٠٠

كل هذه الحقائق اكتشفتها لجنة التحقيق ٠٠ كما اكتشفت ان الشيوعيين كانوا مكلفين بالسيطرة على أكبر عدد ممكن من الجمعيات والنقابات ، بحيث لا يفطن أعضاؤها الى انها أصبحت تحت اشراف الشيوعيين ٠٠ وبهذه الأساليب استطاع الجواسيس الروس ان يستغلوا رجالا كان من المحتمل ان ينفروا من الاتصال بالشيوعيين اذا انتبهوا الى حقيقتهم !

عالم بريطاني ينقل أسرار الذرة الى الروس !

• **وكان** نظام شبكة التجسس الروسية فى كندا بسيطا فى ظاهره ، ولكنه كان فعالا : كان كل فريق من الجواسيس المكلفين بمهمة واحدة ، ينتظمون فى خلية لا يتصل بالروس منها سوى عضو واحد ٠٠ وكان هذا العضو ينقل التعليمات الى أعوانه ، ويتلقى منهم المعلومات ٠٠ وكانوا جميعا ينتحلون أسماء مستعارة

وكانت هذه الخلايا تضم ـ فيمن كانت تضم من أعضاء ـ نساء كثيرات ٠ وقد استطاعت المنظمة ان تدس احداهن ،وكانت تدعى « ايما وويكن » ، فى قسم الشفرة بوزارة خارجية كندا ، الأمر الذى مكنها من الاطلاع على برقيات هامة ! ٠٠ كما كان للمنظمة جاسوس يحتل مركزا رفيعا فى ادارة الذخائر ، فاستطاع ان ينقل اليها بيانات عن التجارب والمتفجرات الجديدة بلغت من الدقة درجة لم يكن ليحلم بها أى جاسوس آخر !

وكان بين الجواسيس عدد من أصل روسى ، كما كان بينهم عدد من أصل بريطانى ٠٠ بل ان واحدا منهم كان يتمتع بالجنسية البريطانية حتى ذلك الحين ، ومن ثم تولت السلطات البريطانية محاكمته ٠٠ ذلك هو الدكتور « ألان نن ماى » ٠ وكان عالما ذريا بارعا ، اشترك فى التجارب الذرية الأولى فى كندا ٠ **وقد استطاع ـ خلال عمله ـ ان يطلع على كثير جدا من المعلومات والبيانات عن الأبحاث الذرية وأعمال الهيئة المشرفة على «مشروع الطاقة الذرية» ٠ وقد دلت التحريات على انه كان ـ قبل حضوره الى كندا ـ شيوعيا متحمسا ، فى الخفاء ، وكان معروفا لدى السلطات فى موسكو ٠ وقد اتصلت به منظمة زابوتين عقب وصوله الى كندا ، وأطلقت عليه اسما مستعارا هو «اليك» !٠٠ ولم تقتصر المعلومات التى قدمها على العمليات الفنية الخاصة بالقنبلة الذرية ، بل انه ذهب فى تحمسه الى درجة تقديم عينات من مختلف أنواع اليورانيوم الذى كان يستخدم فى الأبحاث !**

وقد رفض « ماى » ـ أثناء محاكمته ـ ان يذكر اسم الرجل الذى كان يتصل به ، ولكنه اكتفى بأن قال ان هذا الرجل كان روسيا ! .. على ان « ماى » لم يكن العالم الوحيد فى هذه الشبكة ، بل لقد كانت هناك خلية من الأساتذة المحترفين

والى جانب ذلك ، كانت للجواسيس الروس فى كندا براعة فائقة فى تزوير جوازات السفر .. وكانوا يستخدمون الرشوة فى سبيل العبث بالملفات واستبدال الاستمارات المزورة بالاستمارات الأصلية وفقا لما يحقق مصلحتهم ! .. ولم يكشف هذه الطريقة الماكرة سوى ان كاتبا جاسوسا فى ادارة الجوازات وضع الاستمارات المزورة فى الملفات ، ونسى ان يسحب منها الاستمارات الأصلية ، فانتبه رؤساؤه الى المؤامرة !

وقد حنقت السلطات الروسية على ايجور جوزينكو أشد الحنق ، وحاولت بشتى الطرق ان تضع يدها عليه ، وذهبت الى حد مطالبة الحكومة الكندية رسميا بتسليمه اليها ، والى حد رفع دعوى عليه متهمة اياه بسرقة أموال من السفارة .. ولكن الحكومة الكندية لم تنظر الى شىء من هذه المحاولات نظرة جدية ، بل انها أحاطت « جوزينكو » بحراسة شديدة حتى لا ينتقم أعداؤه منه بقتله !

هذه القضية .. هزت اثنتى عشرة دولة !

◆ **ولعل** أهم ما أثارته هذه القضية هو : ما مدى المعلومات التى حصل عليها الروس بالوسائل التى اتبعتها شبكة الجاسوسية ؟ .. كان كل ما خرجت به لجنة التحقيق من تحرياتها فى هذا الصدد ، هو الآتى : « من المستحيل ان نعرف كمية المعلومات التى حصل عليها هؤلاء الجواسيس ، أو ان نقدر قيمتها .. فان العمليات ظلت مستمرة سنوات عديدة ، وليس فى شهادات الشهود ولا فى القرائن ما يوضح المدى الكامل لهذه

المعلومات ٠٠ ولكن الثابت هو ان الروس حصلوا على قدر كبير جدا من البيانات السرية ، من عدة مصالح وهيئات ووكالات حكومية » !

وقد ذكرنا ان « ماى » قدم للروس بعض « عينات » من « اليورانيوم » المستخدم فى التجارب الذرية، فتوصلوا الى بعض اختراعات حربية سرية ، تقدر قيمتها ببضعة ملايين من الجنيهات ٠٠ ولكن الخسارة الأدبية كانت أكثر فداحة من الخسارة المادية، اذ ان ما تبين من سهولة اغراء الكنديين على التجسس لحساب روسيا ، كان صدمة زعزعت الروح المعنوية هناك !

ثم ان الأسرار التى سرقها الجواسيس لم تكن أسرار كندا وحدها ، بل كان بينها أسرار تقتسمها مع كندا دول أخرى ، كالولايات المتحدة التى كانت تتعاون معها فى الأبحاث الذرية ٠٠ ومن ثم كان للقضية رد فعل فى حوالى اثنتى عشرة دولة ! ٠٠

ففى بريطانيا ، بادرت الحكومة الى تطهير المناصب الكبرى ،التى يخشى على ما تحت أيدى أصحابها من وثائق ، لا سيما بعد ان أثبتت عمليات التجسس فى كندا ان معظم الجواسيس الخطرين لم يكونوا شيوعيين قط ! ٠٠ على ان رد الفعل فى الولايات المتحدة كان أشد وأقوى ، اذ اكتشفت السلطات ان ثمة شيوعيين وموالين للشيوعية فى كل مكان من البلاد ٠٠ ودارت المناقشات فى طول الولايات المتحدة وعرضها عن المعانى الكامنة وراء عبارة : «الشيوعى الأمريكى» ٠٠ أهو مجرد مواطن يؤمن بمذهب سياسى معين ؟ وهل فى وسع الشيوعى ان يحتفظ بتحمسه للشيوعية وبولائه لوطنه أو للبلد الذى اتخذه موطنا ، فى آن واحد ؟ ٠٠ وبلغ الاستنكار الشعبى مدى بعيدا ، حتى ان محكمة الاستئناف الجنائية فى الولايات المتحدة ، أصدرت حكما فى سنة ١٩٤٧ بأن « من الأمور التى يؤاخذ عليها القانون ، ان يصف انسان غيره ، أو أن يصف هيئة بأنها شيوعية أو موالية للشيوعية ، لأن لفظ « شيوعى » أصبح يدل ـ فى عقول كثير

من الأشخاص المحترمين ! ـ على صفة تحط من قدر المرء وتجعله هدفا لكراهية الجمهور » !!

وكان من نتائج هذه القضية ، ان ضاعفت سلطات الأمن فى الدول الغربية ـ وفى كندا والولايات المتحدة وبريطانيا بالذات ـ جهودها ، وأخذت تراقب كل من تحوم حوله أتفه الشبهات ، من العاملين فى الأبحاث الذرية والحربية · وكان من هؤلاء شخص لم يلبث ان دمغ بوصمة الجاسوسية ·· ذلك هو الدكتور « كلاوس فوخس » ، الذى سأتحدث عنه بعد ان أستعرض معك الجاسوسية بين «الحلفاء» ، فى فترة الحرب العالمية الثانية !

الفصل الخامس والعشرون

مؤامرة ألمانية لاغتيال ستالين وروزفلت وتشرشل

◆ **عند ما** أشرفت الحرب على نهايتها ، رأى أقطاب الحلفاء ان يجتمعوا لدراسة حالة العالم بعد الحرب ، فوضعوا نواة النظام الدولى الجديد ، وبتوا فى مصائر زعماء الدول المهزومة ، واتفقوا على المبادىء الأولية لميثاق الأمم المتحدة · وقد بحثت كل هذه الموضوعات فى ثلاثة مؤتمرات هامة ، عقدوها فى (يالتا) بالقرم ، وفى (القاهرة) بمصر ، وفى (طهران) بايران

ومما يؤثر عن روزفلت ، الرئيس الأمريكى الأسبق ، انه كان يردد ـ عندما عقد الأقطاب الثلاثة مؤتمر يالتا ـ القول الآتى : « سواء وجد فى يالتا جاسوس أو لم يوجد ، فان الأمر الذى لا شك فيه هو انه كان ثمة جواسيس فى مؤتمر طهران » ·· فقد كان مؤتمر طهران ـ الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤٣ ـ هو المناسبة الأولى التى جمعت بين روزفلت وتشرشل وستالين بأشخاصهم · وعندما وصل روزفلت الى العاصمة الايرانية ، كانت قوات روسيا تحتل النصف الشمالى من ايران ، بينما

كانت القوات الانجليزية والأمريكية تحتل النصف الجنوبى ، اذ كانت ايران من أهم المناطق التى كان الحلفاء يوافون الروس بامداداتهم عن طريقها ٠٠

وكان مبنى السفارة الأمريكية فى بقعة شبه منعزلة عن المدينة ٠ وما ان استقر روزفلت فيه ، حتى تلقى رسالة غريبة من ستالين ، جاء فيها : « **هناك مؤامرة هتلرية للقضاء على ثلاثتنا ، فالمدينة مليئة بالجواسيس الألمان ٠ فهلا جئت وأقمت معى فى السفارة السوفييتية ؟** » ٠٠ واستجاب روزفلت للدعوة ، فانتقل الى السفارة السوفييتية ، فاذا بها قد تحولت الى قلعة حصينة ٠٠ وقد ظل فيها الى ان انتهى المؤتمر

ولقد كان ستالين صادقا فيما ذكره عن الجواسيس ، اذ ان نبأ المؤتمر لم يكن محوطا بتكتم كاف ٠٠ ولكنه كان مغاليا فيما ذكره عن المؤامرة ٠٠ أو بالأحرى ، ان المؤامرة لم تكن قائمة حين كتب رسالته ٠ فقد وضعت المخابرات السرية الألمانية فى الشرق الأوسط خطة للقضاء على الأقطاب الثلاثة ، وعينت لتنفيذها ضابطين وستة أفراد من « الجستابو » ٠٠ ولكن كثرة عدد المتآمرين كانت السبب فى فشل هذه الخطة ، اذ لم يلبث أحد المكلفين بمعاونتهم — من جواسيس الألمان المندسين فى ايران — ان أفشى سر المؤامرة للحلفاء ، فسرعان ما نشطت سلطاتهم الى تعقب المتآمرين حتى عثرت عليهم مختفين لدى أحد زعماء القبائل ٠٠ ولكنها لم تعتقلهم ، بل تركتهم ليطمئن الألمان ، ثم ضربت ضربتها فى اللحظة الأخيرة ، فاعتقلت أفراد « الجستابو » الستة وعددا كبيرا من الجواسيس

أسرار أمريكا العليا ٠٠ فى أيدى الشيوعيين !

٠ **وكان** الاجتماع التالى للأقطاب الثلاثة فى (يالتا) ، فى فبراير سنة ١٩٤٥ ٠٠ ولم يكن ثمة خوف من الجواسيس الألمان فى هذه المرة ، اذ كانت هزيمتهم شبه محققة ٠٠ ومع ذلك

فان بوليس الأمن السوفييتى أبدى نشاطا فائقا ، لأن (يالتا) تقع فى أرض سوفييتية ، فكان الأقطاب الثلاثة أشبه بوديعة فى عنق روسيا !

ولقد كان مؤتمر يالتا يفوق مؤتمر طهران أهمية ، اذ بحث فيه الأقطاب الخطط النهائية للاجهاز على ألمانيا وتقسيمها الى مناطق احتلال ، كما تضمنت القرارات التى أسفر عنها مادة سرية بشأن دخول روسيا الحرب ضد اليابان . وتناول البحث كذلك : مسائل التعويضات ، ومساعدة الدول المتحررة ، ورسم الاداة الخاصة لاعداد العدة لقيام الأمم المتحدة ..

وليس هنا مجال الحكم على القرارات التى اتخذت فى ذلك المؤتمر ، ولكنا نكتفى بأن نشير الى ان روسيا كانت أكثر الحليفات الثلاث كسبا فيه .. وان بذور الخلاف الذى ظهر بعد ذلك واستفحل ، بين روسيا وبين أمريكا وبريطانيا ، انما بذرت فى ذلك المؤتمر بالذات !

والواقع ان اتفاقية (يالتا) وضعت شرق أوربا كله تقريبا تحت سيطرة روسيا ، وأدت الى اضطرابات لم يسمع بمثلها فى آسيا من قبل ! وتدل سجلات المؤتمر على ان ستالين كان قد حدد أهدافه ، فسعى اليها بكل ما فى وسعه ، ووجد من تشرشل وروزفلت استجابة لمعظم مطالبه ! .. **ولقد أثار مسلك الزعيمين الغربيين انتقادات مريرة ، حتى لقد اعتبر هذا المسلك - فى نظر عدد من قادة الرأى فى انجلترا وأمريكا - بمثابة تسليم منهما لستالين ..** فلماذا تراهما قبلا هذا الوضع ؟

يقول أصدقاء روزفلت - فى هذا الصدد - انه كان يدرك ما فى الاتفاقية من أخطار ، ولكنه كان يعتقد ان نفوذه الشخصى لدى ستالين كان من القوة بحيث يمكنه من توجيه الاتفاق طبقا لتفسيره الخاص .. ولعل روزفلت كان مسرفا فى التفاؤل ، ولكنه - على كل حال - لم يعش حتى يجرب ذلك ! .. أما تشرشل ، فقد حاول ان يبرر موقفه فى مجلس العموم - فى

٢٧ فبراير سنة ١٩٤٥ ـ بأن تعلل بأن نجـاح الاتفاقية أو فشلهـا انما يعتبر نتيجة لتباين معـانى « الديموقراطية » و « الانتخابات الحرة » لدى كل من الشرق والغرب ! ٠٠ **وعلى كل حال ، فان الأمر الذى لا شك فيه هو ان تشرشل وروزفلت يحملان مسئولية المتاعب التى يعانيها العـالم اليوم ، والتى نبعت من مقررات يالتا ! ترى هل كان الزعيمان الغربيان من الضعف والتراخى بحيث جرفتهما الديبلوماسية الروسية ؟٠٠**
اننى لا أبغي التصدى للاجابة عن سؤال كهذا ، ولكن قد يكون ثمة تفسير آخر لحقيقة الموقف الذى جرى فى (يالتا) ، فلنبحث عنه فى القصة التالية :

ان الأمريكيين يعجبون عادة بالشـاب الناجح الذى يبنى حياته بجهوده ٠٠ ومن ثم كان اعجابهم شديدا بشاب يدعى « الجير هيس » ، ولد لأسرة متوسطة كانت تقيم فى (بلتيمور) ، وأبدى فى مختلف مراحل دراسته تفوقا ، كما كان فى طليعة خريجى جامعة (هارفارد) ، مما سمح بتعيينه ـ فور تخرجه ـ فى منصب قانونى هام ٠ ولازمه النجاح ، فأخذ يتنقل من منصب الى آخر أرفع منه ، حتى اذا كانت سنة ١٩٣٦ عين فى منصب مرموق فى وزارة الخارجية الأمريكية ، ثم بلغ ذروة النجاح فى سنة ١٩٤٥ ، اذ عين سكرتيرا عاما لمؤتمر (سان فرانسيسكو) الذى وضع ميثاق الأمم المتحدة ، وافتتح بنفسه أول اجتماع لهذا المؤتمر التاريخى !

هذا النوع من قصص النجاح الذى يكتسب بالعمل والذكاء ، لا بالحسب والجـاه ، يستهوى الأمريكيين ٠ ومن هنـا كان اعجابهم بشخصية « الجير هيس »

وحدث فى سنة ١٩٤٨ ، ان أجرى تحقيق مع شيوعى أمريكى سابق يدعى « هويتاكر تشامبرز » ، فاذا الرجل يعترف بكل نشاطه السابق ، فيدوى هذا الاعتراف كالقنبلة ! ٠٠ فقد ذكر انه كان عضوا فى عصابة للتجسس ، ولكنها لم تكن على نسق

عصابة «جوزينكو» فى كندا ‥ وكان ــ عندما بدأ هذا النشاط ــ شيوعيا مثاليا ، وقد تولى نقل رسائل خلية كانت تسرق أسرار وزارة الخارجية الأمريكية ، فكان يسلمها الى جواسيس من الروس ، ذكر منهم ــ بوجه خاص ــ الكولونيل بيكوف ، الذى كان رئيسا للمخابرات العسكرية السوفييتية فى الولايات المتحدة ، وكان ينتحل لنفسه فى العصابة اسم « بيتر » ‥ على ان تشامبرز ما لبث ان شعر ــ كما قرر فى اعترافاته ــ بأن الشيوعية ليست بالعقيدة المثلى ، وكان من جراء تبدد يقينه فيها ان انقلب فصار من أعدائها ٠ وعندما استدعى أمام لجنة من لجان الكونجرس ــ وكان قد أصبح رئيس تحرير مجلة واسعة الشهرة ــ تبرع بذكر أسماء الذين كانوا يشتركون معه أيام كان جاسوسا ‥ **وشد ما كانت دهشة الجميع حين ذكر اسم « الجير هيس » بين تلك الأسماء ، وتمادى فأذاع اتهامه لهيس فى حديث بالراديو ، فما كان من هيس الا ان رفع الأمر للقضاء واتهمه بالتشهير به**

وتريث تشامبرز حتى اتخذت الدعوى سيرها القانونى ، ثم استخرج من مخبأ سرى ــ فى قطعة من أثاث بيته ــ حزمة من الوثائق يرجع عهدها الى عشر سنوات سابقة ‥ أى أيام كان ينقل الرســـائل للجواسيس الروس ٠ **وبهت المحامون حين تبينوا انها كانت وثائق سرية تتصل بالسياسة العليا لوزارة الخارجية الامريكية ، وكان عددها خمسا وستين ‥ وقد كتب بعضها بخط « هيس » !**

وسخر « ترومان » ــ وكان رئيسا للجمهورية اذ ذاك ــ من القضية ، وزعم انها حيلة سياسية من منافسيه اســـتعدادا للانتخابات ، اذ كان « الجير هيس » من كبار موظفى حكومته ، ومن شأن أية وصمة تصيبه ان تمس برشاشها رئيس الحكومة ٠ ومما يذكر ان ترومان نجح فى الانتخابات ، ولكن عددا كبيرا من أعضـــاء لجنة مجلس الشيوخ ــ التى تولت التحقيق مع

تشامبرز ـ نجحوا هم الآخرون ، فاستأنفوا التحقيق . وهنا قال تشامبرز انه قبل عشر سنوات ، أعطى أحد أقاربه مظروفا مختوما بالشمع الأحمر ، وسأله ان يسلمه للسلطات ، ان أصيب هو ـ أى تشامبرز ـ أو زوجته بسوء بعد خروجه على الشيوعية ! .. وذكر انه استرد المظروف بعد ذلك ، وأخفاه فى مزرعة له بماريلاند . ومن ثم أوفد أحد رجال المباحث التابعين لوزارة الخارجية الى المزرعة ، فعثر على المظروف ، وتبين ان فيه شرحا لما ذكره تشامبرز ، وعشرات من الأفلام الدقيقة الحجم ، التى التقطت لوثائق ديبلوماسية أمريكية سرية جدا !

وترنحت لجنة الكونجرس لفرط الذهول ، لا سيما حين أثبت تشامبرز ان « هيس » هو الذى أسلمه تلك الوثائق فى سنة ١٩٣٨ ، ونسخ بعضها بخطه ! .. واستحوذت القضية على اهتمام الرأى العام الأمريكى ، فضاعت جهود ترومان فى التقليل من شأنها .. واستغلت العناصر السياسية هذه الضجة ، فأخذ السياسيون يزجون بأسماء بعضهم بعضا فى القضية نكاية ودسا ! .. واختلف المحلفون فى المحاكمة الأولى، ولكن الاتهام جاء بشهود جدد ، بينهم «هيدى ميسنج» ، وكانت زوجة سابقة لزعيم شيوعى ألمانى ، كما كانت جاسوسة .. وقد أقسمت على ان « هيس » كان شيوعيا ! .. كذلك شهدت خادم كانت تعمل لدى « هيس » بأن مخدومها اعتاد ان يزور دار تشامبرز فى (بلتيمور) قبل عشر سنوات .. ثم ظهر دليل قوى ، تمثل فى ان بعض الوثائق نسخ بآلة كاتبة كانت خاصة بهيس !

وفى ينايرسنة ١٩٥٠ ، أدين هيس لتجسسه لحساب روسيا ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات !

واذا كان تشامبرز قد أفشى أسرار هيس التى عرفها قبل عشر سنوات ، فأن أحدا لم يعرف ما كان من نشاط هيس التجسسي بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٤٨ .. والذي يعنينا من أمر

هيس انه كان من معاونى روزفلت فى مؤتمر (يالتا) فى سنة ١٩٤٥ ، كما كان من بين الذين رافقوا روزفلت للاقامة فى السفارة السوفييتية فى طهران ، عندما أشفق ستالين على حياة الرئيس الامريكى، أثناء المؤتمر الذى عقد فى العاصمة الايرانية !!

الفصل السادس والعشرون

قضية الدكتور كلاوس فوخس

• **عندما** اخترع الألمان مدفعهم الجبار « برتا الكبير » ، ورموا بحممه العاصمة الفرنسية من مسافة ٧٥ ميلا – فى سنة ١٩١٨ – استنكر عملهم قس ألمانى كان بفطرته يمقت الحروب ، وآلى على نفسه أن يبشر بالسلام . فلما قدر لألمانيا أن تنهض ثانية – عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى – وبدأ الاشتراكيون يسيطرون على شئونها ، ويسعون الى القوة، ويبثون روح العنف فى الحركة الوطنية ، أبى القس على ابنه « كلاوس » أن يشترك فى هذه الحركة ، وراح يحدثه عن الاخاء والسلام والوئام الدولى

وانصاع الابن لتعاليم أبيه ، وتحمل فى ذلك ألوانا من السخرية المقذعة التى كان زملاؤه فى المدرسة – ومعظمهم من أبناء الجنود – يصبونها عليه . ولكن « **كلاوس » لم يلبث ان التحق بجامعة (كييل) ، واذ ذاك لم يجد نفسه وحيدا فى النفور من النازية ، اذ كان بين الطلبة من يتحدونها علانية .. لأنهم كانوا شيوعيين !** .. وبقدر ما كان عقل « كلاوس » جبارا فى التحليل العلمى والرياضى ، فانه كان ساذجا ازاء الحجج السياسية ، ومن ثم تقبل فى بساطة الأفكار المتطرفة التى كان الشيوعيون يبشرون بها

وتتابعت التطورات فى الميدان السياسى ، فاذا النازيون

يستولون على أزمة الحكم ، فيضطهدون كل من لم يؤمن بمذهبهم ٠٠ واعتقلوا القس « فوخس » وساموا ابنته العذاب حتى انتحرت ٠٠ أما ابنه « كلاوس » فقد استطاع أن يهرب الى انجلترا !

وهناك أحس « كلاوس » بالوحدة ، وبالحاجة الى أن يتبين حقيقة نوازعه وآرائه : كان يميل الى ما يكتبه الشيوعيون عن مبادىء الأخوة والسلام والوئام الدولى ٠٠ وكان يميل الى التدين ٠٠ وكانت نظرته الى المستقبل ـ حتى ذلك الحين ـ مائعة ، مضطربة !٠٠ وظل العلم هو العنصر المسيطر على عقله الى أن فاز بالدكتوراه من جامعة أدنبره ـ فى سنة ١٩٣٨ ـ وتوقع له أساتذته ان يصبح بين طلائع رواد الميدان العلمى الجديد : ميدان الذرة ! **على انه لم يلبث ان اعتقل عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، وأرسل الى كندا ٠ فقد كان ألمانيا ، وكانت تدبيرات الأمن تضع كل ألمانى فى انجلترا موضع الشك ٠ وكان هذا الاجراء صدمة للعقيدة التى كانت قد بدأت تتكون فى ذهن العالم الشاب عن الديموقراطية الغربية ، فاذا ايمانه فى الشيوعية يتجدد ٠** على انه لم يقض فى المعتقل أكثر من عام تقريبا ، ثم أطلق سراحه وأعيد الى انجلترا حيث عين بجامعة بيرمينجهام للعمل تحت اشراف أحد الخبراء الذين كانوا يتوفرون على الأبحاث الذرية ، فأبدى الشاب من العبقرية ما جعل السلطات تمنحه الرعوية البريطانية بعد عام ٠ وما ان أقسم « كلاوس » يمين الولاء لوطنه الجديد ، حتى اختير عضوا فى فريق من علماء الذرة البريطانيين ، أوفد الى أمريكا للعمل مع الفريق الامريكى الذى كان متوفرا على الأبحاث الذرية ٠ وهناك ، أتيح لكلاوس ـ بحكم مركزه ـ ان يطلع على أهم الأسرار الذرية ٠٠ وكان من زملائه الدكتور « ألان نن ماى » الذى روينا قصته من قبل !

وكان الجواسيس الروس قد سعوا الى الاتصال بكلاوس فى انجلترا من قبل ، واستطاعوا أن يقنعوه بأن واجبه الانسانى يقتضيه ان يعاون القضية الشيوعية عمليا ، وان سلطان الطبقة العاملة - ممثلا فى نظام الحكم القائم فى روسيا - لن يلبث ان يتداعى تحت ضغط حلفائها السابقين ، ما لم تتمكن روسيا من ان تبارى بريطانيا وأمريكا بالذات ، فى مضمار القوة ٠٠ وكانت تنتاب « كلاوس » فترات من الاضطراب ، اذ يستيقظ ضميره ليهيب به انه خائن للبلاد التى ائتمنته ووثقت فيه ٠ ولكن الروس كانوا يلاحقونه باغرائهم وبأموالهم ، حتى انصاع وأصبح تحت رحمتهم ٠٠ **وبينما كانت « القنبلة الذرية » تمر بآخر مراحل التجربة ، ظل جاسوس روسى على اتصال مستمر بالعالم الشاب ، متبعا فى اتصالاته أساليب بارعة لم تعرضه أو تعرض كلاوس لأية شبهة !**

وعندما تمت هزيمة دول المحور ، عاد كلاوس الى انجلترا ، حيث عين فى منصب من مناصب المسئولية الرئيسية فى أول مركز للأبحاث الذرية فى انجلترا ، وهو مركز أبحاث (هارويل) ٠ وهناك ، خفت وطأة العجلة التى كانت تتطلبها حاجة الحرب ، فبدأ كلاوس يجد متسعا من الوقت لامعان الفكر ٠٠ وبدأت الهواجس تراوده ، اذ تناهت الى انجلترا الضجة التى أحدثتها قضية الجاسوسية الروسية فى كندا ، واسترعى انتباه كلاوس بالذات ما تجلى خلال تلك القضية من استغلال الشيوعيين السذج فى التجسس ٠٠وزاد من هواجسه ان أيقنت السلطات الامريكية - عندما فجرت روسيا أولى قنابلها الذرية - ان الروس ولا بد قد تلقوا معونة من الخارج كشفت لهم أسرار العمليات الذرية ، فبدأ رجال مكتب التحريات الاتحادى - فى أمريكا - و « القلم الخاص » فى اسكتلنديارد بانجلترا ، يتحرون الأمر ٠٠ **وحصروا شبهاتهم**

أولا في العدد القليل من العلمـاء الذين كانوا يشتركون فى تلك العمليات ، فأخذوا يفحصون حالاتهم واحدا بعد آخر ، حتى تركزت الشكوك فى ستة من هؤلاء العلماء ٠٠ كان بينهم كلاوس فوخس !

وفى تلك الأثناء ، كانت الهواجس قد استبدت بالعـالم الشاب ، وأصبح ذهنه مسرحا لأفكار متضاربة متصارعة ، فلم يجد سبيلا الى التخلص من هذا التوتر المرهق الا بالاعتراف !

كلاوس ينتمى الى هذا الجيل ٠٠ الحائر !

◆ **وكان** اعترافه وثيقة عجيبة ، تنم عن حيرة الجيل الجديد من الجـواسيس وتخبطهم ٠٠ وتدل فى الوقت ذاته على الاضطراب الفكرى الذى يسود عصرنا الحالى !٠٠ ووجد النائب العـام - فى انجلترا - انه ازاء قضـية بلغت ذروة الخطورة ، ولست أجد خيرا من أن أنقل بعض فقرات من قرار الاتهام : « لم يعد هناك ريب فى ان المعلومات التى أفشيت خليقة بأن تكون ذات فائدة عظمى لأية دولة تناصبنا العـداء ٠٠ وقد لا تصبح الدولة التى قدمت اليها الأسرار عدوا لنا يوما ما٠٠ فمع أن علاقاتنا بالاتحـاد السوفييتى لا تزال فى حاجـة الى كثير من الأمور المرغوب فيها ، الا انها ليست علاقات معادية » ٠٠ « فى البيـان الذى أفضى به السجين ، اختلطت الدوافع بالحقائق دون ما تفسير واضح : فالسجين شيوعى ، وهذا هو التفسير المباشر وموطن المأساة فى القضية ٠٠ **اذ أن اخلاصه للشيوعيـة طغى على تفكيره الى حد جعله مزدوج الشخصية ، فاذا بالجزء المسيطر على سـواه من أجزاء عقله ، يسمح له بأن يأتى أشياء كانت تلك الأجزاء الأخرى تعترف صراحة بأنهـا تصرفات خاطئة » ٠٠ وكان النائب العـام يعنى بذلك ان ولاء**

المتهم للشيوعية طغى على كل ولاء آخر ، وجعله يأتي من الأعمال ما كانت مبادئه واتجاهاته الفكرية الأخرى تعيبه

ونقل النائب العام فقرات من بيان فوخس للتدليل على ذلك : « عندما علمت بالغرض المقصود من العمل الذى انتدبت له ، رأيت ان أبلغ روسيا الأمر ، فاتصلت بعضو آخر فى الحزب الشيوعى ، ومنذ ذلك الحين أصبحت على اتصال مستمر بأشخاص لم أكن أعرف عنهم سوى شىء واحد ، هو انهم على استعداد لأن يقدموا كل ما لديهم من معلومات الى السلطات الروسية .. **وكنت اذ ذاك أثق ثقة تامة فى السياسة الروسية، كما كنت أعتقد ان الحلفاء الغربيين تعمدوا اشعال نار الحرب بين ألمانيا وروسيا حتى تقضى كل منهما على الأخرى !** ولذلك لم أتردد فى ان أفضى للروس بكل ما كان لدى من معلومات ، وان حاولت ـ رغم ذلك ـ ان أركز تلك المعلومات فى نتائج العمل الذى كنت أقوم به .. واستغللت فلسفتى الماركسية فى تقسيم عقلى الى قسمين منفصلين ، سمحت لنفسى فى أحدهما بأن أرتبط بصداقات وعلاقات شخصية ، فألتقى بالناس وأصبح فى علاقتى معهم الرجل الذى كنت أرجو ان أكونه ، بل والذى كنته من قبل ـ الى حد ما ـ فى علاقتى الشخصية بمن كان لى من أصدقاء فى الحزب الشيوعى » .. **أما القسم الثانى ، فهو الذى سمح فوخس لنفسه فيه بأن ينقل نتائج أبحاثه العلمية الى روسيا . ولقد حاول ، عندما طلبت منه السلطات الروسية مزيدا من التفصيلات عن القنبلة الذرية ، ان يقتصر على ابلاغها نتائج عمله فقط .** على انه عندما عين فى (هارويل) بعد ذلك ، بدأ يمحص المعلومات التى كان يقدمها

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٣ ، أوفد فوخس الى أمريكا لمواصلة أبحاثه ، فجدد العهد بأن يصون أسرار عمله . وقضى ١٨

شـــهرا فى أمريكا ، بعضـــــها فى نيويورك وبعضــــها فى نيو مكسيكو . وقد عقد عدة اتصالات مع الجواسيس الروس فى تلك الأثناء . ثم تناهت الأنباء من أمريكا عن تسرب أسرار ذرية فى الفترة التى كانت البعثة البريطانية فيها هنـــاك ، فأجريت تحريات واسعة النطاق ، انحصرت الشبهات فى نهايتها فى فوخس .. وسواء شعر بها أم لم يشعر ، فانه كان يحس بقلق وعدم اطمئنان الى مسلكه .وقد عبر عن ذلك فى اعترافاته بقوله : « وفى أعقاب الحرب ، بدأت أشعر ثانية بهواجس ازاء السياسة الروسية . وفى تلك الفترة لم أعد واثقا ان بوسعى ان أمضى فى اعطائهم ما لدى من معلومات .. وتجلى لى - أكثر من ذى قبل - ان الوقت الذى يتم فيه لروسيا بسط نفوذها على أوربا جد بعيد ، فكان على ان أقرر ما اذا كنت أمضى فى نقل المعلومات اليهم سنين عديدة أخرى ، دون أن أكون متأكدا فى نفسى من اننى كنت على صواب فيما أفعل .. وانتهى رأيى الى اننى لن أســـتطيع . وتخلفت عن موعـــد كان بينى وبينهم - لأننى كنت مريضا اذ ذاك - كما قررت ان لا أذهب فى الموعد التالى . وبعد ذلك بقليل ، أنبأنى أبى بأنه قد يرحل الى المنطقة الشرقية من ألمانيا »

وبعد أشهر قلائل ، أخذ فوخس يزداد اقتناعا بوجوب تخليه عن عمله فى (هارويل) .. « **على اننى بدأت أرى بوضـــوح اننى سأوجه ضربة قاصمة لهارويل ولكل العمل الذى أحببته ، اذا أنا رحلت.. كما اننى سألقى الشكوك على أصدقاء أحببتهم ، وعلى أشخاص كانوا يرون فى صديقا لهم .. واذ ذاك تبينت أن الجمع بين المبادىء الثلاثة التى كونت شخصيتى ، كان جمعا خاطئا .. بل ان كل مبدأ منها كان خاطئا فى حـد ذاته .. وتبينت ان ثمة معايير معينة للسلوك الخلقى لايمكن اغفالها** » !

ولقد استغل الدفاع عن فوخس ذلك التوتر الذهنى الذى

كان العالم الشاب يعانيه ، فى مناشدة المحكمة ان تترفق فى الحكم عليه ٠٠ وأسهب فى وصف حيرته العقلية ازاء ما اعترض حياته – فى صباه – من تضارب بين الآراء النازية والشيوعية ٠٠ ثم ازاء تضارب الأحداث فيما بعد

ولم يشأ فوخس ان يعقب بعد ذلك الا بشكر هيئة المحكمة، وهيئة الدفاع ، وهيئة السجن ، على معاملتهم

وكان القاضى لاذعا فى التعليق الذى وجهه الى المتهم عندما قضى عليه بالسجن أربعة عشر عاما ، اذ قال : « لقد استغللت – وانت هارب من الاضطهاد السياسى فى ألمانيا – حقوق وكرم البلاد التى لذت بها ٠٠ وخنت الضيافة والحماية اللتين بسطتا لك بأبشع غدر ٠٠ وفى رأيى ان هناك أربعة أمور أراها أخطر وجوه الجريمة : أولا ، انك بسلوكك عرضت للخطر حق الايواء الذى كانت هـــذه البلاد تبسطه للاجئين من قبل ٠٠ فكيف نجرؤ الآن على ان نأوى لاجئين سياسيين قد يكونون من اتباع هذه العقيدة السياسية التى تعادى عقيدتنا ؟٠٠ وثانيا ، انك لم تقتصر على افشاء مشروعات ومخترعات من انتاج ذهنك ، بل انك خنت أيضا أسرار غيرك من العاملين فى هــذا الميدان من ميادين العلم ، لا فى هذه البلاد وحدها ، بل وفى الولايات المتحدة ، وألقيت أخطر الشبهات على أولئك الذين كنت تتظاهر بأنك صديقهم ٠ وثالثا ، انك ربمـــا تكون قد عرضت للخطر مابين هذه البلاد والجمهـورية الامريكية من عـــلاقات طيبة ٠ ورابعا ، انك ألحقت بهذه البلاد وبالولايات المتحـــدة أضرارا لا تعوض ، ولا يمكن معرفة مداهـــا ٠٠ وقد فعلت كـــل ذلك لغرض واحد – كما يظهر من اعترافاتك – هو تعزيز عقيدتك السياسية ٠٠ فاننى أحب ان أسلم بأنك لم تفعل ذلك لكسب المال ! على انى لست أحكم عليك لأعاقبك ، فان العقاب بالنسبة لرجل له مثل عقليتك لا يعنى شيئا ، وانما يدعونى واجبى الى

أن أوقع بك العقوبة حماية لهذه البلاد ٠٠ اذ كيف أطمئن الى انك لن تسمح لعقلك فى أية دقيقة أخرى بأن يسير بتلك الطريقة الغريبة ، فيفضى بك الى افشاء أسرار لها أعظم قيمة وأهمية فى هذه البلاد ؟! »

خطر العلماء ٠٠ على البشرية !

• **ولا** تكاد توجد قضية من قضايا التجسس أثارت مشاعر الرأى العام مثل هذه القضية ، اذ هزت رجل الشارع هزا ! كانت قضية التجسس فى كندا قد كشفت بجلاء عن ان ثمة شبكة للجاسوسية الروسية فى انجلترا ، وفى أوساط علمائها بوجه خاص ٠٠ ولكن الرأى العام البريطانى أبى ان يصدق ان مثل هذه الشبكة يمكن أن تقوم فى بلاده ٠ فلما صدم بقضية فوخس ، راح يهاجم فى غضب نظام الأمن فى انجلترا ٠٠ ولكن أية دولة لا تصيب من الأمن الا بقدر ما تبذل من جهود ويقظة واستعداد !

ومن الحقائق المذهلة التى أظهرتها هذه القضية ، هو اننا نزداد اعتمادا فى حياتنا الحديثة على العلم ، دون أن ندرك منه الا القليل ، مما يجعلنا تحت رحمة العلماء بدرجة هائلة ، ويمكنهم من ان يغرروا بنا بسهولة اذا شاءوا ٠٠ وقد لاحظنا أن هناك علماء بارعين فى ميادينهم ، ولكنهم فى تصرفاتهم يهبطون الى مصاف الأطفال السذج !

ولكن مما يتجافى مع المنطق ان ننظر الى قضية فوخس على انها وحدة قائمة بذاتها ، بل يجب ان نربط بينها وبين الماضى — كقضية التجسس الكندية — وبينها وبين المستقبل ٠٠ فليس من شك فى ان سير التجسس قد اتخذ طريقا جديدا ، وأصبح يستعين بوسائل حديثة — الى جانب القديمة — ومن ثم وجب ان تتغير نظرتنا اليه ، ووسائلنا فى مقاومته !

الفصل الختامى

مستقبل الجاسوسية

◆ **على** الرغم من ان الشجاعة التى يبديها الجاسوس الذى يعمل لصالح بلده تخفف من قبح الجاسوسية وشناعتها ، الا انها لا تمحو تماما ما فى مهمة الجاسوس من صفة ممجوجة . فلماذا اذن تسكت عنها الشعوب وترتضيها أحيانا ؟.. **الواقع ان الجاسوسية فى حد ذاتها ليست علة أو سببا ، وانما هى نتيجة ، أنمتها الحروب المتعاقبة ، والخوف من الحروب . فلو أننا استطعنا ان نمحو الحروب ، لتلاشت الجاسوسية !**

ان ثمة ضبابا كثيفا يلف أوربا والشطر الأكبر من العالم اليوم .. ضباب الشك والتوجس ، الذى لا يثير الأعصاب شىء مثله . فأنت لا تدرى ما اذا كانت اليد التى تمتد اليك تبغى أن تأخذ بيدك وترشدك ، أو انها تمتد لتنشل ما فى جيبك !

وهذا الضباب العالمى قديم العهد ، طويل العمر ! وليس من الانصاف ان يلقى عبء تنميته كله على روسيا وحدها . بل ان أكبر ذنب أتاه زعماء السوفييت هو انهم لم يستغلوا الفرصة التى سنحت - عندما حانت ساعة النصر فى سنة ١٩٤٥ - لتبديد هذا الضباب ، فجعلوا ساسة الدنيا يقضون الساعات الطوال فى مناقشة آثاره ، دون أن يذكروا أسبابه الأصلية.. **ومن ثم فان الضباب يزداد تكاثفا ، وشرور الحرب لا تزال تخيم على أفق العالم .. فلا نجد ركنا فى الأرض يخلو من القلق والهواجس .. وكل هذا خليق بأن يؤخر كل تقدم حقيقى !**

ولسنا نجاوز المعقول فى شىء ، اذا قلنا ان فى العالم اليوم من الجاسوسية الحربية والبحرية والجوية أكثر مما كان فيه ،

فى أية فترة من فترات السلام(١) ٠٠ وكل ما هنالك هو ان أسلوب التجسس قد تغير ٠٠ فأصبح رجال المخابرات الموكلون بتصيد الجواسيس – فى البلاد الديموقراطية – هم أكثر الناس عناء وتعرضا للارهاق ٠ ثم ان مراقبة الخونة من أهل البلاد تعتبر أشق بكثير من مراقبة الجواسيس الأجانب ٠ ذلك لأن الأجنبى عرضة لأن يفضح نفسه بأتفه خطأ يبديه نتيجة جهله بالعادات المحلية ٠ أما الخائن لوطنه ، المتجسس فى داخل بلاده لدولة أجنبية ، فمواطن كغيره من المواطنين ، لا يختلف عنهم فى شىء الا بأفكاره وآرائه – وهى أشياء يمكن ان تختفى وراء مظهر خادع – فضلا عن انه يعرف بلاده ، وله كل حق قانونى فى أن يتنقل فى أرجائها ٠٠ ومن ثم نرى بجلاء ان مراقبة الخونة المحليين أصعب بكثير من مراقبة الجواسيس الأجانب

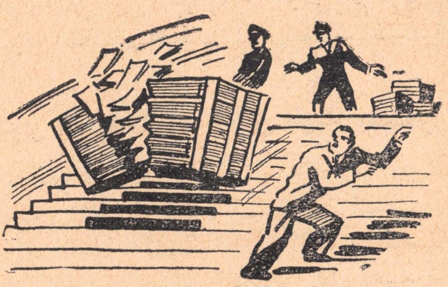
مستوى الديبلوماسية ٠٠ فى انهيار مستمر !

• **ولقد** يسخر الشباب الحديث من أسلافه ، ولكن بعض أساليب الأجيال الماضية كانت أسمى من أساليب الأجيال الراهنة من الناحية الخلقية ٠٠ اذ أثبتت القضايا الحديثة هبوطا عاما فى المستوى الخلقى الدولى : **فلم تعد « المعاهدة » اليوم وثيقة مصونة محترمة ، ولكنها أصبحت وسيلة للخداع ٠٠ وصارت « كلمة الشرف » غير ذات معنى تقريبا !**

وقد امتد انهيار المستوى العام للأخلاق الى الميدان الديبلوماسى ، الذى كان من قبل نظيفا فى أساليبه الى حد كبير ٠ ولا يخفى الروس ايمانهم بذلك ، فهم يعتبرون كافة الديبلوماسيين الأجانب فى بلادهم جواسيس !٠٠ ومن

(١) ثبت فى قضية شبكة الجاسوسية المعروضة أمام القضاء المصرى الآن ، ان الجواسيس كانوا على اتصال ببعض ملحقى السفارة البريطانية بالقاهرة ٠

الطبيعى ان يتوقع غيرهم ان يكون كافة الموظفين الروس فى الخارج جواسيس لبلادهم أيضا !٠٠ وكان الألمان أبعد الناس عن ان ينساقوا للاوهام ازاء هذا الأمر ٠ وقد حدث ذات مرة ، ان وصل الى ألمانيا ديبلوماسى روسى - من حملة الحقائب الديبلوماسية - ومعه اثنا عشر صندوقا خشبيا كبيرا ، فراودت الهواجس أحد الألمان المكلفين بمقاومة الجاسوسية ، ومن ثم أوعز الى أحد حمالى محطة (فريدريكسهافن) -احدى محطات السكة الحديدية ببرلين - بأن يتعمد اسقاط أحد الصناديق على الأرض ٠٠ وعندما تهشم الصندوق ، تناثرت منه ألوف من المنشورات الثورية !



ولقد كانت الحصانة الديبلوماسية امتيازا عظيم القيمة يوما ، ولكنها انحطت اليوم الى الدرك الذى جعلها تتخذ أحيانا ستارا للتجسس واعمال التخريب ، وبث الدعايات التحريضية والانقلابية !٠٠ كما كانت « الحقيبة الديبلوماسية » يوما أداة لها كرامة وحرمة ٠٠ وكانت هذه الحقيبة من قبل صغيرة ، اذ لم تكن ترسل فيها سوى الأوراق السرية فقط ٠٠ أما اليوم فقد تضخمت الحقائب الديبلوماسية بدرجة كبيرة وانحطت كرامتها ٠ ومن الأمثلة على هذا ، ان سفيرا فى بريطانيا أراد يوما أن يقيم حفلة ، فاستورد مائة صندوق من خمور وطنه

فى « الحقيبة الديبلوماسية » !·· **وأعرف ديبلوماسيا انجليزيا كان فى موسكو – أثناء الحرب – فاعتاد ازاء أزمة الصابون ان يرسل « ثيابه المتسخة » الى مغسل فى انجلترا ، فى « الحقيبة الديبلوماسية » ·· ولك أن تتصور منظر « رسول الملك » – كما كان يسمى حامل الحقيبة الديبلوماسية الانجليزية اذ ذاك ! – وهو يحرس فى وقار حقيبة تشتمل على ثيـاب متسخة ، مرسلة من طرف أوربا الشرقى ، الى طرفها الغربى !**

لذلك فان الواجب أصبح يقضى باعادة النظر فى النظم العتيقة ، لاسيما وان أسلحة الحرب قد تغيرت تغيرا كبيرا ، سواء من حيث سرعة ارسالها أو قوة تدميرها·· ومن الاقتراحات التى أثيرت فى هذا الصدد ، ان يقابل استغلال الامتيازات الديبلوماسية فى التستر على أعمال الجاسوسية بمثله !

ومما يؤثر عن الكولونيل والتر نيكولاى – مدير المخابرات السرية الألمانية فى الحرب العالمية الأولى – قوله : « ان التجسس مهمة لا يمارسها سوى السيد المهذب المثقف ! » · وقد ينطبق قوله هذا على من يتجسس لصالح بلده ، ولكنه لا ينطبق على من يخون بلده لمصلحة غيره ، ولا على من يتوسل بالتآمر الديبلوماسى الذى لا يقوم على مبدأ أو أساس !··

ولقد كان الشعور الذى ساد بريطانيا بعد قضية « فوخس » أبعد ما يكون عن الاستنكار والغضب للكرامة القومية ·· كان شعورا من القلق وعدم الطمأنينة : ترى كم « فوخس » آخر·· كم شخصا على غرار فوخس لا يزالون طلقاء ؟·· **وهكذا أحرز الروس – بهذه القضية – نصرا فى احدى مناوشات الحرب الباردة التى تعتمد على اضعاف الروح المعنوية بالتخويف** (١)

---

(١) يجب ان نذكر ونحن نقرأ هذا الجزء ان مؤلف الكتاب انجليزى ، وانه يتحدث عن الموقف كما يراه الغرب ·

وفى بعض الدول اليـــوم ، ينبث البوليس السرى فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ويستعان بأجهزة التسجيل الميسورة الاخفاء ، وبأســاليب التحقيق البوليسى الشديدة ، لمقاومة الجاسوسية الأجنبية . ومكتب التحريات الامريكى ذاته ـ رغم ما تفخر به أمريكا من اعتزاز بالحريات ـ يســتخدم وسـائل تعتبر افتئاتا على الحريات .. **فيكفى ان يشتبه فى ان شخصا ما شيوعى ، لكى يتبعه البوليس السرى أياما وأسابيع ، ولكى يتعرض أصـدقاؤه ومعارفه لاستجوابات دقيقــة ، وتراقب اتصالاته التليفونية ورسائله !.. ذلك لأن من واجبنــا ان نعترف بأننا نخوض حربا فعلية وان لم تكن رسمية .. سواء سميت هذه الحرب « حربا باردة » أو « حربا ساخنة » !**

ولقد فطنت الولايات المتحدة الامريكية ـ أثناء الحرب العالمية الأولى ـ الى أن قوانينها الخاصة بمقــاومة الجاسوسية كانت متخلفة عن قوانين سائر بلاد العالم . أما الآن ، فان بريطانيا هى المتخلفة ! ولقد كشفت محاكمة وليم جويس ـ الذى كان يوجه الاذاعات الى بريطانيا من راديو برلين أثناء الحرب العالمية الثانية ، والذى اشتهر باسم لورد « هاو هاو » ـ ان الصحيفة الفاشية التى كان يصدرها فى انجلترا حتى ســنة ١٩٣٩ ، كانت تعتمد فى مواردها المالية على ألمانيا .. ولو ان هذا حدث فى الولايات المتحدة لاعتبر جريمة ، ولكن القانون فى انجلترا يبيح لأية دولة أجنبية ان ترســل الاعانات المالية للصحف والمؤلفين وجمعيات الصداقة مع الدول الأجنبية وسائر الهيئات الممكن استغلالها فى الدعاية . وليس فى القــانون ما يجبر هؤلاء على أن يذيعوا مصدر العون المالى الذى يتلقونه !

« أدركوا السلام .. قبل فوات الأوان ! »

◆ **أما** عن احتمال نشوب الحرب عن عمد وتدبير وقصـد ،

فهو فى رأيى أمر مستبعد ، اللهم الا اذا كان الجنس البشرى قد بلغ من الغباء حدا يفوق التصور ! على ان أحدا لا يستطيع ان ينكر ان هناك ما يسمى « حربا باردة » ، وان هذه الحرب لا تقل فى نتائجها المدمرة عن الحرب العسكرية !٠٠ **وان المشكلات الموجودة اليوم فى العالم ، لتدل على ان الانسان لا يفيد من دروس الماضى ٠٠ والمنازعات القائمة اليوم بين الدول - فى شرق الأرض وغربها - ميادين تعمل فيها الجاسوسية بنشاط ودأب ٠ وقد يساهم بعضها فى زيادة حدة التوتر بين الشرق والغرب ، أو بين روسيا والديموقراطيات الغربية ٠٠ وهذا هو الخطر الأعظم كما قلنا من قبل !٠٠**
لقد كشفت الأحداث عن ان نظام الجاسوسية السوفييتية يشمل العالم على سعته ، وليس ثمة ما يبرىء الغرب من ان يكون له مثل هذا النظام !٠٠ و « الحرب الباردة » قد تتحول فى أوجز وقت الى لهب ٠ ومن ثم فنحن اليوم فى حاجة الى تعريف جديد لكل كلمة من كلمات الحياة اليومية العادية ٠٠ نحن فى حاجة الى تفسيرات جديدة ، لا لكلمة « الديموقراطية » فحسب ، وانما لكلمة « الجاسوس » أيضا

ولست أزعم ان أية أساليب تبتكر كفيلة بأن تمحو الجاسوسية محوا ، فان هذا مستحيل ٠٠ ولكنها قد تساعد على ان تجعل نشاط الجاسوسية الشرقية فى الغرب عسيرا متعذرا ، كنشاط الجاسوسية الغربية فى الشرق ٠٠ أى فى الدول السوفييتية٠ وتشديد الاجراءات المحكمة ضد الجاسوسية ، بأساليب الأمن والبوليس ، لن تزيد الموقف الدولى سوءا ٠٠ ولقد كان الضباب من العوامل التى كثيرا ما عاقت السلاح الجوى البريطانى فى أثناء الحرب الأخيرة ، فماذا فعل ؟٠٠ لقد ابتكر أجهزة لتبديد الضباب الذى يتكاثف على المطارات الرئيسية

ونحن اليوم فى حاجة الى جهاز عقلى لتبديد الضباب المخيم

على العالم ٠٠ ولست أرى خيرا من الأفكار الذكية والعمل الدائب لتكوين هذا الجهاز ٠ ولدينا الأساس الذى نقيمه عليه ، ممثلا فى ميثاق الأطلنطى وميثاق الأمم المتحدة ، فهما لا يزالان فى حاجة الى عمل شاق وجهود جبارة لاقرار السلام العالمى ٠٠ ومن أهم الاجراءات التمهيدية لخلق جهاز تبديد ضباب الشك المخيم على العالم ، فهم كل شعب لوجهات نظر الشعوب الأخرى ٠٠ وفهم كل من الكتلتين الغربية والشرقية لوجهات نظر الأخرى بالذات !

ان الاحصاءات التقديرية توحى بأن دول العالم تنفق سنويا ما لا يقل عن ١٨٠ مليونا من الجنيهات على الجاسوسية ، وهى أشد ما تكون حاجة الى هذه الأموال لتحسين أحوالها بعد الحروب المتعاقبة التى مرت بها

لقد قال ليتفينوف أثناء الحرب العالمية الثانية : « **السلام لا يتجزأ** » **٠٠وهذا حق ، فكما نطالب بتسريح القوات المسلحة، يجب ان نطالب بتسريح الجواسيس ٠٠ ويجب ان لا يتم التسريح من أحد الجانبين دون الجانب الآخر !**

كذلك قال الكولونيل نيكولاى الألمانى ــ وهو من أشهر أساتذة الجاسوسية فى عصرنا هذا ــ ان « الجاسوسية بارومتر يسجل درجة الضغط بين الأمم » ٠٠ **وهذا البارومتر يوحى اليوم بأن فى الجو بوادر عاصفة هوجاء ، ينبغى تسكين حدتها !**

تم الكتاب

إقرأ في هذا العدد:

أغرب قصص الجاسوسية الواقعية في كل العصور:
منذ عصر موسى والمسيح ويوسف الصديق..
إلى عصر قيصر، والاسكندر المقدوني،
وجنكيزخان، وتيودورا، وريشليو،
ولويس الرابع عشر، وكرومويل،
وكاترين دي مدسيس، ونابليون
.. ثم في العصر الحديث في حروب غليوم،
وهتلر، وستالين .. الخ..

سجل تاريخي وقصصي
يجب أن تقرأه وتقتنيه

